الجامعة الإسلامية . غزة
عمادة الدراسات العليا
كلية أصـول الدين
قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة



الخوف الغربي من الإسلام
أسبابه ووسائلـه وآثاره

إعداد الطالب
رائد أحمد غنيم

إشراف الأستاذ الدكتور
محمود يوسف محمد الشوبكي

قدم هذا البحث استكمالًا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

١٤٣٣هـ . ٢٠١٢م



﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (الممتحنة: ٨)

إهداء

إليهما دائماً : أمي وأبي...

رب ارحمهما كما ربياني صغيرا.

الباحث: رائد أحمد محمد غنيم

شكر وتقدير

قال تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ النمل: ٤٠

ويقول رسولُه ﷺ: **(مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ)**[1]،فإنَّني وبَعدَ أنْ أَحمدَ اللهَ عزَّ وجَلَّ حَمْداً يليقُ به، أُثني عليه ثناءً قَدْرَ ما يُوفِي عطاءه الواسع أنْ يَسَّر لي جميعَ السُّبُل إلى إتمام هذه الرّسالة، وبَعدَ أنْ أُباركَ جُهدي وجُهدَكم بالصَّلاة والسَّلام على معلّمي الأوَّل، وشفيعي محمدٍ ﷺ:

أتقدم بالشكر والثناء والعرفان إلى أستاذي الأستاذ الدكتور/ محمود الشوبكي . حفظه الله . **الذي أشرف على هذا البحث، ومنحني من جهده، ووقته، وإرشاداته الطيبة، مما كان له الأثر البالغ في إثراء هذا البحث.**

كما أتقدم بخالص الشكر و التقدير إلى عضويّ لجنة المناقشة.

الأستاذ الدكتور الفاضل/ زكريا الزميلي حفظه الله . .

والأستاذ الدكتور الفاضل/ سعد عاشور حفظه الله . .

لتفضلهما بقبول مناقشتي وإبداء الإرشادات التي تثري البحث وتكسبه متانة ورصانة.

وأتوجه بالعرفان إلى بيتي الثاني الجامعة الإسلامية، إدارةً، ومحاضرين، وموظفين، وأخص بالذكر كلية أصول الدين، وقسمها الشامخ قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة.

---

(1) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، حديث رقم١٩٥٤ ، ص٤٤٥ ،تحقيق: محمد الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط١، بدون سنة طبعة، قال الألباني: صحيح.

مقدمة:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فإنه على الرغم من انحسار المد الإسلامي بعد سقوط دولة الخلافة الراشدة في بدايات القرن المنصرم، إلا أن الإسلام حافظ على قوة كامنة فيه جعلته يحافظ على حضوره وتواجده على الخارطة العالمية، فظل الإسلام حيوياً في نفوس أبنائه يترجم ذلك تواجدهم المطَّرد حتى بعد سقوط دولة الخلافة، وهذا ما دفع الغربيين إلى الخشية من اللحظة التي ينبعث فيها من جديد.

ومن هنا فقد تواترت الكتابات الغربية التي ما فتئت تبحث وتستقصي في السبل اللازمة لتطويق الإسلام وتحجيمه والتحذير من الأخطار المتوقع نجومها منه، ولم تخلُ هذه الدراسات من افتراءات ودعاوى جانب الصواب معظمها.

وهذه الدراسات حديثة في شكلها قديمة في مضمونها، وفي معينها الذي استقت منه، فالافتراءات الغربية على الإسلام ليست وليدة اللحظة، ولكنها امتداد لدعوى قديمة تناولت في مجملها العقائد والأطروحات الإسلامية بنظرة ضبابية سوداوية يعوزها المنطق العلمي الصواب الذي لا يبني آراءه على أحكام مسبقة. فتارة طالت هذه الافتراءات شخص النبي عليه السلام، وتارة نبوته وتشريعاته وأحكامه الاجتماعية والسياسية والأخلاقية.

وإذا عاش المسلمون في بداياتهم في كنف دولة تذب عنهم في ميادين الجهاد والفكر، فقد غشيتهم اليوم غاشية جعلت صوتهم مكتوماً وجسدهم مكلوماً، ينادون فلا يُستمع لهم، وتُستباح دماؤهم فلا يذب أحد عن بيضتهم، فيستغيثون دون أن يلبي استغاثاتهم مغيث. فتمالأ الشرق والغرب عليهم، حالهم حال القصعة التي تتداعى عليها الأمم كما تنبأ لهم نبيهم –عليه السلام–.

ومن هنا كانت هذه الدراسة التي تميط اللثام عن كثير من الدعاوى والافتراءات التي تبغي استئصال شأفتهم، لتجلي الحق وتبديه كما ينبغي له، ليهلك من هلك على بينة، وهي بذلك تنتهج السبيل العلمي، فتبرز دوافع الغربيين للنيل من الإسلام، وتكشف عن الأسس التي بنوا عليها افتراضاتهم وتخيلاتهم، وهي بذلك لا تنحى منحى المدافع المستكين الذي ينتهج المنهج التبريري، ولا المهاجم الذي تعميه قوة شكيمته عن الرؤية الموضوعية المفترضة لمثل ذلك المضمار وذلك الميدان وحلبة النقاش. إذ أن الفكر يجابه بالفكر، والحجة تدحضها الحجة، وإذا كان السيف غاب عن هذه الأمة المرحومة، فإن الحجة والمنطق والبرهان ما غاب عنها، وهي من وصفها ربها بأنها خير أمة أخرجت للناس.

وعليه فهذه الدراسة تتناول أهم الشبه والدعاوى التي ما سئم الغربيون من ترديدها، فهي تناقش مخاوف الغربيين وطرحها القاتم لنظرية الجهاد في الإسلام، والنظام السياسي في الإسلام من باب أولى، وتُجَلي الحقائق فيما يتعلق بالمخاوف الغربية من خطر ازدياد سكان المسلمين، ومن الجانب الروحي الذي يتميز به الإسلام عن غيره من الأديان والعقائد الأخرى.

أولاً: أهمية الموضوع وبواعثه:

تكمن أهمية البحث في تناوله لقضية حيوية هي مدار البحث والتحقيق في الآونة الأخيرة، وذلك بعد موجات الصحوة الإسلامية التي أخذت مأخذها من أقلام الغربيين والإسلاميين سواء بسواء. وتتميز هذه الدراسة بتناولها لموضوع لم يُبحث بحثاً شموليا يحصي أهم هذه المخاوف والافتراءات، وتكمن أهمية البحث في النقاط التالية:

١- من خلال اطلاع الباحث على الدراسات التي تناولت هذا الموضوع، وجد أن معظم الدراسات تناولت الموضوع بصورة مجتزأة غير وافية.

٢- يريد الباحث من خلال هذه الدراسة أن يبين تناقض وتهافت المخاوف الغربية من خلال أقوال الغربيين أنفسهم -المنصفين وغير المنصفين منهم- ومن ثم يبيِّن موقف الإسلام من المخاوف المطروحة وذلك من خلال الاستقاء من معين السلف رضوان الله عليهم.

٣- إن العالم اليوم أشبه ما يكون بقرية كونية واحدة، وذلك بعد التطور التكنولوجي والفضائي المطرد، وعليه تأتي هذه الدراسة للذب عن الإسلام وللمحافظة على ثقة العامة من أبناء المسلمين إذا ما أرقتهم الشبه التي تطالهم يوما بيوم وساعة بساعة.

٤- يرغب الباحث من خلال البحث أن يُظهر الدوافع العقائدية لهذه المخاوف، ليؤكد أن الغرب فهموا العلمانية على خلاف ما فهمها علمانيو العرب، فالعلمانيون الغربيون حافظوا على حبل مع دينهم الباطل، بينما علمانيو العرب يريدون أن يقطعوا كل الأواصر التي تربطنا بالدين الإسلامي.

ثانياً: منهج البحث وطبيعة العمل فيه:

سيستخدم الباحث في هذه الدراسة المنهج الوصفي النقدي للنصوص وذلك عن طريق عرض هذه المخاوف على التاريخ أولاً والواقع ثانيا، وبيان التناقض الذي يلفها، ومن ثم عرضها على الكتاب والسنة.

ثالثاً: طريقة البحث:.

١. كتابة الآيات بالرسم العثماني، وتمييز الآيات بوضعها بين هلالين بهذا الشكل﴿ ﴾ ، وذلك في المتن.

٢-جمع الشبهات التي رمى الغرب بها الإسلام.

٣-نقد هذه الشبهات وتبيان أوجه الخلل والقصور التي تعتريها.

٢. الاستدلال بالأحاديث النبوية والآثار التي تخدم البحث وعزوها إلى مظانها الحديثية، وذلك بذكر أهم مصادر السنة التي خرجت الحديث ورونه، ونقل حكم العلماء عليها عدا ما ورد في الصحيحين فهما لا يحتاجان لذلك كما هو معلوم.

٣. الترجمة لبعض شخصيات البحث والتعريف بهم حسب الحاجة لذلك.

٥. توثيق النصوص المنقولة لأول مرة في الهامش، مبتدئًا بذكر اسم الكتاب، فاسم المؤلف مع بيانات التوثيق كافة، وعند تكرار ذكر المرجع أثبت اسم الكتاب ورقم الصفحة.

٦. في حال الاقتباس من نفس الكتاب بعده مباشرة فإني أكتب المرجع السابق، ذاكرًا رقم الجزء إن وجد، ورقم الصفحة.

٧. إعداد الفهارس اللازمة، وترتيبها على النحو التالي، الآيات القرآنية، ثم الأحاديث الشريفة، ثم الأعلام المترجم لهم، وأخيراً المصادر والمراجع والموضوعات.

٨. قام الباحث بذكر الآيات القرآنية في فهرس خاص بها حسب ترتيب ذكرها في البحث، أما فهارس الأحاديث النبوية، والأعلام والرواة المترجم لهم حسب الترتيب الأبجدي للحروف.

رابعاً: الدراسات السابقة:

من خلال اطلاع الباحث على سلسلة من الدراسات السابقة، لم يجد دراسة تناولت موضوع الخوف الغربي من الإسلام تناولاً شاملاً، إذ تناولت معظم الدراسات جوانب مجتزءة من الموضوع، ويمكن الإشارة إلى جملة من هذه الدراسات:

-بين الغرب والإسلام، مرثيدس غارثيا أرينال، ترجمة ممدوح البستاوي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٥م. وتناولت هذه الدراسة الجانب الاجتماعي بين الغرب والإسلام، وركزت على الفرد والأسرة، والأحكام التشريعية التي تحدد العلاقة بينهما في التشريع الإسلامي والقوانين الغربية.

- أسرار هجوم الغرب على الإسلام، عادل بن علي الشدي، الطبعة الأولى، دار الوطن للنشر والتوزيع، الرياض، ٢٠٠٨م. وتناولت هذه الدراسة الخوف الغربي من الإسلام، مقتصرة على المخاوف المعاصرة منها.

- الإسلام في الألفية الثالثة ديانة في صعود، مراد هوفمان، ترجمة: عادل المعلم ويس إبراهيم، الطبعة الأولى، دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٠م. وتناولت هذه الدراسة معالم الصحوة الإسلامية، المتمثلة بتغير الخطاب الإسلامي، وانتقاله من طور المثالية القديمة، إلى طور الواقعية المعاصرة، ومحاكاته للواقع وذلك بالمشاركة السياسية في أنظمة الحكم القائمة.

– إشكالية الخوف من الإسلام (Islamophobia) بين الرؤية الغربية والواقع الإسلامي، فائز صالح محمود اللهيبي، الطبعة الأولى، دار النهج للدراسات والنشر والتوزيع، حلب، سورية، ٢٠٠٩. وتناولت هذه الدراسة المخاوف الغربية المعاصرة، والتركيز على الجانب العسكري لهذه المخاوف، دون الإشارة إلى الأبعاد التاريخية، ودون الإشارة إلى الأبعاد الفكرية.

– صدام الحضارات... محاولة للفهم...أبعاد وأسباب ومآلات العدوان الأمريكي على الأمة الإسلامية، عبد الرازق مقري، الطبعة الأولى، دار الكلمة، جمهورية مصر العربية، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م. واقتصرت هذه الدراسة على الرد على كتاب صدام الحضارات لهنتجنتون.

والذي يميز هذه الرسالة أنها تتسم بالشمولية، لأن الدراسات السابقة تناولت جوانب معينة من الموضوع، ولم تتناوله تناولاً شاملاً، فمن الدراسات السابقة من ركز على العلاقة التاريخية بين الإسلام والغرب، ومنها على العلاقة المعاصرة، ومنها ما ركز على المخاوف العسكرية، وأخرى على المخاوف السكانية.

وهذه الدراسة تستوعب كل ذلك وتزيد، لأنها تبدأ منذ البداية الأولى لهذه المخاوف، وصولاً إلى اللحظة الراهنة، وتستشرف الرؤية المستقبلية.

والأهم مِن ذلك، أنها تستقصي أسباب هذه المخاوف، ولا تقف عند سبب واحدٍ بعينه.

خطة البحث:

وضع الباحث خطة لهذا البحث ، فجعله في مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة، وذلك كما يلي:

المقدمة: وذكر فيها الباحث أهمية الموضوع وأسباب اختياره، ومنهج البحث وطبيعة العمل فيه، وطريقة البحث، والدراسات السابقة.

تمهيد

العلاقة بين الإسلام والغرب

المطلب الأول: تعريف ونشأة الخوف الغربي من الإسلام

أولاً: التعريف بالخوف الغربي من الإسلام

ثانياً: نشأة وتاريخ الخوف الغربي من الإسلام

المطلب الثاني: العلاقة بين الإسلام والغرب

أولاً: العلاقة بين الإسلام والغرب وفق التصور الإسلامي

ثانياً: العلاقة بين الإسلام والغرب عبر التاريخ

ثالثاً: العلاقة بين الإسلام والغرب وفق الواقع المعاصر

الفصل الأول

الدوافع الغربية للخوف من الإسلام

المبحث الأول: الأسباب والدوافع بالنظر لذاتية الإسلام وخصائصه.

المطلب الأول: ربانية الإسلام.

المطلب الثاني: واقعية الإسلام وصلاحيته للتطبيق في كل زمان ومكان.

المطلب الثالث: وسطية الإسلام.

المطلب الرابع: شمول الإسلام.

المطلب الخامس: موافقة الإسلام للفطرة الإنسانية.

المبحث الثاني: الأسباب والدوافع الغربية للخوف من الإسلام (قديماً وحديثاً).

المطلب الأول: الإرث التاريخي من القرون الوسطى والحروب الصليبية.

المطلب الثاني: الصحوة الإسلامية.

المطلب الثالث: التمدد الإسلامي في الغرب

المطلب الرابع: الازدياد السكاني للمسلمين.

المطلب الخامس: الجهاد في سبيل الله.

الفصل الثاني: الأساليب الغربية العدائية ضد الإسلام

المبحث الأول: الأساليب العدائية التقليدية

المطلب الأول: الاستشراق

المطلب الثاني:الاستعمار

المطلب الثالث:التغريب

المطلب الرابع: المذاهب الفكرية المعاصرة.

المبحث الثاني:الأساليب الغربية العدائية المستجدة

المطلب الأول:مؤسسات المجتمع المدني

المطلب الثاني:عملاء الداخل وأجراء الغرب

المطلب الثالث: محاربة الحركات الإسلامية

المطلب الرابع: إشاعة الاتهامات والافتراءات والمصطلحات الموهمة

الفصل الثالث: آثار ومستقبل خوف الغرب من الإسلام

المبحث الأول: آثار خوف الغرب من الإسلام.

المطلب الأول: منع الإسلام من الانتشار والتمدد

المطلب الثاني: الحضارات بين التصادم والحوار.

المبحث الثاني: مستقبل خوف الغرب من الإسلام

المطلب الأول: مستقبل العلاقة بين الغرب والإسلام

المطلب الثاني: مواجهة مخطط الغرب في التخويف من الإسلام

الخاتمة وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

الفهارس

وهي على النحو التالي:

أولًا: فهرس الآيات القرآنية.

ثانيًا: فهرس الأحاديث النبوية.

ثالثًا: فهرس أعلام الرواة المترجم لهم.

رابعًا: فهرس المصادر والمراجع.

خامسًا: فهرس الموضوعات.

تمهيد

العلاقة بين الإسلام والغرب

المطلب الأول: تعريف ونشأة الخوف الغربي من الإسلام

أولاً: التعريف بالخوف الغربي من الإسلام

من أكثر المصطلحات شيوعاً في زماننا المعاصر، هو مصطلح الخوف الغربي من الإسلام، والذي بات يُشار إليه بجملة من المصطلحات الأخرى مثل: الإسلاموفوبيا(Islamophobia)، والرهاب من الإسلام.

"واختلفت التسميات والتعريفات بخصوص هذا المصطلح، ويكفي أن نقول بأن الغرب هو الذي ابتكر المصطلح أولاً (Islamophobia)، ومن ثم تعددت الترجمات العربية له، واختلفت هذه الترجمات في تحديد المعنى المقصود بدقة، فمن قائل بأن "الخوف من الإسلام" يعني: رفض الإسلام كديانة، وكطريقة حياة، وكمشروع تعتمده مجموعة أو طائفة من السكان، وكمشروع ثقافي أيضا، كما نُظر إليه على أنه خوف يمنع التواصل، والتبادل، والحوار، والذي يجعل من المسلم الشخص المسؤول عن كل عيوب المجتمع والعالم، وأن الإسلام مناقض للعقل، وأنه يصطدم مع الاسهامات العلمية التي يُقدمها العلم التجريبي بالذات"([١]).

ووفق هذا التعريف، يكون الخوف الغربي من الإسلام مصطلحاً ينضوي تحته جملة من المخاوف، تبدأ بالفرد المسلم ولا تنتهي بالدولة المسلمة، إذ تكمن في المسافة الفاصلة بين الفرد والدولة جملة العقائد والتشريعات الإسلامية التي يخشاها الغرب أيما خشية، وهذا ما دعا هنتنجتون للقول "مشكلة الغرب ليس مع الأصولية الإسلامية بل مع الإسلام"([٢]) وهو يعني بذلك أن الغرب يخشى الإسلام ليس بسبب بعض الممارسات التي يقوم بها المسلمون، كالتفجيرات وخطف الرهائن والاستيلاء على الطائرات، بل الغرب يخشى من الإسلام كإسلام، لأن الإسلام يحمل في ثناياه أشياء كامنة تتسبب بسرعة انتشاره وإقناعه للآخرين. يقول هنتجنتون في معرض حديثه عن مسببات انتشار الإسلام: "لا آدم سميث ولا توماس جيرفسون، سيفي بالاحتياجات النفسية والعاطفية والأخلاقية للمهاجرين الجدد-داخل أمريكا- ولا المسيح يفي بها وإن كانت فرصته أكبر، فعلى المدى الطويل محمد سينتصر"([٣]) فالمسيحية تنتشر أساساً بالتحول([٤])، بينما الإسلام ينتشر عن طريق التحول والتناسل([٥]).

---

[١] إشكالية الخوف من الإسلام (Islamophobia) بين الرؤية الغربية والواقع الإسلامي، فائز صالح محمود اللهيبي، ص٧، الطبعة الأولى، دار النهج للدراسات والنشر والتوزيع، حلب، سورية، ٢٠٠٩.

[٢] صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي، صامويل هنتجنتون، ترجمة: طلعت الشايب، ص ٣٥٢، الطبعة الثانية، شركة سطور للنشر، القاهرة، ١٩٩٩م

[٣] المرجع السابق، ص ,١٠٨

٤أي بدخول الناس في الدين المسيحي.

[٥] صدام الحضارات لهنتنجنتون، ص١٠٨.

والمتأمل في مصطلح الخوف الغربي من الإسلام، يجده مصطلحا من المصطلحات حديثة التداول نسبياً "وهو في الواقع يُعبر عن ظاهرة قديمة جديدة، قديمة قدم الدين الإسلامي نفسه، وإن كانت قد تصاعدت حدتها في عالم اليوم، وبخاصة في دول الغرب بعد التفجيرات الشهيرة التي شهدتها الولايات المتحدة الأمريكية في الحادي عشر من أيلول عام ٢٠٠١، "وربما كان من الممكن القول إن تلك الظاهرة تضرب بجذورها عميقاً في تاريخ قديم حافل بمسلسل طويل من العلاقات المضطربة بين الغرب و الإسلام، استقر فيه هذا الأخير في الذهنية الغربية بوصفه تعبيراً عن خطر داهم محدق يتهدد كل ما هو غربي، ربما انطلاقاً من الاقتران المتكرر الذي يمكن ملاحظته في مسيرة التاريخ، الذي يوحي وكأن هناك نوعاً من العلاقة الحتمية بين صعود نجم الحضارة الإسلامية وانحدار نظيرتها الغربية"([1])

ثانياً: نشأة وتاريخ الخوف الغربي من الإسلام

الخوف الغربي من الإسلام ليس وليد القرن الأخير، بل يمتد بعمر الزمان حتى نقطة الانطلاق الأولى للدعوة الإسلامية. ولعل مصطلح الإسلاموفوبيا هو أكثر المصطلحات التي تعبر عن هذا الخوف المرضي من الإسلام([2]).

يقول صموئيل هنتجنتون: "يقول بعض الغربيين بما فيهم الرئيس كلينتون، إن الغرب ليس بينه وبين الإسلام أية مشكلة، وإنما المشكلات موجودة فقط مع بعض المتطرفين الإسلاميين. أربعة عشر قرناً من التاريخ تقول عكس ذلك، العلاقات ما بين الإسلام والمسيحية كانت عاصفة غالباً، صراع القرن العشرين بين الديمقراطية الليبرالية والماركسية اللينينية ليس سوى ظاهرة سطحية وزائلة إذا ما قورنت بعلاقة الصراع المستمر والعميق بين الإسلام والمسيحية"([3]).

والمُلاحَظ أن الغرب يخشى الإسلام كدين، وليس كما يتصوره كثيرون أنه يخشى بعض الإسلاميين الذين يؤمنون بالعمل المسلح كوسيلة لمحاربة الهيمنة الغربية المعاصرة اليوم، وهذا ما يعترف به هنتجنتون عندما يقول: "المشكلة المهمة للغرب ليست الأصولية الإسلامية، المشكلة هي الإسلام، فهو حضارة مختلفة، شعبها مقتنع بتفوق ثقافته، وهاجسه ضآلة قوته([4])".

ويمكن إجمال الأدلة على ذلك في الأدلة الآتية:

---

[1] صدام الحضارات لهنتنجتون، ص٧-٨.

[2] انظر: إشكالية الخوف من الإسلام (Islamophobia) بين الرؤية الغربية والواقع الإسلامي، فائز صالح محمود اللهيبي، ص ٣٠، الطبعة الأولى، دار النهج للدراسات والنشر والتوزيع، حلب، سورية، ٢٠٠٩.

[3] صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي، صموئيل هنتجنتون، ترجمة: طلعت الشايب، ص٣٣٨، الطبعة الثانية، شركة سطور للنشر، القاهرة، ١٩٩٩م.

[4] المرجع السابق، ص٣٥٢.

١ -هذه المخاوف الغربية لم تبدأ مع ظهور الحركات الإسلامية التي تؤمن بالعمل العسكري وسيلة للتغيير، إذ إن هذه المخاوف بدأت منذ بدأ محمدﷺ رسالته الغراء، فدولة الروم نظرت منذ البداية إلى الدعوة الإسلامية نظرة مترعة بالشك، وما معركة مؤتة([1]) منا ببعيد، وما المعارك الأخرى التي شهدها التاريخ الإسلامي إلا تأكيداً لذاكَ، فغزوة تبوك([2]) كانت في العام التاسع الهجري، وفي العام الخامس عشر من الهجرة كانت أكبر موقعة شهدها المسلمون كدولة ضد القوى الغربية المتمثلة بالدولة الرومانية، وهي معركة اليرموك[3]، ومنذ ذلك الزمان والمعارك بين المسلمين والغرب، محافظة على حضورها وتواجدها، تهدر حيناً، ويخبو أوارها في أحايين أخرى.

٢ -الدراسات الاستشراقية للعالم الإسلامي، إذ لم تقتصر هذه الدراسات على الجانب العسكري للمسلمين، أو أحكام الجهاد الواردة في شريعته، بل امتدت لتبحث وتستقصي عن العقائد والشرائع الواردة في الإسلام([4]).

٣ -حركات التغريب والتي حاول الغرب من خلالها "خلق عقلية جديدة تعتمد على تصورات الفكر الغربي ومقاييسه، لتحاكم الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي من خلالها، بهدف سيادة الحضارة الغربية وتسييدها على حضارات الأمم ولاسيما الحضارة الإسلامية"([5]) والتي سعى الغرب من خلالها لتحقيق جملة من الأهداف مثل: إشاعة قضية الأجناس السامية والآرية التي تستهدف الانتقاص من شأن

---

[1] غزوة مؤتة: هي الغزوة التي أرسلها النبي ﷺ لمجابهة الروم في العام الثامن الهجري، والتي استشهد قادتها على التوالي: زيد بن حارثة وجعفر بن عبد المطلب وعبد الله بن رواحة.(انظر: سيرة بن هشام، جـ٥، ص٢٢).

[2] غزوة تبوك: هي غزوة حدثت في العام التاسع الهجري، أمر رسول الله ﷺ فيها أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم وذلك في زمان من عسرة الناس وشدة من الحر، وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه وكان رسول الله ﷺ قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصمد له إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بينها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذى يصمد له ليتأهب الناس لذلك أهبته فأمر الناس بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم.(سيرة ابن هشام، جـ٥، ص١٥٥)

[3] معركة اليرموك: هي المعركة التي انتصر فيها المسلمون على الروم، وذلك في العام ١٥هـ(انظر: البداية والنهاية، جـ٤، ص٢٨٨)

[4] انظر: الإسلام في مواجهة الفكر الغربي، ص٢٣١.

[5] انظر: التغريب أخطر التحديات في وجه الإسلام، ص٤، الطبعة الثانية، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، جمهورية مصر العربية، ١٩٦٦م.

العرب، ومهاجمة الدين بعامة والإسلام بخاصة واتهامه بأنه سبب التخلف، وإنكار فضل العرب على الحضارة الحديثة([1]).

كل هذه الحيثيات تثبت بما لا يدع مجالاً للشك، أن الغرب يخشى من الإسلام كدين أكثر من كونه مجموعة من الناس يشكلون خطراً عسكرياً أو مادياً على الحضارة الغربية، إذ لو كان الأمر كذلك، لما استمرت هذه المعارك عبر الزمان، ولما ابتدأت منذ نقطة الانطلاق الأولى للإسلام، ولما تناولت الجوانب الفكرية والاجتماعية المتمثلة بالدراسات الاستشراقية وحملات التغريب.

المطلب الثاني: العلاقة بين الإسلام والغرب

أولاً: العلاقة بين الإسلام والغرب وفق التصور الإسلامي

لقد فصلَّت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية العلاقة التي تربط المسلمين بأهل الحضارة الغربية، "والحضارة الغربية مصطلح حديث، جرينا فيه على ما اصطلح عليه الأوربيون في عصر الاستعمار، من تقسيم العالم إلى شرق وغرب، يعنون بالغرب أنفسهم، ويعنون بالشرق أهل آسيا وأفريقيا"([2]).

وعند الحديث عن العلاقة بين الإسلام والحضارة الغربية المعاصرة، فإن بإمكاننا أن نستدعي العلاقة التي حددها القرآن ورسمت معالمها السنة النبوية وسيرة السلف للتعامل مع أهل الكتاب المجاورين لهم.

وسبب ذلك يرجع إلى أن الأحكام الشرعية المتعلقة بأهل الكتاب، تختلف باختلاف تواجدهم الجغرافي، فالأحكام المتعلقة بأهل الكتاب المتواجدين في الدولة الإسلامية كالمستأمنين، والذميين، تختلف عن الأحكام المتعلقة بأهل الكتاب القاطنين دولاً خاصة بهم خارج حدود الدولة الإسلامية.

"فالذمي هو المعاهد من اليهود والنصارى ممن يقيم في دار الإسلام"([3])، "والمستأمن هو المعاهد من اليهود والنصارى ولكن بأمان مؤقت داخل الدولة الإسلامية"([4]).

---

[1] انظر: التغريب أخطر التحديات في وجه الإسلام ، ص١٢.

[2] الإسلام والحضارة الغربية، محمد محمد حسين، ص٧، الطبعة الأولى، دار الفرقان، االمملكة العربية السعودية، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

[3] أحكام الذميين والمستأمنين، عبد الكريم زيدان، ص ٢٢، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٢م-١٤٠٢هـ.

[4] المرجع السابق، ص٤٦.

ويُلاحظ من التعريفين أن المستأمنين والذميين هم أناسٌ يسكنون داخل حدود الدولة الإسلامية، والأحكام الشرعية المتعلقة بهم تختلف عن الأحكام الشرعية المتعلقة بأهل الكتاب الذين لهم دول وممالك خاصة بهم.

وعليه فعند الحديث عن الحضارة الغربية المعاصرة، فإننا نتحدث عن أهل كتاب يقطنون دولاً خاصة بهم خارج حدود الدولة الإسلامية، وهؤلاء ليسوا ذميين ولا مستأمنين، والأحكام المتعلقة بهم هي الأحكام الواردة في فقه العلاقات الدولية في الإسلام.

والإسلام كرسالة خاتمة لم يترك أمراً من أمور الحياة، إلا وأبان ووضح للمسلمين سبيل الصواب المتعلق به، وكما قال الصحابي الجليل أبو ذر: "تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يطير بجناحيه إلا عندنا منه علم"([1]).

وعلاقة المسلمين بأهل الكتاب من ضمن الأشياء التي أبان الإسلام شأنها بياناً واضحاً، لم يترك فيه لبس أو غموض، إذ اختلفت الأحكام التشريعية التي تُحدد العلاقة مع أهل الكتاب وفقاً للحالة المتواجدين هم عليها، بين كونهم ذميون أو مستأمنون، أو محاربون، ويمكن إجمال العلاقة في الآتي:

العلاقة مع الذميين:

وإذ كان "الذمي هو المعاهد من اليهود والنصارى ممن يقيم في دار الإسلام"([2])، فقد حددت النصوص الشرعية طبيعة العلاقة مع هؤلاء، والمتأمل في النهج الإسلامي للتعامل معهم، يجد أن الإسلام تعامل معهم بطريقة مغايرة عن سواهم. فالإسلام تعامل معهم على أنهم أصحاب دين أصله من عند الله، ويتضح ذلك جلياً من خلال الآيات الواردة في سورة الروم، قال تعالى: ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (الروم: ٢،٣،٤). ففي سبب نزول هذه الآية بيانٌ واضح إلى تفريق القرآن الكريم بين الروم وهم أهل الكتاب وبين الفرس وهم مجوس لا كتاب لهم. "وكان المشركون يجادلون المسلمين وهم بمكة قبل أن يخرج رسول الله ﷺ، فيقولون: الروم يشهدون أنهم أهل كتاب وقد غلبتهم المجوس، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبونا بالكتاب الذي أنزله الله على نبيكم، فكيف غلب المجوس الروم وهم أهل كتاب؟ فسنغلبكم كما غلبت الفرس الروم، فأنزل

[1] صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي،تحقيق : شعيب الأرنؤوط، باب الزجر عن كتابة المرء السنن، حديث رقم: ١٦٥، مؤسسة الرسالة – بيروت ،الطبعة الثانية ، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

[2] أحكام الذميين والمستأمنين، ص٢٣.

الله الآية"([1]) سابقة الذكر. "وقد جعلت الآية انتصار الروم وهم أهل كتاب على الفرس سبباً لفرح المؤمنين، وكان المؤمنون يحبون أن تظهر الروم على الفرس لأن الروم أصحاب كتاب"([2]).

وقد جاءت كثير من الأحكام المتعلقة بهم متوافقة مع هذا النهج، فقد أباح الإسلام الزواج من الكتابيات العفيفات([3])، وأباح مأكولاتهم وذبائحهم([4]):قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ ﴾ (المائدة: ٥) ، وأباح بقاءهم على دينهم في كنف الدولة الإسلامية([5])، كما أن الإسلام صان حقوقهم وحَمى كرامتهم وأموالهم وأعراضهم، وأوجب على المسلمين الدفاع عنهم ما بذلوا الجزية ووفوا بما عاهدوا عليه المسلمين([6]).

العلاقة مع المستأمنين:

"والمستأمن هو المعاهد من اليهود والنصارى ولكن بأمان مؤقت داخل الدولة الإسلامية"([7])، وهؤلاء يشبهون الأجانب الذين يدخلون بلاد المسلمين بتأشيرات عبور، بإذن الدولة وبوافقتها، وهؤلاء تنطبق الأحكام الشرعية المتعلقة بهم مع الأحكام الشرعية المتعلقة بالذميين في أغلب الأحيان، إذ أباح الإسلام تناول مأكولاتهم، وذبائحهم والزواج من نسائهم، "فالعلاقة التي تجمع المسلم مع المستأمن، علاقة ملؤها العدل والإحسان، ومدادها تعاليم الإسلام التي أنصفت المستأمنين أيما إنصاف، فما استقاموا استقام المسلمون"([8]).

---

[1] أسباب النزول، الإمام السيوطي، تحقيق: حامد أحمد الطاهر، ص٣١٥،٣١٦، دار الفجر للتراث، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٢م–١٤٣٢هـ.

[2] انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: حامد أحمد الطاهر، جـ٣، ص٦٧٢، دار الفجر للتراث، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٢م–١٤٣٢هـ.

[3] انظر: أحكام أهل الذمة، ابن القيم الجوزية، تحقيق: يوسف البكري وشاكر العاروري، جـ٢ص ٧٩٤، دار رمادي للنشر، الطبعة الأولى، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٧م– ١٤١٨هـ.

[4] انظر: الكافي فقه الإمام أحمد بن حنبل، ابن قدامة المقدسي، تحقيق: محمد حسن محمد حسن اسماعيل الشافعي وأحمد محروس جعفر، جـ١، ص ٥٨٠، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، لبنان، ٢٠٠١م–١٤٢١هـ.

[5] انظر: نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: عصام الدين الصبابطي، جـ٨، ص٣٨٠، الطبعة الأولى، دار الحديث، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٠م–١٤٢١هـ.

[6] انظر: المرجع السابق، جـ٨، ص٣٨٠.

[7] المرجع السابق، ص٤٦.

[8] أحكام الذميين والمستأمنين، ص٥٥.

وتسامح الإسلام مع أهل الكتاب اعترفَ به جمعٌ غفير من النصارى أنفسهم، يقول النصراني القبطي نبيل لوقا بباوى([1]): "إن بعض الناس يرددون أن الإسلام انتشر بحد السيف، يقتل أصحاب الديانات الأخرى، ويجبرهم على الدخول في الدين الإسلامي قهرا وبالعنف، ووثيقة المدينة المنورة التي أبرمها المسلمون مع اليهود، تُكَذِب هذا الادعاء"([2]). ويقول غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب: "رأينا من آي القرآن آنفاً أن مسامحة محمد لليهود والنصارى كانت عظيمة إلى الغاية، وأنه لم يقل بمثلها مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله، كاليهودية والنصرانية على الخصوص"([3]).

وسماحة الإسلام هي التي جعلت كثير من النصارى يعتنقون الدين الإسلامي، إذ، تقول ماري ويلدز([4]) في كتابها: رحلتي من الكنيسة إلى المسجد لماذا؟ : "هناك حقيقة محزنة إلا أنها سائدة لدى الأوروبيون، وهي أن الإسلام دين السيف، ولا شك أن هذه الصورة ارتسمت في أذهانهم منذ العصور الوسطى، ثم غُذيت بعناية منذ ذلك الوقت سواءً من قبل الكنيسة أو من قبل الدولة أو كلتيهما معاً، فالتحامل على الإسلام حتى من قِبَل العوام، فالدولة والكنيسة حريصتان على إظهار الإسلام بمظهر المعادي لأوروبا وحضارته"([5]).

علاقة الدولة الإسلامية بالدول الكتابية:

تجدر الإشارة إلى أن الإسلام يفرق بين نوعين من أهل الكتاب، فهناك المحاربون وهناك المسالمون، يقول تعالى:﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الممتحنة: ٨،٩). قال البغوي: " أي لا ينهاكم

---

[1] نبيل لوقا بباوي: دكتور مصري، وعضو مجلس الشورى المصري، من مواليد قرية بهجور، نجع حمادي، محافظة قنا، عام ١٩٤٤، تخرج في كلية الشرطة عام ١٩٦٦، حصل على شهادتي دكتوراه، إحداهما في الاقتصاد والأخرى في القانون، عمل أستاذا للقانون في كلية الشرطة، وخرج على المعاش برتبة لواء عام ١٩٩٢، وهو أيضاً باحث يؤمن بالمسيحية الأرثوذكسية. (انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء، نبيل لوقا بباوى، ص٢٥٧، الطبعة الأولى، باوي للنشر، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٨م).

[2] انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء، ، ص٤٣.

[3] تاريخنا المفترى عليه، يوسف القرضاوي، ص١٨٩، الطبعة الأولى، دار الشروق، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٥م-١٤٢٥هـ.

[4] ماري ويلدز: عالمة فيزياء، من أصل فرنسي، أشهرت إسلامها وغدت من الدعاة إلى الإسلام. (رحلتي من الكنيسة إلى المسجد، ص٢٠٠، الطبعة الأولى، دار البشير للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٩٦٥م)

[5] رحلتي من الكنيسة إلى المسجد.. لماذا؟، ماري ويلدز، ص٤٤.

الله عن بر الذين لم يقاتلوكم أن تعدلوا فيهم بالإحسان والبر ([1])" فهذه الآيات نصّ صريح كون النهي عن الولاية لأجل العداوة وكون القوم محاربين، لا لأجل الخلاف في الدين([2])".

والقرآن الكريم جاء ليوضح البيان الشافي لكل واحدٍ من الفريقين على حدة، ففي حالة أهل الكتاب المحاربين للإسلام نجد آيات مثل قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ (البقرة: ١٢٠) وقوله تعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ (التوبة: ٢٩)

وقوله عزوجل: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ (البقرة: ١٠٥) وقوله: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (آل عمران: ٦٩) وقوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ (آلعمران: ٧٥). يقول الدكتور يوسف القرضاوي في معرض تعليقه على هذه الآيات: "هل يجب على المسلمين أن يقاتلوا غير المسلمين ولو كانوا مسالمين لهم، كافين أيديهم عنهم، لا يضمرون لهم شراً ولا يظاهرون لهم عدوا، أو الواجب على المسلمين ألا يقاتلوا إلا من يقاتلهم ويعتدي على حرماتهم"([3]) ويجيب الدكتور القرضاوي بعد ذلك: "والحقيقة أن هذه قضية كبيرة اختلف فيها العلماء قديماً وحديثاً، وإن كان مما يؤسف له أن الذي شاع واشتهر لدى كثيرين أن الإسلام يأمر بمقاتلة كل من يخالفه، سواء كانوا وثنيين مشركين أم أهل كتاب يهوداً ونصارى"([4]).

---

[1] معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر عثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، جـ٨، ص٩٥، الطبعة الرابعة، دار طيبة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٧م-١٤١٧هـ.

[2] تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا، جـ٦، ص ٣٥٣، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٠م.

[3] فقه الجهاد دراسة مقارنة لأحكامه وفلسفته في ضوء القرآن والسنة، جـ١، ص٢٣٩، الطبعة الأولى، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠٠٩م-١٤٣٠هـ.

[4] المرجع السابق، ص٢٣٩.

إذن فالصورة التي يرسمها الإسلام للتعامل مع أهل الكتاب القاطنين في دول أخرى تتنوع حسب موقفهم من الدولة الإسلامية، بمعنى كونهم مسالمين أو محاربين للدولة الإسلامية، فالمحاربون منهم يقاتلون بالإجماع، أما المسالمون الذين لا يقاتلون الدولة الإسلامية ولا يتآمرون عليها، فهؤلاء الذين اختلف العلماء حولهم، بين اجتهادٍ قائل بأن هؤلاء يقاتلون حتى يدفعوا الجزية صاغرين، وبين اجتهاد آخر يرى بأن هؤلاء مسالمون يندرجون تحت قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾(البقرة:١٩٠). وعند إمعان النظر في المراجع الفقهية، نجد أن جمهور العلماء الأقدمين مع الرأي القائل بضرورة قتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يدفعوا الجزية، بينما نجد جمعاً من العلماء المعاصرين مع الرأي القائل بعدم جواز مبادأة قتال أهل الكتاب بالقتال([1]).

ويمكن القول أن الرأي القائل بأن الحرب في الإسلام دفاعية أقرب إلى الصواب، لأنه يتماهى مع سماحة الإسلام، ومع طبيعته كدين يصلح للتطبيق في كل زمان ومكان، فلو سلمنا أن العلاقة التي تجمع المسلمين مع غيرهم علاقة أصلها السيف، لكان هذا ممكنا فيما انقضى من أزمان، وما عاد هذا صالحاً في زماننا الذي انقلب فيه السيف إلى قنابل لها القدرة على تدمير الكرة الأرضية مرات ومرات.

كما أن الآيات التي تُحدد العلاقة مع أهل الكتاب غالباً ما جاءت معللة، فقوله تعالى:﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ ﴾ البقرة: ١٩٠ نهيٌ معلل، وهذه العلة متمثلة بقوله تعالى : إن الله لا يحب المعتدين، ولو كان هذا الحكم منسوخاً لنسخت علته، أي لأضحى معنى الآية أن الله يحب المعتدين-تعالى الله-، وهذا ممتنع، وهذا ما سنبحثه في الفصل الثالث بإسهاب.

ثانياً: العلاقة بين الإسلام والغرب عبر التاريخ

الإسلام رسالة الله الخالدة جاء للبشرية جمعاء، قال تعالى:﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١ ﴾ (الفرقان: ١) : "والعالمون هم الإنس والجن لأنه النبي ﷺ قد كان رسولاً إليهما ونذيرا لهما وأنه خاتم الأنبياء"([2]). ويقول ابن كثير : "إنما خصَّه بهذا الكتاب العظيم المبين المفصل المحكم ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء، ويستقل على الغبراء"([3])

---

[1] انظر: فقه السيرة، الشيخ محمد الغزالي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، ص ٣٩، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ٢٠٠٢م-١٤٢٣هـ.

[2] الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله، تحقيق: هشام سمير البخاري جـ١، ص٥، الطبعة الأولى، دار عالم الكتب، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

[3] تفسير ابن كثير، جـ٦، ص٩٢.

ومحمد ﷺ جاء برسالة انقلابية على عادات وتقاليد وعقائد وأفكار تطاول عليها الأمد، ليس في مكة وحدها بل في سائر أرجاء العالم، متمثلة بسطوة القوي على الضعيف، وباستفحال الظلم والاستعباد وإجحاف حق المرأة إلى سائر التقاليد المتوارثة والظالمة، يقول الشيخ محمد الغزالي – رحمه الله– في معرض حديثه عن بعثة النبي ﷺ: "إن تاريخ الحياة مؤسف، منذ هبط آدم عليه السلام وبنوه في الأرض، وتشعبت الحضارة وأدبرت أجيال، وأقبلت على أنقاضها أخرى، منذ ذلك الحين السحيق والناس أخلاطٌ متنافرون، لا تستقيم بهم السبل أبداً..، وكم سلخت الدنيا من عمرها قبل أن يأتي محمدﷺ" ([1]).

وهذه الرسالة يلخصها الصحابي الجليل ربعي بن عامر رضي الله عنه عندما أجاب على أسئلة ملك الفرس: "الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام"([2]).

وأهل الكتاب كانوا جزءً من هذا العالم الذي تسوسه هذه القوانين الظالمة والبعيدة عن المنهج الإلهي الصحيح، لذا فقد كان بديهياً أن تصطدم الرسالة ومنذ اللحظة الأولى بهم.

وإذا تحدثنا عن تاريخ العلاقة بين الإسلام وأهل الكتاب، فإنه يجدر بنا أن نبيِّن أن أهل الكتاب كانوا يعرفون محمد ﷺ قبل بعثته، كانوا يعرفون صفته وسمته الشخصية والمعنوية: يقول تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦ ﴾ (البقرة: ١٤٦)، وفي سورة الأنعام: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠ ﴾ (الأنعام: ٢٠)، قال ابن إسحاق –رحمه الله– : "وكان من حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه ، كما حدث بعض أهله عنه وعن إسلامه حين أسلم ، وكان حبراً عالماً، قال لما سمعت برسول الله ﷺعرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوكف[3] له، فكنت مسراً لذلك صامتاً عليه حتى قدم رسول الله ﷺالمدينة، فلما نزل بقباء، في بني عمرو بن عوف، أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة ابنة الحارث تحتي جالسة فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺكبرتُ! فقالت لي عمتي حين سمعت تكبيري: خيبك الله! والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادما ما زدت، قال فقلت لها : أي عمة هو والله أخو موسى

[1] فقه السيرة، الشيخ محمد الغزالي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، ص ٣٩، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان، ٢٠٠٢م–١٤٢٣هـ.

[2] تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري أبو جعفر، جـ٢، ص٤٠١، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٨٧م–١٤٠٧هـ. البداية والنهاية، جـ٧، ص٤٧.

[3] نتوكف: ننتظر ونترقب، والتوكف هو الترقب(انظر: لسان العرب، ابن منظور، جـ١٢، ١٩٨، الطبعة الأولى، دار الحديث، القاهرة–مصر، ١٤٢٣هـ–٢٠٠٣م.)

بن عمران ، وعلى دينه بعث. قال: فقالت أي ابن أخي، أهو النبي الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة؟ قال: فقلت لها : نعم . قال: فقالت: فذاك إذا . قال: ثم خرجت إلى رسول الله ﷺفأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتي ، فأمرتهم فأسلموا"([1]). وفي حديث جرير بن عبد الله[2] رضي الله عنه دلالة واضحة على أن أهل الكتاب كانوا يعرفون النبيﷺ معرفةً تامة، يقول جرير بن عبد الله: كنت باليمن، فلقينا رجلين من أهل اليمن، ذا كلاع وذا عمرو، فجعلت أحدثهما عن رسول الله ﷺ، قال: فقالا لي: إن كان ما تقول حقا فقد مضى صاحبك على أجله منذ ثلاث! قال: فأقبلت وأقبلا حتى إذا كنا في بعض الطريق، رفع لنا ركب من قِبَل المدينة فسألناهم فقالوا: قبض ﷺواستخلف أبو بكر والناس صالحون"([3])، وهذا فيه دلالة أن أهل الكتاب كانوا يعرفون حتى نبأ وفاة النبيﷺ.

وقد كان يهود المدينة المنورة ينتظرون بعثة النبي عليه السلام، لكنْ لما بُعِث النبي ﷺ، وكان من العرب، استعظم اليهود أن يكون النبي من غيرهم، فناصبوه العداوة.

وإذا كنا نحاول هنا أن نرصد البعد التاريخي للإسلام في علاقته مع أهل الكتاب، فإننا نجد أنفسنا مضطرين لبحث العلاقة التي حدثت فعلاً منذ عهد النبيﷺ مروراً بالخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم والسلف من بعدهم وصولاً إلى عصر الاستعمار والهيمنة التي نرزح تحت وطأتها الآن.

أولاً: في العهد النبوي

عندما بزغ نور الإسلام، فقد كانت هناك قوى مناوئة للدعوة الوليدة، هذه القوى يتوزع تواجدها بين قوى كانت متواجدة في داخل شبه الجزيرة العربية، وأخرى خارج حدود شبه الجزيرة العربية. أما القوى التي كانت داخل شبه الجزيرة العربية فهي متمثلة بمشركي العرب، ويهود المدينة المنورة ومجاوريها، وبعض القبائل النصرانية مثل غسان وتغلب وتنوخ وملخم. بينما كانت القوى الخارجية متمثلة بدولتي الفرس والروم.

وإذا كنا نتحدث عن أهل الكتاب على وجه الخصوص، فإننا نستطيع القول أن يهود المدينة المنورة وما جاورها كيهود خيبر وبني النضير وبني قينقاع وقريظة، ناصبوا الدعوة الإسلامية العداء منذ البدايات الأولى، ولم تصمد العهود والمواثيق التي أبرمها النبي ﷺمعهم إلا

---

[1] السيرة النبوية، أبو محمد عبد المالك بن هشام المعافري، تحقيق: جمل ثابت ومحمد محمود، جـ٢، ص ١٢٥، الطبعة الثانية، دار الحديث، القاهرة–مصر ، ١٩٩٨م–١٤١٩هـ.

[2] جرير بن عبد الله بن جابر البجلي صحابي مشهور مات سنة إحدى وخمسين وقيل بعدها(تقريب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد عوامة، ص١٩٨، الطبعة الأولى، دار الرشيد، سوريا، ١٤٠٥هـ)

[3] البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: علي شيري، جـ٥، ص٢٩٩، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨م–١٤٠٨هـ.

لأمدٍ زمنيٍ قصير، أما بنو النضير فقد أجلاهم النبي ﷺ وذلك لمَّا هموا بإلقاء صخرةٍ فوق رأسه من مكانٍ علٍ لما جاءهم يطلب دية القتيلين من بني عامر([١]). وكذلك كانت نهاية بني قينقاع، حيث أجلاهم النبي ﷺ أيضاً، وذلك لما نقضوا العهد عندما أقدم رجلٌ منهم على كشف عورة امرأة مسلمة، فقام رجلٌ من المسلمين فقتل اليهودي، فتمالأ اليهود عليه وقتلوه([٢]). أما بنو قريظة فقد قتل النبي مقاتلتهم وسبى نساءهم وذراريهم، وذلك لما تآمروا مع مشركي العرب في غزوة الخندق([٣]).

أما فيما يتعلق بدولة الروم، فقد تباينت العلاقة ما بينها وبين الدولة الإسلامية، إذ كانت أول علاقة مباشرة بين الإسلام كدولة وبين النصارى في العام السادس الهجري، وذلك بعد صلح الحديبية، إذ أرسل النبي الرسل إلى ملوك الدول المجاورة، وكان نصيب العالم النصراني من تلك الرسل أربع رسائل، واحدة حملها دحية الكلبي رضي الله عنه إلى قيصر ملك الروم، وعمرو بن أمية الصخري رضي الله عنه إلى النجاشي، وحاطب بن أبي بلقة رضي الله عنه إلى المقوقس ملك الإسكندرية، وشجاع بن وهب الأسدي رضي الله عنه إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك تخوم الشام([٤]).

وقد تباينت ردود معسكر النصارى بين الردود الحذرة والودية والعنيفة، إذ كان الحذر عنوان رد قيصر ملك الروم، وكان الود عنوان رد المقوقس، والعنف بقتل الرسول هو عنوان رد الملك الغساني([٥]).

وبناءً على قتل الغساسنة لرسول النبي ﷺ، ومن ثم إقدامهم على قتل بعض مَن أسلموا منهم، أرسل النبي ﷺ جيشاً لتأديبهم فكانت غزوة مؤتة([٦]). وبعد معركة غير متكافئة تراجع المسلمون، ومن ثم تتابعت المناوشات حتى جاءت غزوة تبوك في العام الثامن الهجري، وذلك لما تواترت الأنباء إلى النبي ﷺ بعزم الروم وحلفاؤهم العرب من لخم وجذام وغسان([٧]) على قتال المسلمين، لكن الروم وحلفاءهم انسحبوا من تبوك قبل وصول المسلمين.

---

[١] انظر: سيرة بن هشام، جـ٣، ص ١٥٧.

[٢] انظر: المرجع السابق، جـ٣، ص ١٠.

[٣] انظر: المرجع نفسه، جـ٣، ص ٢٠٣.

[٤] انظر: المرجع نفسه، جـ٣، ص٢٠٥.

[٥] انظر: مواطنون لا ذميون، فهمي هويدي، ص٢٠، الطبعة الرابعة، دار الشروق، القاهرة–مصر، ٢٠٠٥م–١٤٢٦هـ.

[٦] انظر: سيرة بن هشام، جـ٣، ص٢٥٥.

[٧] لخم وجذام وغسان: أسماء قبائل عربية.(البداية والنهاية، جـ٢، ص٢٣).

ثانياً: في عهد الخلفاء الراشدين

توفي النبي ﷺ في العام العاشر الهجري، وقد كان مجهزاً جيشاً لمحاربة الروم في أقاصي الشام بقيادة أسامة بن زيد ﷺ. وقد أنفذ الجيش أبو بكر الصديق ﷺ.

ومن ثم في عهد الخلفاء الراشدين توالت الفتوحات الإسلامية للبلاد التي تسوسها الدول النصرانية، فَفُتحت مصر والشام وكثير من المناطق الواقعة تحت السيادة النصرانية.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن مواطني الدولة النصرانية تعاملوا مع الفتوحات الإسلامية على أنها معارك تحرير لهم من نير السلطات الظالمة، فعندما وصل جيش المسلمين بقيادة أبي عبيدة ﷺإلى وادي الأردن، تلقى رسالة من الأهالي المسيحيين تقول: "يا معشر المسلمين، أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا، وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا"([1]).

وذهب نصارى الشام في تجاوبهم مع المسلمين إلى أبعد من ذلك، إذ لما رأوا عدل المسلمين ووفاءهم وحسن سيرتهم، أصبحوا أشداء على عدو المسلمين، وعوناً لهم عليه، فبعث أهل كل مدينة نصرانية ممن جرى الصلح معهم رجالاً يتجسسون على الدولة الرومانية([2]).

"ويمكن القول أن القبائل النصرانية التي كانت متواجدة في الجزيرة العربية، لم تكن تملك القوة الكافية لأن تقف في وجه الإسلام، إذ كانت هذه القبائل في أغلبها تابعة في ولائها للدولة البيزنطية، وقد زلزلت معركة تبوك هذا الولاء، إذ وجدت القبائل العربية النصرانية نفسها وحيدة في مواجهة المسلمين"([3])، وذلك لمّا انسحب جيش الروم خوفاً من جحافل المسلمين في معركة تبوك. واستطاع المسلمون في ذلك الوقت أن ينالوا ولاء معظم هذه القبائل للدولة الإسلامية، إلا بعض القبائل التي تجرأت وخالفت عهودها ومواثيقها مع المسلمين مثل نصارى نجران في اليمن الذين أخرجهم عمر بن الخطاب ﷺ([4]).

واختلف العلماء في سبب إخراج عمر رضي الله عنه لنصارى نجران، فقيل لأنهم تعاملوا بالربا بعد أن أخذ النبي ﷺ عليهم العهد بألا يتعاملوا به، وقيل لأن عمر ﷺأخرجهم بناء على

---

[1] مواطنون لا ذميون، ص٢٥، نقلا عن كتاب توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص٩٧.

[2] انظر: فقه الجاد للقرضاوي، ص٢٥.

[3] العلاقة بين نصارى العرب وحركة الفتح الإسلامي في الجزيرة العربية والشام والعراق، منصور عبد الله، ص٣٨، الطبعة الأولى، دار الكتاب، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٦هـ-١٩٨٧م.

[4] انظر: المرجع السابق، ص٣٨.

قول النبي ﷺ :"لا يجتمع بأرض العرب دينان"([1]). إلا أن الراجح أن عمر ﷺ أخرجهم وفقاً للحديث النبوي: لا يجتمع بأرض العرب دينان، الذي لم يكن قد سمع به من قبل، إذ تضافرت الروايات المؤكدة لذلك، ولأن الرواية القائلة بأنه ﷺ أخرجهم لأنهم تعاملوا بالربا لا تصح([2]).

لكنَّ الدولة البيزنطية لم تكن بعيدة عن هذه الأحداث، وحافظت على تواجدها غير المباشر في الجزيرة العربية، وذلك بدعمها لبعض القبائل العربية الموالية لها بالمال والرجال، وكانت في بعض الأحيان تحدث مناوشات بين المسلمين والدولة الرومية نفسها، ففي أطراف تبوك حدثت مناوشات قتالية بين الروم والمسلمين بقيادة يزيد بن أبي سفيانﷺ، واستمرت هذه المناوشات لعدة سنوات([3]).

ويمكن القول هنا، أن الرومان لم يكونوا بعيدين عن الدولة الإسلامية، بل كان لهم دور كبير في تأليب القبائل العربية على المسلمين، وكل المناوشات القتالية التي حدثت كانت تُمهد السبيل نحو معركة اليرموك التي حسمت المعركة لمصلحة المسلمين.

وقد تحول الموقف بعد معركة اليرموك، فإذا كانت بعض القبائل النصرانية قبل المعركة مترددة بين الروم والمسلمين، فقد جاءت معركة اليرموك لتحسم الأمر، فانحازت هذه القبائل للمسلمين غالباً. ويبدو أن العرب في هذه المنطقة اقتنعوا بعزل قضيتهم عن قضية البيزنطيين، والتخلي عنهم والدخول مع المسلمين، وقد يُفسر هذا توجه عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي عبيدة بالاستعانة بعرب الشام في الحرب ضد النصارى([4]).

ثالثاً: العهد الأموي والعباسي

في العصر الأموي امتدت الدولة الإسلامية حتى الصين شرقاً، وإلى الأندلس وأبواب فرنسا غرباً، حتى هدد المسلمون معقل الدولة البيزنطية المتمثل بالقسطنطينية مرتين، مرة في عهد معاوية بن أبي سفيان ومرة في عهد سليمان بن عبد الملك رحمهما الله.

---

[1] السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، باب المعاملة على النخل بشرط، حديث رقم: ١١٩٦٣، الطبعة الأولى، مجلس دائرة المعارف النظامية، الهند، ١٣٤٤هـ، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم: ١٠٣٣.

[2] انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم الجوزية، جـ٧، ص٣٣٠، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، الجمهورية العربية السورية، ١٤٢٠هـ٢٠٠٠م.

[3] انظر: مواطنون لا ذميون، فهمي هويدي، ص٣٤، الطبعة الرابعة، دار الشروق، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٥م–١٤٢٦هـ

[4] انظر: تاريخ الرسل والملوك،محمد بن جرير الطبري أبو جعفر، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، جـ٣، ص٦٠١، الطبعة الأولى، دار المعارف للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٣٨٧هـ–١٩٦٧م.

وظلت العلاقة متوترة ما بين الدولتين، وواصل المسلمون تقدمهم وحاولوا كسر شوكة الدولة الرومانية، إلا أن هذه المحاولات توقفت بعد معركة بلاط الشهداء([1]).

ولكن عندما بدأ التفتت يسري في جسد الأمة الإسلامية، ونمت فرق الخوارج والشيعة والمعتزلة والمرجئة، واستشرى الصراع بين أفراد أسرة بني أمية، شن الروم في عهد قسطنطين الرابع([2]) هجوماً على الشام.

"وفي عهد العباسيين استمرت المناوشات العسكرية ما بين الطرفين، فالروم لم ينسوا أبدا أن المسلمين استولوا على أراضٍ وشعوب كانت تحت سيطرتهم، والمسلمون كانوا ينظرون للدولة الرومانية على أنها معيق من المعيقات التي تقف في وجه الدعوة الإسلامية، وتبليغ رسالة الإسلام إلى البشرية بأسرها"([3]).

وقد حافظت كلٌ من الدولتين على حضورها وقوتها، ولم يفلح الروم في التحول من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم ضد المسلمين إلا عندما دب الضعف في جسد الدولة العباسية، وذلك في القرن الرابع الهجري، أي في العصر العباسي الثاني، عصر الضعف والتفتت، ووجد الروم هنا أنفسهم في مواجهة دولة مفتتة ومتفرقة، فأغراهم ذلك في المضي قدما صوب الدولة الإسلامية، وكان في الانتصارات التي حققوها عاملاً مساعدا ومؤججاً لفكرة الحملات الصليبية الأولى التي تلت ذلك([4]).

رابعاً: الحروب الصليبية

وهي حركة صليبية استعمارية قام بها الغرب الأوروبي في العصور الوسطى، "وكانت عبارة عن حروب عسكرية قادها السياسيون ودعا لها وأجج نارها رجال الدين النصارى، وكان

---

[1] بلاط الشهداء: معركة بواتييه وقعت ١٠ أكتوبر عام ٧٣٢ م بين قوات المسلمين بقيادة عبد الرحمن الغافقي وقوات الإفرنج بقيادة تشارلز مارتل). هُزم المسلمون في هذه المعركة وقُتل قائدهم، وأَوقفت هذه الهزيمة الزحف الإسلامي تجاه قلب أوروبا وحفظت المسيحية كديانة سائدة فيها.(انظر: بلاط الشهداء، شوقي خليل، ص٢٦٣، الطبعة الأولى، دار الرسالة، الجمهورية العربية السورية، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م)

[2] قسطنطين الرابع: كان إمبراطور بيزنطي حكم في الفترة ما بين ٦٦٨-٦٨٥، خاض كثير من المعارك ضد المسلمين الفاتحين، وفي عهده تماسكت الدولة البيزنطية. (معجم أعلام المورد (موسوعة تراجم لأشهر أعلام العرب والأجانب القدامى والمحدثين مستقاة من موسوعة المورد)، منير البعلبكي، ص٣٨٤، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، لبنان، ١٩٨٢م.).

[3] مواطنون لا ذميون، ص٤٢.

[4] انظر: المرجع السابق، ص٤٣.

هدفهم بلاد العالم الإسلامي. وقد انبعثت هذه الحركة من الأوضاع الفكرية و الاقتصادية و الاجتماعية التي سادت أوروبا في القرن الحادي عشر الميلادي"([1]).

وتتعدد أسباب الحروب الصليبية، فمنها أسباب سياسية واقتصادية والأهم الأسباب الدينية.

أما الأسباب السياسية فتتمثل في كون الحرب حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب، مثل الصراع الذي ظهر بين الفرس و اليونان، و بين الفرس و الروم، و يرى آخرون أنها سلسلة هجرات صحبت سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية.

أما أسبابها الاقتصادية فتتمثل في سوء الأحوال الاقتصادية في غرب أوروبا و خاصة فرنسا في أواخر القرن الحادي عشر للميلاد، فسوء المعيشة جعلهم يفكرون في الهجرة فكانت الحروب الصليبية باباً واسعاً للهجرة، وتجدر الإشارة إلى أن أوروبا بدأت تشهد في القرن الحادي عشر الميلادي حالة من النهضة، ومحاولات للتخلص من الشعور بالدونية تجاه المسلمين الأشد منهم بأسا والأرقى ثقافة، وبدؤوا يحاولون بناء ذات جديدة ويشعرون بثقة جديدة. وهكذا كانت الحملات الصليبية جزءا أساسيا من هذه العملية، وعبرت تماما عن الروح الغربية الجديدة. والأسباب الاقتصادية هذه ارتبطت وتلاءمت مع الحالة الاجتماعية المسيطرة على أوروبا في ذلك الوقت، إذ كان المجتمع الأوروبي ينقسم إلي طبقات اجتماعية هي:

- طبقة الملوك والأمراء
- طبقة رجال الدين
- طبقة المحاربين و النبلاء و الفرسان
- طبقة الفلاحين من الأقنان([2]) و رقيق الأرض

وكل طبقة كانت ترى في الحروب الصليبية فرصة لتحقيق أهدافها([3])، فرجال الدين كانوا يرون فيها تحقيقا لما هو موجود في دينهم، والقضاء على الخطر الإسلامي في المشرق. أما طبقة المحاربين فيرون فيها جمعا للمزيد من الغنائم، وهدف النبلاء السيطرة على المزيد من الأراضي. أما طبقة الرقيق فرأوا فيها طريقا للخلاص من براثين الاستعباد الأوربي لهم.

---

[1] التبشير في منطقة الخليج العربي... دراسة في التاريخ الاجتماعي والسّياسي)،عبد المالك خلف التّميمي، جـ١، ص١٦، الطبعة الأولى، دار الشباب للنشر والترجمة والتوزيع، الكويت، ١٩٨٢م.

[2] القنانة: وضع اجتماعي اقتصادي لطبقة الفلاحين في ظل الإقطاع. كانت حالة من الرق أو العبودية المعدلة ظهرت أولا في أوروبا خلال العصور الوسطى. وكان القن يجبر على العمل في حقول ملاك الأراضي، في مقابل الحماية والحق في العمل. (المورد، منير البعلبكي، ص٣٧٧).

[3] انظر: صفحات مجهولة من تاريخ الحروب الصليبية، مجلة الأمة – العدد ١٦- ، عماد الدين خليل، ١٤٠٢هـ.

أما الأسباب الدينية فقد كانت واضحة بجلاء، إذ إن هذه الحملات اتخذت من الصليب شعاراً لها، وكان المنادي لها رجال الدين([1])، وكانوا هم المحرك الأساسي للحياة بصفة عامة في المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى. فكان هاجسهم الوحيد هو طمس الدين الإسلامي الذي كان بالنسبة لهم الخطر المحدق بهم، فالبابوية كانت ترسل من حين إلى أخر إلى ملوك أوروبا تلح عليهم في الخروج على رأس جيوشهم لمحاربة المسلمين في الشرق.

وعندما وصل الصليبيون إلى القدس ودخلوها قتلوا كل من وجدوه في طريقهم من رجال ونساء وأطفال كما لو كانوا يستعيدون المشهد التوراتي الذي صور دخول يوشع بن نون للمدن والمناطق نفسها قبل ألفي عام([2]). وهذا مما يثبت إثباتاً قاطعاً أن الدوافع الدينية لم تكن غائبة إطلاقاً عن هذه الحروب.

ثالثاً: العلاقة بين الإسلام والغرب وفق الواقع المعاصر

لم تكن العلاقة المعاصرة بين الإسلام والغرب، تختلف كثيراً عن طبيعة العلاقة في الأزمان الغابرة، فقد ورثت أوروبا النزعة الاستعمارية، واستعباد الآخرين، من أجل شهوة السيطرة، وفرض الهيمنة على الغير[3]، من الإمبراطورية الرومانية وجذورها الإغريقية([4]).

والاستعمار لفظة محدثة مشتقة من عَمَر، واستعمره في المكان أي جعله يعمره، ومنه قوله تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴿٦١﴾ ﴾ (هود: ٦١).

"أو هو استيلاء دولة أو شعب على دولة أخرى وشعب آخر لنهب ثرواته وتسخير طاقات أفراده والعمل على استثمار مرافقه المختلفة"([5]).

والاستعمار مرتبط بالحضارة الغربية خصوصاً، ويمكن القول أن الجانب الديني لم يغب عن المجتمع الأوروبي، إذ كان القرن التاسع عشر هو العصر الذهبي لأوروبا، وفي تلك المرحلة

---

[1] انظر: أَجْنِحَةُ المَكْرِ الثَّلَاثَةْ وَخوافيهَا، التبشير – الاستِشراق – الاستِعمار، عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني، ص١٠٥، الطبعة الثامنة، دار القلم، دمشق–سوريا، ١٤٠٦هـ–١٩٨٦م.

[2] انظر: الحروب الصليبية المتأخرة، سهير محمد إبراهيم نعينع، ص١٣، الطبعة الأولى، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٢م.

[3] هكذا وجدناها في المرجع، والصواب: فرض هيمنته على غيره.

[4] الفكر الإسلامي في مواجهة الفكر الغربي، فؤاد محسن الراوي،ص٢٢٨، الطبعة الأولى، دار المأمون، المملكة الأردنية الهاشمية، ٢٠٠٨م.

[5] أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص ٥١، الطبعة الأولى، دار القلم. بيروت. دمشق، ١٣٩٥هـ.

استندت كل أمة أوروبية على الديانة المسيحية، فرفعت فرنسا شعاراً لاتينياً معناه:أن الله يحقق عمله بواسطة الفرنسيين! بينما أنشد الوطنيون الألمان: الله معنا([1]).

فالغرب الذي حاول استعمار الشرق، بهدف نهب خيراته والقضاء على ثقافته، كان النموذج الأمثل للأصولية والتطرف، والدليل على أن البعد الديني كان موجوداً عند الغربيين، هو أن غزوهم واستعمارهم المعاصر لبلاد المسلمين، كانت حجتاه الأيدلوجيتان نشر الإنجيلية المسيحية عبر التبشير، واستغلال الشعوب وارتكاب المجازر في حقها([2]). ومما يؤكد حرص الزعامات الغربية على البعد الديني في المسألة، هو اعتراف جيمي كارتر([3]) الرئيس الأسبق لدولة الولايات المتحدة الأمريكية بحرصه على الإرساليات التبشيرية خارج حدود دولته، يقول جيمي كارتر: "كمسيحي مؤمن تعودتُ منذ الصغر أن أتبرع بخمسة سنتات لدعم الحملات التبشيرية في بلاد العالم "([4])

والاستعمار الغربي المعاصر جاء استمراراً للحروب الصليبية التي شنتها أوروبا في العصور الوسطى ضد الدولة الإسلامية، فأسباب الاستعمار وبواعثه هي نفس أسباب وبواعث الحروب الصليبية، فعلى الصعيد الاقتصادي، كانت أوروبا في نهاية القرن الثامن عشر في بداية الصعود الحضاري والنهضوي المعاصر، وذلك في كل قطاعات الحياة العلمية والعملية والتطبيقية والاقتصادية، وكان من آثار ذلك تعاظم نفوذ الدول الأوروبية وانتشارها في الآفاق، وتطلعها إلى بسط نفوذها عن طريق الغزو الحربي والتوسع الاستعماري، وبمقدار ما كان الغرب آخذاً في الصعود، بمقدار ما كان الشرق ممثلاً بالدولة العثمانية آخذا في الضعف والفقر. وكان في اكتشاف قوى الكهرباء والبخار واللاسلكي الأثر الكبير في تعميق فجوة التقدم بين الغرب والشرق، وبالتالي ضعف قوة الشرق مقابل تنامي الدول الغربية([5]).

وإذا كان الاستعمار جاء نتيجة لحدثين هامين وقعا في أوروبا، أولهما الاكتشافات الجغرافية في القرن السادس عشر، وثانيهما الثورة الصناعية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فقد جاء إقدام الدول الأوربية على مغامراتها التوسعية في العالم في القرن التاسع عشر

---

[1] أمريكا طليعة الانحطاط، روجيه غارودي، تحقيق: عمرو زهيري، ص١٢، الطبعة الأولى، دار الشروق للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٦م.

[2] المرجع السابق، روجيه غارودي ص١٤٩.

[3] جيمي كارتر: مواليد ولاية جورجيا في الولايات المتحدة، فاز في انتخابات رئاسة الولايات المتحدة عام ١٩٧٦(قيمنا المهددة أزمة أمريكا الأخلاقية، جيمي كارتر، ترجمة: حسام الدين خضور، ص٢، الطبعة الأولى، دار أس بي آر، بدون تاريخ).

[4] قيمنا المهددة أزمة أمريكا الأخلاقية، ص٣٢.

[5] انظر: الإسلام والحضارة الغربية، محمد محمد حسنين، ص١٥.

بحثا عن أسواق جديدة لبضائعها وعن مصادر جديدة للمواد الخام، متناغماً مع إقدام المبشرين أيضاً على أعمالهم التبشيرية في البلاد غير المسيحية التي وقعت تحت النفوذ الاستعماري.

وقد وجد الجانبان بأن بينهما هدفا مشتركا يجب أن يتعاونا لتحقيقه، والواقع أن زعماء الفريقين كانا يحملان فكرة دينية سياسية مشتركة، وقد تكونت هذه العقلية الغربية نتيجة للتطورات منذ فجر تاريخهم ابتداء بالحروب الصليبية وعصر النهضة والإصلاح الديني والاكتشافات الجغرافية والثورة الصناعية والاستعمار في القرن التاسع عشر([1]).

"ومما يؤكد البعد الديني أو الثقافي للاستعمار المعاصر، أن فرنسا وهي مستعمرة لكثير من البلدان الأفريقية سواء كان الاستعمار ظاهراً أو خفياً، تنشر بين المسلمين هناك أن اللغة العربية هي لغة المستعمرين العرب"([2]).

ولقد اجتهد النصارى في فرض نصرانيتهم بالقوة في العالم الإسلامي تحت مظلة الاستعمار حيناً، وتحت مظلة الضغوط الاقتصادية والسياسية حينا آخر "ففي القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كانت الحضارة الأوربية والسيطرة السياسية والقوة العسكرية تجتاح العالم ، وكانت النصرانية تتسنم غارب هذا المد، وأصبحت الطريق ممهدة أمام المبشرين ، فانتشرت النصرانية مع اتساع السيطرة الأوربية في العالم ، ولقد قام الاستعمار والسيطرة العسكرية بدورهما في نشر النصرانية"([3]).

وقد دعا المنصرون المستعمرين إلى احتلال البلاد الإسلامية وغير الإسلامية، وعندما احتُلَت البلاد، ذلل المحتلون العقبات أمام المُنَصِّرين، واستطاعوا أن يقيموا مؤسساتهم في بلاد المسلمين بكل سهولة، والتآزر بين المحتلين و المُنَصِّرين جانب فرضته الكنيسة، وجعلته مجالا للانتقام لأولئك الذين أخرجوا من فلول الحملات الصليبية ، ولذا قيلت العبارة المشهورة في القدس، في العقد الرابع من القرن الرابع عشر الهجري ، الثاني من القرن العشرين : " اليوم انتهت الحروب الصليبية" ([4]). وقريب من هذا ما قاله الجنرال غورو عندما دخل دمشق الشام ووقف على قبر صلاح الدين الأيوبي ، وقال : " ها قد عدنا يا صلاح الدين"([5]).

---

[1] انظر: التبشير في منطقة الخليج العربي، ص٢٠٧.

[2] فرق تدعي للإسلام وموقف الإسلام منها، غالب بن علي العواجي، جـ٢، ص٧٩٨، الطبعة الرابعة، المكتبة العصرية الذهبية، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

[3] التنصير ، تعريفه أهدافه وسائله حسرات المنصرين، عبد الرحمن بن عبد الله الصالح، جـ١، ص٦، الطبعة الأولى، دار الكتاب والسنة، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م

[4] انظر: المرجع السابق، جـ١، ص٩٥.

[5] انظر: قادة الغرب يقولون : دمروا الإسلام أبيدوا أهله، جلال العالم، ص٢٦، الطبعة الثانية، دار الفكر للنشر والتوزيع، سوريا، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .

ويصرح بذلك أيضا ، الأب دوفوكو[1] في مذكراته إذ يقول : "أعتقد أنه إذا لم يتم تنصير المسلمين في مستعمراتنا بشمال إفريقيا، فإن حركة وطنية ستقوم بها، على غرار ما حدث في تركيا ، وإن نخبة من المثقفين ستتكون في المدن الكبرى متأثرة بالفكر الفرنسي دون أن يكون لها إحساس الفرنسيين ولا طيبوبتهم، وإن هذه النخبة ستحتفظ بمظاهر الإسلام، رغم ضياع روحه، لتؤثر بها على الجماهير، ومن جهة أخرى فإن جمهور الشعب من البدو والرحل، سيبقى جاهلاً عديم الصلة بنا، متمسكاً بإسلامه حاقدا على الفرنسيين، محتقراً لهم بدافع من وازعه الديني وأشياخه ومعاملة الفرنسيين من رجال السلطة"[2].

وإذ كان القرن التاسع عشر هو العصر الذهبي لأوروبا من الناحية الاقتصادية والفكرية، فقد حاولت الأنظمة الحاكمة للدول العربية والإسلامية الالتحاق بركب التقدم هذا، فأرسل سليم باشا البعثات إلى أوروبا، وفعل الفعلة نفسها محمد علي[3]، إلا أن هذه البعثات تأثرت بالحياة الغربية، فظهرت كتابات الطهطاوي[4] وخير الله[5][6]. وهذه هي المرحلة الأولى من مراحل اتصال الإسلام بالحضارة الغربية، بدأت في أول أمرها بعيدة عن أن تمس جوهر الإسلام، تطلب القوة في تنظيم الجيوش وتسليحها، وتنظيم مصادر الثروة وتنميتها، ثم انتهت إلى الاشتباك مع الإسلام في تقدير قيم السلوك الفردي والجماعي.

---

[1] شارل دو فوكو: من مواليد ١٥ سبتمبر ١٨٥٨ بمدينة ستراسبورغ الفرنسية وهو رجل دين كاثوليكي فرنسي دخل المدارس العسكرية في صغره ثم اعتزلها ليبدأ حياة الرهبنة(معجم المورد، ص٢٥٥).

[2] التنصير ، مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته، علي بن إبراهيم الحمد النملة، ص٩٧، الطبعة الثانية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ.

[3] محمد علي: محمد علي بن محمد توفيق بن إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي: من الأمراء السابقين بمصر وهو أخو الخديوي عباس حلمي الثاني، ولد في القاهرة، وتعلم بها وبسويسرة. وقام برحلات كثيرة وأجاد اللغات الفرنسية والانجليزية والتركية. وآلت إليه ولاية العهد مرتين: الاولى في عهد شقيقه عباس، والثانية قبل أن يرزق فاروق ولدا.(الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي، ص١٥٥، الطبعة الخامس عشرة، دار العلم للملايين، مصر، ٢٠٠٢م).

[4] رفاعة الطهطاوي: رفاعة رافع بن بدوي بن علي الطهطاوي ولد في طهطا، وقصد القاهرة سنة ١٢٢٣ هـ فتعلم في الأزهر. وأرسلته الحكومة المصرية إماما للصلاة والوعظ مع بعثة من الشبان أوفدتهم إلى أورية لتلقي العلوم الحديثة، فدرس الفرنسية وثقف الجغرافية والتاريخ. ولما عاد إلى مصر ولي رئاسة الترجمة في المدرسة الطبية، وأنشأ جريدة (الوقائع المصرية) وألف وترجم عن الفرنسية كتبا كثيرة. (الأعلام للزركلي، ص٨٧)

[5] محمد عبده بن حسن خير الله، من آل التركماني: مفتي الديار المصرية، ومن كبار رجال الاصلاح والتجديد في الإسلام، له من المؤلفات: (تفسير القرآن الكريم) لم يتمه، و (رسالة التوحيد) (الأعلام للزركلي، ص١٥٠)

[6] انظر: الإسلام والحضارة الغربية ، ص١٥.

فللمرة الأولى نجد في البيئة الإسلامية كلاماً عن الوطن والوطنية، وحب الوطن بالمعنى القومي الحديث في أوروبا، الذي يقوم على التعصب لمساحة محدودة من الأرض، يراد اتخاذها وحدة وجودية، يرتبط تاريخها القديم بتاريخها المعاصر . وبذلك مهد الطهطاوي من حيث يدري أو لا يدري لقبول القانون العقلي الذي يستند إلى العقل مهملاً جانب التشريع الإلهي([1])

---

[1]انظر : الإسلام والحضارة الغربية، ص٣٨.

الفصل الأول

الدوافع الغربية للخوف من الإسلام

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الأسباب والدوافع بالنظر لذاتية الإسلام وخصائصه.

المبحث الثاني: الأسباب والدوافع الغربية للخوف من الإسلام (قديماً وحديثاً).

المبحث الأول: الأسباب والدوافع بالنظر لذاتية الإسلام وخصائصه، وفيه المطالب التالية:

المطلب الأول: ربانية الإسلام.

المطلب الثاني: واقعية الإسلام وصلاحيته للتطبيق في كل زمان ومكان.

المطلب الثالث: وسطية الإسلام.

المطلب الرابع: شمول الإسلام.

المطلب الخامس: موافقة الإسلام للفطرة الإنسانية.

مقدمة:

اتخذت العلاقة بين الغرب والإسلام أوجهاً متعددة، واتسمت في غالب الأحيان بالحدة والتوتر، ولاسيما بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، ولكنها أصبحت أكثر تعقيداً في الآونة الأخيرة، وتحديداً بعد حوادث الحادي عشر من أيلول، حيث أفصح الغرب عن طبيعته العدوانية، واتهم الإسلام بأنه يختزن في صلب تشريعاته الإرهاب والعنف، فأضحى الإرهاب سمة كل عربي ومسلم.

وفي بداية التسعينيات حددت الولايات المتحدة سبع دول كدول إرهابية، كان من بين هذه الدول السبعة خمس دول إسلامية([1])[2]، وهذا يؤكد أن الغرب يخشى الإسلام، ويعتبره العدو الأبرز له خاصة بعد سقوط الاتحاد السوفيتي. فالغرب ينظر للإسلام على أنه مصدر للانتشار النووي والإرهاب، وعلى أنه يكره الغرب وينقم عليه ويتمنى زواله، بدليل أن الحروب التي حدثت على وجه الكرة الأرضية بين العام ١٨٢٠م والعام ١٩٢٩م، كان خمسون بالمائة منها بين مسلمين ومسيحيين كما يقول هنتجنتون متناسياً مَن بدأها وتسبب فيها([3]).

وواضح أن هذا الادعاء لا يخلُ من تجنٍ ومبالغة، إذ إن الغرب هو مصدر الانتشار النووي الحقيقي، ومن بين هذه الدول كلها، لم يثبت حتى اللحظة أن أياً منها قد حاز السلاح النووي، كما أن جملة الحروب التي حدثت في القرن المنصرم وحتى يومنا هذا، كانت بفعل غربي دائماً.

"ونرى كثير من المفكرين الغربيين يؤمنون بأنه لا تصالح ولا حوار مع الإسلام، لأن الإسلام دين دموي على حد زعمهم، وهذا الدين يشكل خطراً أكيداً على الغرب، ويرون أن العلاج المناسب للتخلص من الخطر الإسلامي، هو شن سلسلة من الحروب للإطاحة بها كما حدث مع الفاشية الهتلرية الغربية في الحرب العالمية الثانية، وإن اقتضى الأمر تدمير ثلث العالم العربي الإسلامي، على حد تعبير فوكاياما"([4]).

والمتتبع لتاريخ العلاقات ما بين الغرب وشعوب الإسلام، يلاحظ حقداً مريراً يملأ صدر الغرب حتى درجة الجنون، يصاحب هذا الحقد خوف رهيب من الإسلام إلى أبعد نقطة في النفسية الأوروبية.

---

[1] انظر: صدام الحضارات لهنتجنتون ص٣٥٠.

[2] الدول الخمس هي: إيران، العراق، سوريا، السودان، ليبيا.

(http://www.ikhwanonline.com/new/Article.aspx?ArtID=6438&SecID=233).

موقع أخوان أن لاين

[3] انظر: المرجع السابق، ص٣٤٠.

[4] حوار الثقافات ادارة الأجندة والسيناريوهات المتنازعة، ص٧٢.

"والمتأمل في السياسة الغربية المعاصرة، يلاحظ بما لا يدع مجالاً للشك أن الغرب يرى أن الإسلام هو العدو الأبرز له، ومن خلال هذه الرؤية تنبثق وتتشكل مواقفه تجاه البلاد العربية والإسلامية، وإذا كان الغرب قد حاول تدمير الإسلام من خلال الحروب الصليبية، فإنه عاد اليوم من جديد، وبجيوش حديثة، وفكر جديد، وهدفه تدمير الإسلام"([1]).

وإذا كنا نقول أن الإسلام جاء لهداية الناس أجمعين، ولإخراجهم من الظلمات إلى النور، فإن هذا يُعد مسببا أكيداً لأن يصطدم بكل الذين يستعبدون الإنسان، ويمتهنون كرامته، ويسلبونه حقوقه ويفرضون عليه القوانين المجحفة.

والإسلام كرسالة خاتمة، وكدين يحتوي بداخله على الترياق السحري لكل مشاكل البشرية، لم يأتِ ليفرض على الناس الإيمان به، بل ترك الناس أحراراً في معتقداتهم، يقول تعالى ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ (: ٢٥٦)

وعلى الرغم من هذه الحرية التي منحها الإسلام لأهل المعتقدات الأخرى، إلا أنه ظل مُهاب الجانب، وتسبقه الدعايات الكاذبة التي تحاول التخويف منه ومن رجالاته عبر العصور.

فمنذ اللحظة الأولى نظرت الممالك المحيطة بالدولة الإسلامية إلى الإسلام نظرة ملؤها الريبة، وظل المسلمون مُهددين من بطش أكبر دولتين في ذلك التوقيت وهما فارس والروم، إذ نظرت كل دولة من الدولتين إلى أن الإسلام جاء ليطمس وجود كل منهما ويفرض قناعاته وسياساته على المناطق الواقعة تحت نفوذ كلٍ منهما.

وإذا كنا نتكلم عن أهل الكتاب، فإن تعداد الذين أذعنوا للحق عند مبعث النبي ﷺ لا يقارن بعدد الذين حادوا عن سواء السبيل، هذا على صعيد المجتمع الداخلي في الجزيرة العربية، أما على الصعيد الخارجي، فقد جابه المسلمون في معاركهم ضد الرومان مثلاً، جيوشاً تحمل الصليب، يقودها ويشحنها القساوسة والرهبان، فاكتست معاركهم مع المسلمين بالطابع العقائدي منذ اللحظة الأولى.

وإذا كان السلف أفلحوا في معاركهم التي خاضوها ضد نصارى عصرهم على وجه العموم، فإن هؤلاء النصارى عادوا يحملون الصليب على صدورهم ليقاتلوا المسلمين بعد ذلك بآمادٍ ليست طويلة.

وكان الحقد على الإسلام ديدن كل المحاربين، والخوف أيضاً، يتضح ذلك جلياً ليس من خلال الاستعمار الذي جاء بالسيف فقط، بل من خلال كتابات المبشرين والمستشرقين أيضاً،

---

[1] قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله، ص١.

فتارة القرآن كتاب مسيحي، وتارة محمد عليه السلام رجل يُصاب بالصرع، وتارة الإسلام دين يتسم بالعنف والقتل والإرهاب([1])، وهذا كله عارٍ عن الصحة في دين الإسلام وواقع المسلمين.

أما أسباب هذا الخوف من الإسلام فهي أسباب كثيرة، منها ما هو متعلق بطبيعة الإسلام نفسه، ومنها ما هو متعلق بجملة من العوامل الخارجية.

فإذا كان الغرب اليوم يخشى من الإسلام بسبب بعض الممارسات الخاطئة التي يقوم بها بعض المسلمين، والتي يُسهم الإعلام الغربي في تضخيمها وتعميمها، فإن هناك دليلاً على أن الغرب يخشى الإسلام لأسبابٍ أخرى، ليس لها علاقة بممارسات المسلمين، ولا بممارسات أرباب الفكر الغربي ضد الإسلام، هذه الممارسات القائمة على الكذب والتزوير والخداع، بل هناك أسباب كامنة ومتواجدة في طبيعة الإسلام نفسه، هي التي تجعل الغرب يخشى الإسلام، والدليل على ذلك أن الغرب نظر إلى الإسلام نظرة ملؤها الريبة منذ اللحظة الأولى، قبل أن يحدث أي احتكاك مباشر مع الإسلام، وهذا ما جعل هنتنجتون يقول: "مشكلة الغرب ليس مع الأصولية الإسلامية بل مع الإسلام"([2]) وهو يعني بذلك أن الغرب يخشى الإسلام ليس بسبب بعض الممارسات التي يقوم بها المسلمون، كالتفجيرات وخطف الرهائن والاستيلاء على الطائرات، بل الغرب يخشى من الإسلام كإسلام، لأن الإسلام يحمل في ثناياه أشياء كامنة تتسبب بسرعة انتشاره وإقناعه للآخرين. يقول هنتجنتون في معرض حديثه عن مسببات انتشار الإسلام: "لا آدم سميث ولا توماس جيرفسون، سيفي بالاحتياجات النفسية والعاطفية والأخلاقية للمهاجرين الجدد–داخل أمريكا– ولا المسيح يفي بها وإن كانت فرصته أكبر، فعلى المدى الطويل محمد سينتصر"([3]) فالمسيحية تنتشر أساساً بالتحول([4])، بينما الإسلام ينتشر عن طريق التحول والتناسل([5]).

ويمكن إبراز أسباب ودوافع الخوف الغربي من الإسلام بالنظر إلى ذاتية الإسلام وخصائصه في المطالب التالية:

---

[1] انظر: المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، محمد البهي، ص٣، الطبعة الأولى، مطبعة الأزهر للنشر، القاهرة–مصر، ١٩٧٨م.

[2] صدام الحضارات لهنتجنتون، ص٣٥٢.

[3] المرجع السابق، ص ,١٠٨

٣أي بدخول الناس في الدين المسيحي.

[5] صدام الحضارات لهنتجنتون، ص١٠٨.

المطلب الأول: ربانية الإسلام.

ربانية الإسلام تعني أنه دين موحى به من عند الله عزوجل، وليس فيها شيء من صنع البشر. فكل ما اشتمل عليه الإسلام مصدره من الله، والإسلام شريعته ربانية من وجهين([1]):

أولاً: ربانية المصدر والمنهج:

إن المنهج الذي رسمه الإسلام للوصول إلى غاياته وأهدافه منهج رباني خالص؛ لأن مصدره وحي الله تعالى إلى خاتم رسله محمد ﷺ. ولم يأت هذا المنهج نتيجة لإرادة فرد، أو أسرة، أو طبقة، أو حزب، أو شعب، وإنما جاء نتيجة لإرادة الله الذي أراد به الهدى والنور والبيان والبشرى والشفاء والرحمة لعباده. كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ ﴾ (النساء: ١٧٤) وقال تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾(يونس: ٥٧)

ثانياً: ربانية الغاية والوجهة:

إن الإسلام يجعل غايته الأخيرة وهدفه البعيد هو حسن الصلة بالله تبارك وتعالى، والحصول على مرضاته، فهذه هي غاية الإسلام، وبالتالي هي غاية الإنسان، ومنتهى أمله وسعيه وكدحه في الحياة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ ﴾ (الانشقاق: ٦) وكل ما في الإسلام من تشريع وتوجيه وإرشاد، إنما يقصد إلى إعداد الإنسان ليكون عبداً خالصاً لله، لا لأحد سواه، ولهذا كان روح الإسلام وجوهره هو التوحيد([2]).

ولقد خاطب الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بهذه الحقيقة، وأمره أن يعلنها ويبلغها للناس، فقال: ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (الأنعام: ١٦١)

فالإسلام إذن منهج رباني، خالٍ من تحريف البشر بالزيادة أو النقصان، بخلاف الشرائع الأخرى التي تكون في أساسها إلهية ثم تشوبها تحريفات البشر، فهي قاصرة بحجم قصور العقول التي صاغتها وكتبتها، بخلاف الإسلام الذي حفظ الله كتابه وعصمه من أن يعتريه قصورٌ أو نقصان، قال تعالى:﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩)

وعليه فلا خرافة فيه ولا تناقض يعتريه، لقوله تعالى:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ (النساء: ٨٢)

[1] انظر: الخصائص العامة للإسلام، يوسف القرضاوي، ص٣٣، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، دمشق-سوريا، ٢٠٠٠م.

[2] انظر: المرجع السابق، ص٣٤.

وكون الإسلام رسالة ربانية، فإن هذا يمنحها جملة من المميزات لا تجدها في رسالة أخرى، فهي رسالة معصومة من التناقض، فالتناقض سمة من سمات البشر، فما يراه الإنسان صواباً قد لا يراه كذلك في مرحلة عمرية لاحقة، ومن باب أولى ما يراه إنسان صواباً قد لا يراه إنسان آخر صواباً كذلك.

كما أن كون الإسلام رسالة ربانية فإن هذا يعصمها من الوقوع في التحيز والهوى يقول تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (المائدة: ٤٩).

وتتجلى أهمية ربانية الإسلام في كونها ترسم للإنسان صورة صحيحة للكون الذي يحيط به، فوجود الإنسان طارئ على هذا الكون، والعقل الذي يحاول من خلاله تفسير كثير من العلاقات والأشياء يتسم بالقصور، لذلك فإن كثير من الأمور يعجز العقل البشري عن تحديد كنهها، أو رسم صورة لها، ويمكن إبراز أهمية ربانية الإسلام في هذا الجانب بجملة من الأمور:

أولاً: انفراد الإسلام بعقيدة التوحيد

تاريخ البشرية شاهد على الإنسان كان دائم البحث عن إله يعبده، وهذه فطرة فطر الله الناس عليها، والدليل على ذلك أنه لم تخل حضارة من الحضارات البشرية من المعابد.

ولن يجد الإنسان مهما بلغت قدراته العقلية انسجاماً مع الله عزوجل إلا عبر الوحي الإلهي، المتمثل برسالة الإسلام وحدها، فكل الشرائع الأخرى شابها التحريف بالزيادة والنقصان كما أسلفنا، وهذه الأديان رسمت صورة ضبابية للإله، فبين الهندوس الذين يعبدون البقر، وبين النصارى الذين يؤمنون بعقيدة التثليث، واليهود الذين يرسمون صورة دونية للإله الذي يعبدونه، جاء الإسلام بعلاقة تربط الإنسان بربه، تتسم هذه العلاقة بالانسجام التام مع التكوين الفطري لهذا الإنسان، والتكوين النفسي كذلك.

فأي انسجام هذا الذي من الممكن أن تقدمه النصرانية في عقيدتها المتعلقة بالألوهية، وهي تؤمن بأن الله ثلاثة، وأن رب السماوات والأرض ومسخر النجوم في السماوات احتبس تسعة شهور في بطن امرأة ولدته([1]). وأن الواحد وواحد وواحد هم واحد يستحق العبادة([2]). وأن الله الذي خلق البشر يتجسد في إهاب بشر محدود العرض والطول، ويتصرف داخل هذا الإهاب وكأنه مخلوق لا خالق([3])، وأن هذا الإله يتجول في الأرض، فيتعب من المشي فيستضيفه إبراهيم عليه

[1] انظر: صيحة تحذير من دعاة التنصير، ص٢٣.

[2] انظر: المرجع السابق، ص٢٥.

[3] انظر: المرجع السابق، ص٣٢.

السلام ليستريح عنده([1])، بل وأن هذا الإله يخوض معركة ضارية مع عبد له هو داوود عليه السلام([2])، يقول الشيخ الغزالي رحمه الله: "وبعض الدهماء من اليهود والنصارى ضلوا في فهم أنبيائهم، ورفعوهم إلى مصاف الآلهة، مع أن هؤلاء ليسوا إلا عبيدا موهوبين، وقد كذبوا بهذا على أنفسهم وعلى الواقع، فمن الحماقة أن تظن في بشر -مهما علا شأنه- أنه خلق كوكباً من الكواكب، أو خلق ذبابة من باب أولى"([3]).

وعليه فإن العلاقة المثلى بين الإنسان وبين الله عزوجل لا يمكن إلا أن تكون عبر الطرائق التي يحددها الإسلام، والتي تتماهى مع فطرة الإنسان، وهي علاقة العبد مع خالقه تبارك وتعالى.

ثانياً: موقف الإسلام المعتدل من الأنبياء

"النبوة اصطفاء إلهي، لا تأتي عن طريق الكسب والاجتهاد أبدا، فالنبوة هبة خاصة، يختص الله بها عبدا من عباده، لكنْ الله عزوجل يحفظ عبده المصطفى من التلوث النفسي والضلال العقلي، والفساد الخلقي والانحراف الفطري، ويضفي عليه من الكمالات النفسية والعقلية والخلقية ما يؤهله لمقام النبوة الشريف"([4]). "هكذا ينظر المسلمون للأنبياء، لأن الأنبياء هم القادة الحقيقيون للفكر الإنساني، والقادة الموثقون للسلوك الإنساني، فالعقل يصيب ويخطئ، والقدم تزل وتنهض، لكن الأنبياء جمهورٌ مأمون الفكر مبارك الخطى"([5]).

والنظرة الغربية للأنبياء تتنافى مع بداهة العقول، فإذا كان العقل يفترض أن يكون الأنبياء خير البشر، لأنهم حجة على العباد، في أفعالهم وأقوالهم وتقريراتهم، فإن النصرانية رسمت صورة مشوهة لهؤلاء الأنبياء عليهم السلام.

بل نزلت النصرانية بالأنبياء إلى ما دون صلحاء البشر، ونسبت إليهم ما قد لا يفعله حتى الأوباش وأصحاب الدنايا من الناس.

والناظر في عقيدة النصارى فيما يتعلق بالأنبياء، يجد صورة ملطخة لهؤلاء الأنبياء، فنوح عليه السلام عندهم رجل سكير، تذهب الخمر بعقله فينطرح على الأرض مكشوف العورة مثيراً للضحك! ولوط عليه السلام كما تصوره توراتهم سكر فانتشى وضاجع ابنتيه إحداهما بعد الأخرى، وأنجب من كل بنت ولداً كان رأساً لقبيلة كبيرة! أما يعقوب عليه السلام فقد سرق النبوة

---

[1] صيحة تحذير من دعاة التنصير، ص٣٢.

[2] المرجع السابق، ص٣٤.

[3] عقيدة المسلم، محمد الغزالي، ص٥٢، الطبعة الأولى، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٣م.

[4] عقيدة المؤمن، أبو بكر الجزائري، ص٢٠٢، الطبعة الأولى، مكتبة الصفا، جمهورية مصر العربية، ١٤٣٢هـ-٢٠٠٢م.

[5] دعوة تحذير من دعاة التنصير، الغزالي، ص٣٦.

من أخيه الأكبر، فغدا نبياً بعد أن كان الله عزوجل يريد النبوة لأخيه([1])! كما أن عيسى عليه السلام جاءت به أمه من سفاح محرم([2]) تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا.

ومما لاشك فيه أن هذه الصورة المقيتة التي رسمتها كتب أهل الكتاب للأنبياء، ساهمت بدرجة كبيرة في تيه العقل الغربي، فإذا كان الأنبياء عليهم السلام بهذه الصورة، فما الذي كان يمنع أفراد أهل الكتاب أن يتنكبوا سواء السبيل، وأن يبحثوا عن ملهمين وقادة حقيقيين خارج دائرة النبوة، ما الذي كان يمنعهم من أن يستعيضوا عن النبوة بالفلسفة مثلاً، بل وما الذي كان يمنعهم من البحث عن دين آخر يجدوا فيه الإجابات على كل التساؤلات التي تؤرقهم. وهذا ليس افتراضاً، بل وجدنا كثيراً من النصارى يتجهون نحو الإسلام بسبب هذه النقطة بالذات، ولعل المفكر الفرنسي الكبير روجيه جارودي أكبر مثال على ذلك، فهو ينقل لنا قصة إسلامه وتحوله من النصرانية إلى الإلحاد إلى الشيوعية إلى الإسلام عبر هذه النافذة، يقول جارودي: "إنها تجربة فريدة، لقد بدأ محمد ﷺ بعولمة الرسالة، فأمر بتكريم الأنبياء السابقين الذين أرسلهم الله عزوجل، ووضع عيسى في مكان مميز عن كل الأنبياء بسبب ميلاده المعجز من عذراء"([3]) ومن ثم يضيف جارودي قائلاً: "أصبحتُ حينئذٍ مسلماً دون أن أنكر يسوع!!"([4]) وقول جارودي هذا هو قول الكثير من الغربيين الذين حطت رحالهم في رحاب الإسلام.

ثالثاً: تكريم الإسلام للإنسان

النظرة الغربية للإنسان تُسهم بشكل كبير في إثارة نوازع الدونية للإنسان الغربي، وهذا على خلاف الإسلام التي جاءت آياته دائماً لتعلي من شأن الإنسان، يقول تعالى:﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا ﴾ (الإسراء: ٧٠) أما الحضارة الغربية فلها شأن آخر مع الإنسان، "ففي الأساطير الإغريقية القديمة كان الإنسان نداً للآلهة، وهو في صراع مستمر ضد الآلهة الظالمة التي كانت تسومه سوء العذاب، فينتفض هو ويقاوم ويحافظ على نزعة التمرد الكامنة فيه"([5])! ولمَّا سيطرت النصرانية على الدولة الدولة الرومانية وُسِم الإنسان بالخطيئة، ونُكِسَ رأسُه بالذل، "فخطيئة آدم عليه السلام كما

---

[1] انظر: دعوة تحذير من دعاة التنصير، ص٤٢-٤٤.

[2] انظر: إنجيل متى، الإصحاح الأول، ص٢.

[3] الإرهاب الغربي، روجيه جارودي، ترجمة: داليا الطوخي وناهد عبد الحميد وسامي مندور، جـ١، ص٣٩، الطبعة الأولى، دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة-مصر، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

[4] المرجع السابق، ص٣٩.

[5] الإسلام ومشكلات الحضارة، سيد قطب، ص٥٣، الطبعة السابعة، دار الشروق، بيروت- القاهرة، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

تصورها النصرانية دمغت بني البشر جميعاً بالإثم"([1]). ولما ثارت أوروبا على الكنيسة تجددت النظرة للإنسان، وبالذات إلى العقل في الإنسان، فأصبح العقل إلها في عصر التنوير في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، وانتهى هذا العصر بالإنسان وإذا أصله قرد كما قال دارون([2])! ثم جاءت الضربة القاصمة لهذا الإنسان على يد رجلين، أولاهما فرويد الذي يرد كل دوافع الإنسان إلى الميول الجنسية، وكارل ماركس الذي يرد تطورات التاريخ كلها إلى العامل المادي الاقتصادي([3]).

وهذه النظرة للإنسان التي لم تستقر قط، ولم يعتدل بها الميزان في أوروبا في يوم من الأيام، كان لها أثر كبير في التخبط والضلال في الأنظمة والأوضاع، في السلوك الفردي وفي السلوك العام، إذ لا يمكن الفصل بين تصور الإنسان لنفسه، وسلوكه الواقعي في الحياة، وظلت أوروبا تتراوح بين الإفراط والتفريط، بين الكبت والتهور، بين سحق الميول الفطرية للإنسان والطاقات الطبيعية فيه، أو إطلاقها بغير عنان.

رابعاً: قصور النظم الاجتماعية والاقتصادية الغربية

الله هو خالق الإنسان، وهو الأعلم بما يصلح ويليق له، وكلما ابتعد الإنسان عن القانون الإلهي ضلت خطاه أكثر وأكثر، وكما رسم الغرب صورة مشوهة لعلاقة العبد بربه، وكما لم يفلح في رسم الصورة اللائقة لمقام الوحي المتمثل بالنبوة، لم يفلح الغرب في اختيار النظم الاجتماعية أو الاقتصادية للإنسان.

ولهذا وجد الغرب نفسه أسيراً لنظرتين اجتماعيتين واقتصاديتين أساءتا للإنسان أيما إساءة، أولاهما النظرية الرأسمالية التي سمحت للإنسان أن يَتَغَوَّل وألا يرحم أخيه الإنسان، في سبيل تحقيق الهدف الأسمى له المتمثل بالربح وزيادة رأس المال، فظلمت الرأسمالية المجتمع لصالح الفرد، بخلاف الاشتراكية التي ظلمت الفرد لصالح المجتمع، فجاءت متناقضة مع فطرة الإنسان المجبول على حب التملك والتفرد.

وكان تيه الغرب هنا طبيعياً، سواء مع الرأسمالية أو مع الاشتراكية، لأن هذه أنظمة ومعتقدات قامت على نظرة خاطئة وقاصرة للإنسان، وعلى الجهل المطبق بحقيقته. فما لم تصح النظرة إلى الإنسان ذاته، وحقيقة فطرته واستعداداته، وغاية وجوده وحدود سلطاته..إلخ، ما لم تصح النظرة إلى هذا كله، فلا مفر من التخبط والأرجحة في كل ارتباطاته الأخرى، وبخاصة ارتباطاته الاقتصادية والاجتماعية، فهذه فروع من تلك وأثر من آثارها([4]). يقول المفكر الغربي

[1] الإسلام ومشكلات الحضارة، ص٥٤.

[2] انظر: المرجع السابق، ص٥٤-٥٥.

[3] انظر: المرجع السابق، ص٥٥-٥٦.

[4] انظر: المرجع السابق، ص٨٩.

ول ديورانت: "وثقافتنا اليوم سطحية، ومعرفتنا خطرة، لأننا أغنياء في الآلات فقراء في الغايات، وقد ذهب اتزان العقل الذي نشأ ذات يوم من حرارة الإيمان الديني، وانتزع العلم المعاصر منا الأسس المتعالية لأخلاقنا، ويبدو العالم مستغرقاً في فردية مضطربة تعكس تجزؤ خلقنا المضطرب، إننا نعاني مرة أخرى من المشكلة التي أرقت سقراط، نعني: كيف نهتدي إلى أخلاق طبيعية تحل محل الزواجر العلوية التي لم يعد لها أثر في حياة الناس؟! إننا نبدد تراثنا الاجتماعي بهذا الفساد الماجن من جهة، وبهذا الجنون الثوري من جهة أخرى"([1]).

"وعليه فالحل الوحيد لكل مشاكل الإنسانية هو التشريع الإلهي، الذي يضع جوانب أساسية جذرية، ثم يترك الباقي مفتوحاً أمام الاجتهادات البشرية حسب الزمان والمكان"([2])، وهذا ما أفلح المسلمون في تحقيقه يوم كانت لهم دولة حملت معها لواء الحق والعدل للإنسانية بأسرها.

المطلب الثاني:واقعية الإسلام وصلاحيته للتطبيق في كل زمان ومكان.

جاء الإسلام مغايراً لكل الفلسفات والشرائع، فبالقدر الذي كان الإسلام فيه مثالياً، كان واقعياً أيضاً، والمثالية مرتبة أخلاقية سامقة تحاول الشرائع والفلسفات أن تُقاربها، لكنها لا تكفي للحكم بصوابية هذه الفلسفة أو الشريعة، لأنها إن لم تجد لها تطبيقاً واقعياً في حياة الناس، فإنها تبقى حبيسة الكتب والعقول، وعلى الصعيد المقابل، فإن الواقع وحده لا يصلح ليكون مُلهماً أو محدداً للفلسفات والشرائع، لأن الواقع إذا كان دونياً، أدى إلى أفكار دونية تلقائية، مثال ذلك نراه في أفلاطون عندما قال بنظرية وجوب وجود العبيد، إذ لما نظر إلى الواقع الاجتماعي، ورأى أن المجتمع ينقسم إلى طبقتين: السادة والعبيد، برر ذلك بقوله أن طبيعة الدماء التي تسري في أجساد السادة تختلف عن تلك التي تسري في العبيد، وعليه لا ظلم أبداً في نظام الرق والعبودية. ولهذا كان الإسلام مغايراً لكل الفلسفات والشرائع، فبالقدر الذي كان الإسلام فيه مثالياً، كان واقعياً أيضاً.

إن الأديان والفلسفات الوضعية والديانات المحرفة لم تكن واقعية، لأنها لم تلبِ حاجات البشرية ولم تسعدها، والواقع يشهد بهذا. لقد جاء الإسلام بعبادات واقعية لأنه عرف ظمأ الجانب الروحي في الإنسان إلى الاتصال بالله، ففرض عليه من العبادات ما يروي ظمأه ويشبع نهمه

---

[1] الإسلام ومشكلات الحضارة ، ص١٣٧.

[2] الإسلام يتحدى... مدخل علمي للإيمان، وحيد الدين خان، ترجمة: ظفر الإسلام خان، ص٢٢٣، الطبعة الأولى، دار المختار للنشر والتوزيع، القاهرة–مصر، ١٩٦٦م.

ويملأ فراغ نفسه. فقد قضى الله أن في الإنسان جوعة لايسدها إلا الإيمان بالله والصلة به ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ (الملك: ١٤)([1]).

فالإسلام الذي جاء لينقلب على كثير من العادات الجاهلية القديمة، مستبدلاً إياها بأحكام مثالية شرعية إلهية، كان واقعياً منذ اللحظة الأولى، ولهذا لما استنكرت قريش على النبي ﷺ كونه بشراً عادياً ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان: ٧) كان الرد واقعيا﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ (الأنعام: ٩) بمعنى أن الله عزوجل أراد لهذا الرسولﷺ أن يكون بشراً في كل الأحوال، حتى يكون حجة على العباد، فلو كان الرسول ملكاً، لاحتج بعض الناس عندما يعصون بقولهم أن هذا ملك ونحن بشر نعجز أن نفعل مثل الذي فعل([2]).

بمعنى أن الله عزوجل أراد أن يكون النبيﷺ الذي هو حجة على العباد، من بين أظهر الناس، يشبههم في قدراتهم وملكاتهم، ويعاني الذي يعانون في واقع حياتهم، ليحس بالذي يحسون به، لكي تُصبح المُثُل العالية التي جاء به لا تخرج عن كونها واقعية وممكنة في حياة الناس.

والغرب الحاقد على الإسلام، وذيوله من العلمانيين والشيوعيين، عندما يهاجمون الإسلام في عصرنا، لا يجدون حجة أقوى من اتهامه بأنه دين غير واقعي، يغرق بالمُثُل، ويصعب تطبيقه في حياة الناس.

والشواهد على واقعية الإسلام وصلاحيته للتطبيق في كل زمان ومكان بالتالي كثيرة، فهي قضية خبرية شهد بصدقها الوحي الإلهي، وشهد بصدقها التاريخ، وشهد بصدقها الواقع، وكل مَن اطلع على كنوزها من علماء القانون من المسلمين، ومن المنصفين من غير المسلمين.

الأدلة على واقعية الإسلام

أولاً شهادة الوحي الإلهي:

فأما شهادة الوحي، فنحن نعلم أن الله تعالى أنزل هذه الشريعة بعلمه على محمدﷺ ليقيم بها عدله في الأرض، ويحقق بها مصالح العباد في المعاش والمعاد، كما دل على ذلك استقراء نصوص الأحكام وتعليلاتها في الكتاب والسنة، وأنه سبحانه خص هذه الشريعة بالعموم والاستمرار دون الشرائع السماوية السابقة.

"فقد كانت شرائع الأنبياء السابقين مؤقتة لمدة محدودة من عمر الزمن، فهي لأقوام معينين، في مرحلة زمنية خاصة، وكان هذا الموافق للحكمة والمصلحة، فلم تكن البشرية في

[1] انظر: التطور والثبات في تاريخ البشرية، محمد قطب، ٩٥.

[2] انظر: تفسير الشعراوي، جـ١٠، ص٥٢.

طور يسمح لها بتقبل شريعة خالدة"([1])، ولهذا لم يتكفل الله عزوجل بحفظ الكتب السماوية السابقة من التحريف، ولم يضمن لها أن يبعث في كل جيل مَن يحفظ كتابها، ويصون ميراث نبيها، ويجدد لها أمر دينها.

ومن هنا حُرِّفت الكتب السماوية المنزلة قبل القرآن، تحريفاً لفظياً ومعنوياً، بخلاف القرآن الكريم الذي تكفل الله بحفظه.

أما الدليل على كون الإسلام يصلح لكل عصر، هو قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) وقوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨ ﴾ (الأعراف: ١٥٨) فالنبي عليه السلام رحمة للعالمين وأُرسل للناس كافة، ومقتضى هذا العموم: أن تكون هذه الرسالة أو هذه الشريعة صالحة لكل قوم، وكل بيئة وزمان([2]).

والدليل الآخر من السنة النبوية يثبت أن شريعة الإسلام صالحة للتطبيق لآخر الزمان، قول النبيﷺ "مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كَمَثَل رجل بنى بيتاً فأكمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فصار الناس يطوفون به ويتعجبون من حسنه، ويقولون: لولا هذه اللبنة، فأنا هذه اللبنة وأنا خاتم النبيين"([3])

والحلول التي تقوم في عالمنا العربي والإسلامي، لعلاج أدوائنا المادية والمعنوية، وللتخلص من التناقض والعقد التي يعانيها هذا الجيل في حياته الفكرية والروحية والاجتماعية، نستطيع أن نحصرها في حلول ثلاثة: الحل الإسلامي، والحل الديمقراطي الليبرالي، والحل الاشتراكي الثوري. "ولك أن ترد هذه الحلول إلى حلين اثنين: الحل الطبيعي والحل المصطنع، والحل الطبيعي هو الحل الأصيل النابع من ضمير الأمة وعقيدتها وتراثها، وذلك هو الحل الإسلامي. والحل الدخيل المستورد من أرض غير أرضنا، وقوم غير قومنا، وذلك هو الحل المأخوذ عن الغرب، بشقيه: الديمقراطي الرأسمالي، والاشتراكي الماركسي"([4]).

---

[1] شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان، يوسف القرضاوي، ص١١، الطبعة الخامسة، مكتبة وهبة للنشر والتوزيع، القاهرة–مصر، ١٤١٧هـ–١٩٩٧م.

[2] انظر: المرجع السابق، ص١٢.

[3] صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب: خاتم النبيينﷺ، حديث رقم ١٤٧٣.

[4] الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا... سلسلة حتمية الحل الإسلامي، يوسف القرضاوي، ص١٣، الطبعة الخامسة، مكتبة وهبة للنشر والتوزيع، القاهرة–مصر، ١٤١٣هـ–١٩٩٣م.

ثانياً: شهادة التاريخ

"لأن الهدف والغاية من إقامة الدولة في الإسلام حماية مبادئ الإسلام، وخاصة عقيدة التوحيد، التي هي الوسيلة الإيجابية لتحرير الإنسانية، وتنفيذ شرائع الإسلام لقيام المجتمع الإنساني على العدالة والتعاون والتكافل والمثل والأخلاق العليا، فقد سعى المسلمون عبر تاريخهم لإقامة هذا الحكم"([1]). وإذا كنا نتحدث عن شهادة التاريخ، فإن شهادة التاريخ لنظام ما بالخلود والصلاحية للتطبيق في كل زمان ومكان مرهونة بأمرين يتم أحدهما الآخر: "أولاهما وفاء الأصول النظرية لهذا النظام بالحاجات المتجددة، بمعنى أن هذه الأصول النظرية قد استطاعت الوفاء بعلاج الوقائع والمشكلات المتجددة طوال مراحل تاريخية معينة، وفي بيئات اجتماعية وحضارية متعددة، وذلك لما احتوته هذه الأصول من السعة والمرونة والخصوبة والخصائص الذاتية"([2])، وثانيهما نجاح التطبيق العملي، "بمعنى نجاح هذا النظام لدى تطبيقه عملياً، وقدرته على إسعاد الجماعات التي تحكم به، وتوفيره لها العدل والأمن والاستقرار والرخاء"([3]).

والمتأمل في التاريخ الإسلامي، أو تاريخ الدولة الإسلامية، يجد أن الشرطين تحققا لأبعد مدى، فقد حكمت الشريعة الإسلامية شعوب الأمة الإسلامية ثلاثة عشر قرناً دخلت فيها بلاداً شتى، منها العريق في الحضارة، ومنها القريب إلى البداوة، والمتوسط بينهما، وواجهت أنظمة متفاوتة: مالية وإدارية وسياسية واجتماعية، كما واجهت أحداثاً غريبة، ومشكلات جديدة، لم يكن لها نظير في العهد النبوي ولا في أرض الحجاز، فلم يضق أفق الشريعة عن إيجاد حلول ملائمة لكل تلك المشكلات والوقائع، مستمدة من نصوصها وأصولها، مقتبسة من روحها ومبادئها العامة، استنبطها الأئمة المجتهدون من فقهاء الصحابة وتابعيهم بإحسان، ومن سار على هديهم من أئمة الاجتهاد، الذين امتلأت بهم أقطار دار الإسلام، والذين أجمعوا على اختلاف مشاربهم ومدارسهم على أن لكل حدث وكل فعل من أفعال المكلفين حكماً في الشريعة أصابه من أصاب، وأخطأه من أخطأ، وأن هذه الشريعة العامة الخالدة يستحيل أن تضيق نصوصها وقواعدها عن تصرف من التصرفات فلا تصدر فيه حكماً([4]).

"وفي ظل الإسلام استطاعت الأمم والشعوب- حتى المضطهدة منها في القديم- أن تنال نصيبها من الدين والعلم والتهذيب والحكومة، وأن يساهم العرب في بناء العالم الجديد"([5]).

---

[1] نظام الإسلام الحكم والدولة، محمد المبارك، ص٢٣، الطبعة الرابعة، دار الفكر، سوريا، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

[2] شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان، ص١٦.

[3] المرجع السابق، ص١٦.

[4] انظر: شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان ، ص١٦-١٧.

[5] ماذا خسر العالم من انحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، ص١٠٧، الطبعة الثانية، مكتبة الإيمان، المنصورة-مصر، ١٩٨١م.

فلم نعرف دوراً من أدوار التاريخ أكمل وأجمل وأزهر في نواحي الحياة من دور الخلافة الراشدة([1])، ولم يسع المؤرخ ول ديورانت رغم سوء فهمه لمواقف الإسلام في بعض الأحيان، إلا أن يُسَلِّم بأن الخلفاء الأولين من أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى المأمون: "قد وضعوا النظم الصالحة الموفقة للحياة الإسلامية في رقعة واسعة من العالم، وأنهم كانوا من أقدر الحكام في التاريخ كله، ولقد كان في مقدورهم أن يصادروا كل شيء، وأن يخربوا كل شيء كما فعل المغول أو المجر أو أهل الشمال الأوروبيين، لكنهم لم يفعلوا هذا، بل اكتفوا بفرض الضرائب، وكانت العراق صحراء جرداء قبل الفتح الإسلامي، فاستحالت أرضها بعدها جناناً فيحاء، وكان كثير من أرض فلسطين قبيل الفتح رملاً وحجارة، فأصبحت خصبة، غنية، عامرة بالسكان، وما من شك أن استغلال المهرة والأقوياء للسذج والضعفاء بقي في عهد الحكومات الإسلامية كما يبقى في عهود كل الحكومات، ولكنَّ الخلفاء أمنوا الناس إلى حدٍ كبير على أموالهم وحياتهم"([2]).

ففي ظل شريعة الإسلام ساد العدل إذن، ونعم بخيره الناس جميعاً، فقانون الشرع ملزم لكل مَن جرت عليه أحكام الإسلام، لا يُظلم أحدٌ أو يحابى لأجل دينه، أو طبقته الاجتماعية، أو أسرته، أو غناه أو فقره، أو لونه أو لغته. ذلك لأن عدل الإسلام هو عدل الله، والله لا يظلم أحداً من عباده، فرداً أو جماعة، وقد نزلت آيات خالدة في كتاب الله، تدافع عن يهودي اتهم بجريمة ظلماً وهو بريء منها، فندد القرآن بالمتهِمين، وهم منتسبون ظاهراً إلى الإسلام، ودافع عن المتَهَم دفاعاً لا نظير له في التاريخ، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴿١٠٧﴾ ﴾ (النساء: ١٠٧-١٠٥) "نزلت في طعمة بن أبيرق من بني ظفر، سرق درعا من جاره قتادة بن النعمان في جراب دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه وخبأها عند زيد بن السمين اليهودي، فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد، وحلف ما أخذها وماله بها علم، فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودي، فأخذوها فقال دفعها إلي طعمة، وشهد له ناس من اليهود، فقالت بنو ظفر : انطلقوا بنا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فاسألوه أن يجادل عن صاحبكم وقالوا : إن لم نفعل هلك وافتضح وبرئ اليهودي فهم رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يفعل. فنزلت الآية تنهاه عن ذلك"([3]).

---

[1] انظر: ماذا خسر العالم من انحطاط المسلمين، ص١٠٩.

[2] قصة الحضارة، جـ٨، ص١٥٠.

[3] تفسير البيضاوي، جـ١، ص٢٤٨.

والتاريخ شاهد على قدرة الإسلام على التعامل مع المتغيرات المستجدة، واجتثاثه للتقاليد التي تتناقض مع الفطرة أو مع إنسانية الإنسان، فبالتدرج ألغى الإسلام نظام الرق تقريبا، واجتث الربا والإقطاع، وأعاد للمرأة كرامتها، وحقق العدل للناس جميعا، فعاش المسيحيون واليهود في كنف الدول الإسلامية عيشة كريمة، وأصبح للمسلمين حضارة مزدهرة بالعلم والتقدم.

ثالثاً: شهادة الواقع

والواقع يشهد بصلاحية الإسلام للتطبيق، والدليل على ذلك واقعياً إخفاق العلمانيين في كل البلاد الإسلامية التي حكموها، فما من دولة خلعت الإسلام واستبدلته برداء العلمانية، إلا وكان مآلها الخيبة والتفسخ والإخفاق في شتى مجالات الحياة، وهذا هو واقع بلاد العرب والمسلمين على وجه العموم([1]).

"لقد فشلت الليبرالية والاشتراكية كلتاهما في إقامة حياة اقتصادية سليمة متكاملة، تتحقق فيها زيادة الإنتاج وعدالة التوزيع، حياة يتوفر فيها العمل الملائم لكل عاطل، والأجور العادلة لكل عامل، والكفالة المعيشية لكل عاجز، وتكافؤ الفرص لكل مواطن، بحيث يجد كل المواطنين حاجاتهم الأساسية من الغذاء والكساء والمسكن والعلاج والتعليم دون عائق"([2]).

وفشلت الليبرالية والاشتراكية أيضاً في تحقيق الأمن والطمأنينة والحرية الحقيقية للشعوب، التي تتمثل في حرية الفرد في أن يفكر وينقد ويبدي رأيه فيما يراه من عوج وفساد، وفي أن يندد مع غيره بالظلم والطغيان، دون أن يخشى على نفسه من كلاب الصيد التي تختطف الأحرار من بيوتهم ومن بين أهليهم وأبنائهم في سواد الليل، فتلقي بهم في ظلمات السجون والمعتقلات، بلا محاكمة أصلاً أو بمحاكمة صورية([3]).

كما أنهما فشلتا في المجال العسكري، فشلتا في تحقيق نصر عسكري في قضية المسلمين والعرب الأولى، قضية فلسطين، أولى القبلتين وثالث الحرمين، فشلت العلمانية فشلاً تجسد في هزيمة الجيوش العربية في العام ١٩٤٨، وقيام دولة إسرائيل المزعومة وتشريد مليون مواطن من شعب فلسطين، وتحويلهم إلى لاجئين. ثم بعد تسعة عشر عاماً، وبعد تَحَوُّل عدد غير هين من الدول العربية نحو الاشتراكية الثورية، وبعد الإعداد والتجهيز، وشراء السلاح بالملايين من عرق الشعوب، واستقدام الخبراء، وإطلاق الحناجر بالجعجعة والوعيد، وبعد أن أصبح العسكريون هم القادة السياسيين أيضاً، فشلت الاشتراكية اليسارية فشلاً أنكى وأشد من

---

[1] انظر: شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان، ص٥٧.

[2] الحل الإسلامي فريضة وضرورة.. سلسلة حتمية الحل الإسلامي، يوسف القرضاوي، ص٨، الطبعة السادسة، مكتبة وهبة، جمهورية مصر العربية، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

[3] انظر: الحل الإسلامي فريضة وضرورة، ص٩.

فشل سابقتها، فقد جاء الفشل بعد أحلام عِراض، وآمال عِذاب، وبعد تصريحات نارية، وتهديدات عنترية([1]).

هذا على الصعيد العسكري، "وفي المجال الأخلاقي كان الفشل أيضاً، إذ فشل الحلان- الاشتراكي والليبرالي- في الحفاظ على أخلاق الأمة وفضائلها الأصيلة، وقيمها الرفيعة، ولم يستطيعا تخليص الأمة من العادات الموروثة من عصور الانحطاط، ولا مطاردة الرذائل الدخيلة، التي جلبها معه الغزو الاستعماري"([2]).

"وكذا كان الحال في المجال الروحي، إذ فشلا في أن يمسكا على الأمة إيمانها الذي تعتز به، وتعض عليه بالنواجذ، وتعتبره أساس وجودها وبقائها: الإيمان بالله والإيمان برسالاته، وإيمانها بالحساب والجزاء في الآخرة"([3]).

وقد جاء الإسلام بجملة من الشرائع أثبت الواقع فاعليتها، فنظام الطلاق في الإسلام الذي اضطرت كل دول الغرب إلى الاعتراف به، وآخرها الدولة الكاثوليكية العريقة إيطاليا، وقد عُقِد في لاهاي سنة ١٩٦٨ مؤتمر للقانون الدولي الخاص، فكان مما تناوله البحث إعداد معاهدة الاعتراف بالطلاق والتفريق المدني على المستوى الدولي، وهذا معناه الرجوع إلى حكم الإسلام([4]). وكذلك الربا الذي زعموا في وقت من الأوقات أن عجلة الحياة الاقتصادية لا تدور إلا به، حتى قام من كبار الاقتصاديين في الغرب من ينقض فكرة الربا من أساسها باسم العلم والاقتصاد نفسه، لا باسم الدين والإيمان، ولعل أشهر اسم يُذكر في هذا الصدد اسم الاقتصادي كينز الذي قرر أن المجتمع لا يصل إلى العمالة الكاملة إلا بالقضاء على سعر الفائدة([5]).

وهذه الأسباب وغيرها هي مَا جعلت هنتجنتون في معرض حديثه عن مسببات انتشار الإسلام يقول: "لا آدم سميث ولا توماس جيرفسون، سيفي بالاحتياجات النفسية والعاطفية والأخلاقية للمهاجرين الجدد-داخل أمريكا- ولا المسيح يفي بها وإن كانت فرصته أكبر، فعلى المدى الطويل محمد سينتصر... فالمسيحية تنتشر أساساً بالتحول، بينما الإسلام ينتشر عن طريق التحول والتناسل"([6]).

---

[1] انظر: الحل الإسلامي فريضة، ص١٠.

[2] المرجع السابق، ص١١.

[3] المرجع السابق، ص١٢.

[4] انظر: شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان، ص٦٢.

[5] انظر: المرجع السابق، ص٦٣.

[6] المرجع السابق، ص١٠٨.

والواقع أثبت لا واقعية الغرب اليوم أيضاً، إذ إن حضارة الغرب اليوم تقوم على أساس المادة وتهمل الجانب الروحي والمعنوي للإنسان، وتعتمد مبدأ القوة في تمرير سياساتها، وهذه الواقعية الغربية تتمثل بمنطق القوة البعيدة عن أي منطق آخر، فبالقوة وحدها دون الاهتمام أو الالتفات إلى الأعراف والتقاليد الإنسانية، يفرض الغرب اليوم سطوته، ففي إطار النظام العالمي المتطور يكمن تفوق الولايات المتحدة الأمريكية بالقوة العسكرية، أما الدبلوماسية والقانون الدولي فكانا على الدوام يعتبران من الأعباء المزعجة ما لم يكن من الممكن استخدامها ضد هذا العدو أو ذلك، وهكذا تم احتلال العراق وأفغانستان([1]).

بل هناك كثير من الأحكام والقوانين تثبت تفوق الإسلام على الغرب من الناحية الواقعية، فعندما حاولت الولايات المتحدة الأمريكية أن تقضي على الخمور في بدايات النصف الثاني للقرن المنصرم، أنفقت ملايين الدولارات على الحملة اللازمة لذلك، دون أن تُحقق أدنى نتيجة معتبرة، بينما كانت آية قرآنية واحدة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (المائدة: ٩٠) كانت هذه الآية كافية لأن تمتلئ شوارع المدينة المنورة بالخمر المسكوب. إذ أقدم كل الصحابة رضوان الله عليهم على دلق الخمر وإخراجه من بيوتهم، وكان أحدهم قد رفع قدح الخمر إلى فمه، فلما سمع الآية ألقى القدح على طول يده([2]).

وإن أكبر دليل على تفوق الإسلام على أي تشريع وضعي آخر، رأسماليا كان أو اشتراكيا، هو أن معدل الجريمة في المجتمع النبوي أو مجتمع الخلفاء الراشدين أو حتى الذين جاؤوا بعدهم أقل بكثير من معدل الجريمة في أرقى بلاد الغرب اليوم، والمتأمل في كتب السير والتاريخ يجد أن تعداد الجرائم الجنائية التي اقترفت في العهد النبوي مثلاً لا تكاد تزيد على أصابع اليدين، بينما نجد أن هناك جريمة قتل كل ثلاث ساعات في ولاية نيويورك الأمريكية، وجريمة اغتصاب كل أربع ساعات([3])، ذلك على الرغم من التطور المادي الكبير الذي تشهده أرقى وأقوى دولة في العالم.

---

[1] انظر: ردع الديمقراطية، نعوم تشومسكس، ترجمة: فاضل خيكر، ص٨، الطبعة الأولى، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر، ١٩٩٣م.

[2] انظر: الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي، ص٢٥، الطبعة الثالثة، دار وهبة للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٩٩٩م.

[3] انظر: حفارو القبور، روجيه جارودي، ص٧٣.

المطلب الثالث: وسطية الإسلام.

وسط الشيء ما بين طرفيه، ويُقال خيار الأمور أوسطها، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ ﴿١١﴾ ﴾ (الحج: ١١) أي على شك، فهو على طرف من دينه غير متوسط فيه ولا متمكن، فلما كان وسط الشيء أفضله وأعدله جاز أن يقع صفة، وذلك مثل قوله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴿١٤٣﴾ ﴾ (البقرة: ١٤٣) أي عدلا([١]). وجاءت كلمة "وسط" في اللغة لعدّة معانٍ، ولكنها معانٍ مُتقاربة في مدلولها عند التأمّل في حقيقتها ومآلها.

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى : "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا " أي إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم ﷺ واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم، لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم لأن الجميع معترفون لكم بالفضل، والوسط هنا الخيار والأجود، ولما جعل الله هذه الأمة وسطا خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب"([٢]).

وفي الحديث: "يُدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلّغت؟ فيقول: نعم، فيُقال لأمَّته: هل بَلَّغَكُم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمَّته، فيشهدون أنَّه قد بلَّغ، ويكون الرّسول عليهم شهيدًا. فذلك قوله – جلَّ ذكره: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴿١٤٣﴾ ﴾ البقرة: ١٤٣"([٣]) "والوسطية تأتي بمعنى الخيار والأفضل والعدل، قد ترد لما بين شيئين فاضلين، وتستعمل لما كان بين شرّين وهو خير، وتستعمل لما كان بين الجيّد والرديء، والخير والشَّرّ، وقد تُطلق على ما كان بين شيئين حسًّا، كوسط الطّريق، ووسط العصا، وقد تأتي لمعانٍ أخرى قريبة من هذه المعاني"([٤]).

والوسطية تعني الاعتدال في الاعتقاد والموقف والسلوك والنظام والمعاملة والأخلاق، فليس في الإسلام مغالاة في الدين، ولا تطرف في الاعتقاد، ولا استكبار ولا خنوع ولا ذل ولا استسلام ولا خضوع وعبودية لغير الله تعالى. ويمكن إجمال مظاهر الوسطية في الإسلام في النقاط التالية

---

[١] لسان العرب، ابن منظور، ج٩، ص٢٩٧-٢٩٨، الطبعة الأولى، دار الحديث، القاهرة-مصر، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

[٢] تفسير القرآن العظيم ، الحافظ ابن كثير ، المجلد الأول ، ص ١٨١ ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، دار الحديث – القاهرة .

[٣] صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: وكذلك جعلناكم أمة وسطا، حديث رقم:٥٩٧.

[٤] الوسطية في ضوء القرآن، ناصر سليمان العمر، ص٢، الطبعة الأولى، دار الوفاء، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٧م.

أولاً: وسطية في العقيدة

إن العقيدة الإسلامية وسط بين الذين ينكرون كل ما وراء الطبيعة مما لم تصل إليه حواسهم وبين الذين يثبتون للعالم أكثر من إله والذين يحلون روح الإله في الملوك والحكام ، بل وفي بعض الحيوانات والنباتات والجمادات، فقد رفضت العقيدة الإسلامية الإنكار الملحد كما رفضت التعدد الجاهل والإشراك الغافل وأثبتت للعالم إلها واحدًا لا شريك له، كما إنها وسط في الصفات الواجبة لله تعالى فلم تسلك سبيل الغلو في التجريد فتجعل صفات الإله صورا ذهنية مجردة عن معنى قائم بذات لا توحي بخوف ولا رجاء، كما فعلت الفلسفة اليونانية، ولم تسلك كذلك سبيل التشبيه و التمثيل والتجسيم كما فعلت بعض العقائد حيث جعلت الإله كأنه أحد المخلوقين، يلحقه ما يلحقهم من نقص وعيوب فالعقيدة الإسلامية تنزه الله تعالى إجمالا عن مشابهة المخلوقين بقواعد مثل قوله تعالى:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (الشورى: ١١) وقوله:﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾ (الإخلاص: ٤) ومع هذا تصفه بصفات إيجابية فعاله تبعث الخوف والرجاء في نفوس العباد كما في قوله تعالى:﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ البقرة: ٢٥[1]).

ثم إنها وسط بين التسليم الساذج والتقليد الأعمى في العقائد وبين الغلو والتوغل بالعقل لإدراك كل شيء حتى الألوهية، فهي تنهى عن التقليد الأعمى، حيث عاب الله على القائلين:﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الزخرف: ٢٢)، وتنهى عن التوغل بالعقل لإدراك كيفية صفات الرب عز وجل فقال تعالى:﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ (طه: ١١)وقال:﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (الإسراء: ٣٦) وتدعوهم إلى التوسط والأخذ بالمدركات كوسائط قال تعالى:﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الذاريات: (٢٠-٢١) ([2])

ثانياً: وسطية في التشريع

والإسلام وسط في أحكامه التشريعية، فالشرع الإسلامي وسط في أحكامه وأنظمته القانونية والاجتماعية، وبما في ذلك المجالات الأسرية والمدنية والجنائية والدولية:

---

[1] انظر: الخلاصة في خصائص العقيدة الإسلامية، علي بن نايف الشحود، ص٦٥، الطبعة الأولى، بدون دار نشر، ماليزيا، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

[2] المرجع السابق، ص٦٦.

فهو وسط في التحليل والتحريم بين اليهودية التي بالغت في التحريم، وكثرت فيها المُحرَّمات.وبين النصرانية التي أسرفت في الإباحة، حتى أحلت الأشياء المنصوص على تحريمها في التوراة. فالإسلام قد أحلَّ وحرَّم، ولكنه لم يجعل التحليل ولا التحريم من حق بشر، بل من حق الله وحده، ولم يُحرم إلا الخبيث الضار، كما لم يُحل إلا الطيب النافع، ولهذا كان من أوصاف الرسول ﷺ عند أهل الكتاب أنه: ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (الأعراف: ١٥٧)([1]).

والتشريع الإسلامي وسط في شؤون الأسرة، كما هو وسط في شؤونه كلها، وسط بين الذين شرعوا تعدد الزوجات بغير عدد ولا قيد، وبين الذين رفضوه وأنكروه ولو اقتضته المصلحة وفرضته الضرورة والحاجة.

فقد شرع الإسلام الزواج بشرط القدرة على الإحصان والإنفاق، والثقة بالعدل بين الزوجتين، فإن خاف ألا يعدل، لزمه الاقتصار على واحدة، كما قال تعالى:﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ ﴾ (النساء: الآية ٣).

وهو وسط في الطلاق بين الذين حرَّموا الطلاق، لأي سبب كان، ولو استحالت الحياة الزوجية إلى جحيم لا يطاق، كالكاثوليك، وبين الذين أرْخَو العِنان في أمر الطلاق، فلم يقيدوه بقيد، أو شرط، فمن طلب الطلاق من امرأة أو رجل كان أمره بيده، وبذلك سهل هدم الحياة الزوجية بأوهى سبب، أما الشرع الإسلامي فقد شرع الطلاق، عندما تفشل كل وسائل العلاج الأخرى، ولا يجدي تحكيم ولا إصلاح.

والشرع الإسلامي – أيضًا – وسط في نظامه الاجتماعي بين الاشتراكيين أو الماركسيين، الذين يبالغون في حقوق المجتمع ودوره على حساب حقوق الفرد ونوازعه الذاتية وحريته.وبين الليبراليين أو الرأسماليين الذين يعطون للفرد الحريات المفرطة من غير ضوابط أو آداب على حساب المجتمع أو الجماعة الإنسانية([2]).

---

[1] انظر: مظاهر الوسطية في التشريع الإسلامي، ص٤٢.

[2] المرجع السابق، ص٤٣.

وقد جاء الإسلام ليحض الناس على التوسط في أمور حياتهم، وينهاهم عن الغلو في الدين([1])، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾(المائدة ٧٧) .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ ﴾ (النساء : ١٧١) .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : "إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من قبلكم بالغلو في الدين"([2]).

وفي الحديث: " هلك المتنطعون .. قالها ثلاثا"([3]). ومثال ذلك أيضاً قصة الثلاثة الذين سألوا عن عبادة الرسول ﷺ، فلما علموا ذلك كأنّهم تقالّوها! فقال أحدهم: أمّا أنا فأصوم ولا أفطر، وقال الآخر: أمّا أنا فأصلّي الليل أبدًا، وقال الآخر: لا أتزوجّ النساء، فقال ﷺ:" أأنتم الذين قلتم كذا وكذ؟؟ أمَا والله إني أخشاكم لله وأتقاكم له، لكنيّ أصوم وأفطر، وأصلّي وأرقد، وأتزوج النّساء، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي"([4]) وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إنّي لأتأخرّ عن صلاة الصّبح من أجل فلان مما يطيل بنا.. قال أبو مسعود الأنصاري رضي الله عنه – راوي الحديث –: فما رأيتُ النبي ﷺ غضب في موعظة قطّ أشدّ ممّا غضب يومئذ، فقال: " أيّها الناس: إن منكم منفّرين! فأيّكم أمَّ النّاس فليوجز، فإنَّ من ورائه الكبير، والضعيف، وذا الحاجة"([5]) و عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى شيخًا يهادي بين ابنيه، فقال: "ما بال هذا؟" . قالوا: نذر أن يمشي، قال: " إنَّ الله عن تعذيب هذا لنفسه لغني" . وأمره أن يركب"([6]).

وهذه الوسطية تميز المسلم عن غيره بمنهج حياته، فتجعله يقف صامدا ثابتا أمام تحديات العصر ومجريات الأحداث، ولا يكون حائرا مترددا على مفترق الطرق ، ولا تذوب هويته

---

[1] انظر: الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف، يوسف القرضاوي، ص٢٣، الطبعة الأولى، دار الشروق، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

[2] رواه الإمام أحمد في مسنده ، حديث رقم (١٨٥١) ، صحيح ابن حبان (٣٨٧١) والحاكم (١ / ٤٦٦) ، وابن خزيمة (٢٨٦٧ ، ٢٨٦٨) قال الألباني : صحيح .

[3] صحيح مسلم، كتاب العلم ، باب: هلك المتنطعون : حديث رقم (٢٦٧٠) .

[4] صحيح مسلم، كتاب الصلاة، حديث رقم ١٤٠١.

[5] صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب: أمر الأئمة بتخفيف الصلاة، حديث رقم ٤٦٦.

[6] صحيح البخاري، كتاب جزاء الصيد، باب من نذر المشي إلى الكعبة ، حديث رقم: ١٧٦٦.

في أمواج الأفكار المتعارضة، فلا يميل نحو الشرق ولا نحو الغرب، ولا يكون متساهلا مفّرطا حتى يكون علمانيا ولا متطرفا مكفرا أو مفسقا فيأتي إلى استخدام أساليب القسوة والعنف، وبهذه الوسطية أصبح الإسلام أسمى من النظم المدنية كلها ، لأنه يشمل الحياة كلها ويهتم اهتماما متساوياً بالدنيا والأخرة وبالنفس والجسد معا، وبالفرد والمجتمع على المستوى الواحد.

وقد اتضح من النصوص الشرعية المذكورة وغيرها أن الإسلام منهج وسط في كل شيء، في التصور والاعتقاد والتعبد والتنسك والأخلاق والسلوك والمعاملة والتشريع ، وينهى عن الغلو والتطرف.

بل يدعو إلى وسطية تقوم على المنهج الإلهي ، بالجمع بين المادة والروح، والقضاء والقدر، والدنيا والآخرة، والإنسانية والعلوم، والفرد والجماعة، والأسرة والمجتمع، والحقوق والمسؤولية، والتوازن فيما بينها بلا إفراط ولا تفريط، ولا ترجيح جانب من الجوانب دون الآخر. وأما العزلة والانفراد أو الانهماك في ملذات الدنيا واتباع الهوى فكل ذلك من التطرف.

وسطية تدعو إلى التيسير في أمور الدين ، وإلى التسامح والرفق، وتحارب التطرف والتشدد بجميع صوره ، وترى الجهل بمبادئ الإسلام وتأويل النصوص بالهوى والاستبداد بالرأي والابتداع والعصبية وسوء الظن بالآخرين والحسد والحقد كلها خروجا وانحرافا عن وسطية الإسلام ، وذاك هو التطرف بعينه([1]).

رابعاً: وسطية الإسلام في العبادات والشعائر

"والإسلام وسط في عباداته، وشعائره بين الأديان، والنحل التي ألغت الجانب الرباني . جانب العبادة والتنسك والتأله من فلسفتها وواجباتها، كالبوذية التي اقتصرت فروضها على الجانب الأخلاقي الإنساني وحده، وبين الأديان والنحل التي طلبت من أتباعها التفرغ للعبادة والانقطاع عن الحياة والإنتاج، كالرهبانية المسيحية"([2]).

خامساً: وسطية الإسلام في الأخلاق

والإسلام وسط في الأخلاق بين غلاة المثاليين الذين تخيلوا الإنسان ملاكا أو شبه ملاك، فوضعوا له من القيم والآداب ما لا يمكن له، وبين غلاة الواقعيين الذين حسبوه حيوانا أو كالحيوان، فأرادوا له من السلوك ما لا يليق به، فأولئك أحسنوا الظن بالفطرة الإنسانية فاعتبروها خيرا محضا، وهؤلاء أساءوا بها الظن، فعدوها شرا خالصا، وكانت نظرة الإسلام وسطا بين أولئك وهؤلاء.

---

[1] انظر: الإسلام في مواجهة الفكر الغربي،ص٩٥.

[2] انظر: مدخل لمعرفة الإسلام، ص٤٥.

فالإنسان في نظر الإسلام مخلوق مركب فيه العقل، وفيه الشهوة، فيه غريزة الحيوان، وروحانية الملاك، قد هُدِيَ للنجدين، وتهيأ بفطرته لسلوك السبيلين، إما شاكرا وإما كفورا، فيه استعداد للفجور استعداده للتقوى، ومهمته جهاد نفسه ورياضتها حتى تتزكى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ (الشمس:٧،٨، ٩)

وعندما جاء الإسلام وأذعن العرب لأمر الدين وسلطانه، استطاع المسلمون أن يقيموا دولة، ويبنوا كياناً واحداً ذا نسيج قوامه الإيمان والعمل، ويرسي نظاماً عقيدياً وسياسياً واقتصادياً وتشريعياً يتسم بالواقعية والاعتدال، ويعتمد الوسطية والتوازن في حكم الحياة([1]).

وقد جاءت الأديان السماوية لتقيم التوازن في الحياة، والقسط بين الناس، كما قرر ذلك القرآن الكريم، ولكن أتباعها سرعان ما حرفوها وبدلوا كلمات الله، ففقدت بذلك وظيفتها في الحياة، حين فقدت ميزتها الأولى وهي: ربانية المصدر.

لهذا، لم تقدم الأديان السابقة قبل الإسلام حلا لهذه المشكلة، فقد كان اليهود الذين تفرقوا في الأرض يؤيدون الفردية، بتفكيرهم وسلوكهم القائم على الأنانية:﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾ (النساء: ١٦١) كما سجل عليهم القرآن العزيز.

وجاءت المسيحية أيضا تهتم بنجاة الفرد قبل كل شيء، تاركة شأن المجتمع لقيصر، أو على الأقل، هذا ما يفهم من ظاهر ما يحكيه الإنجيل عن المسيح، حين قال: أعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله([2])!!

وقد سَلِمَ الفكر الإسلامي من الانحرافات التي صاحبت الفكر البشري، وهذه الأمة الوسط كانت تمثل التحدي الأكبر للنظام العالمي السائد يوم ذاك. إذ كان النظام العالمي قائم على الاستبداد وقهر الشعوب، فجاء الإسلام ليعدل ميزان الحياة، فأعاد للمظلومين حقوقهم، معتمداً بذلك على نهجٍ وسطي بين الفرد والدولة([3]).

وبهذا كله، نعلم كيف أقام الإسلام بالتشريع والتربية الموازين القسط بين الفرد والمجتمع، أو بين الفردية والجماعية في حياة الإنسان، كما نتبين أن نظام الإسلام لا يعد في المذاهب الفردية، كما لا يحسب في المذاهب الجماعية، ذلك لأنه أخذ من كل منهما خير ما فيه، كما تنزه عن شر ما

[1] انظر: مدخل لمعرفة الإسلام، ص٤٥.

[2] انظر: الإسلام في مواجهة الفكر الغربي، ص٩٩-١٠٠.

[3] المرجع السابق، ص٩٨.

فيه، فقد اعترف بالفرد وبالمجتمع، وقرر لكل منهما حقوقه بالعدل، وألزمه واجبات تقابلها بالمعروف. وهذه هي الوسطية، وإن شئت قلت: هو التوازن الذي اختص به هذا الإسلام([1]).

"وقد كان هناك إجماع بين المستشرقين على أن العالم الإسلامي يعيش أزمة عميقة، حضارية وحياتية وثقافية، هذه الأزمة فتحت الطريق أمام المد الإسلامي الوسطي، وساعدت على تعاظمه، باعتبار الإسلام الوسطي بديل للأمة عن كل الأفكار والمعتقدات الأخرى، لأنه منسجم مع هوية الأمة وتاريخها وثقافتها، وذلك بعد فشل النموذج الغربي العلماني بشقيه: الرأسمالي والاشتراكي، في تحقيق مقومات النهوض للعرب والمسلمين، وفشل أنظمة الحكم التي حكمت بعد الاستعمار في حل الأزمات السياسية والاقتصادية والثقافية"([2]).

المطلب الرابع: شمول الإسلام.

الإسلام الذي شرعه الله لم يدع جانباً من جوانب الحياة إلا وضع فيه التوجيهات المثالية، فهو بطبيعته شامل لكل نواحي الحياة، مادية وروحية، فردية واجتماعية، "حتى إن أطول آية في كتاب الله أنزلت في شأن من شؤون الدنيا هو كتابة الديون"([3]).

ودين الإسلام الذي بعث الله به محمد ﷺ هو دين لجميع الناس في الأرض إلى قيام الساعة وانتهاء الحياة الدنيا، فهو رسالة للعالم كله، وليس خاصاً بالعرب مثلاً، ولا بجنسٍ دون آخر، بل هو للعرب والعجم، والبيض والسود، والأحرار والعبيد. فعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: "أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة وأعطيت الشفاعة"([4])

فدين الإسلام ليس فيه شعب مختار، أو تميز بسبب الجنس أو اللون، وهذا ربنا يقرر هذه الميزة مخاطباً نبيه ﷺ بقوله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾(الأعراف: ١٥) أي بعث الله عزوجل محمدا ﷺ إلى الأحمر والأسود، والأحاديث الصحيحة الكثيرة في هذا المعنى مشهورة([5]). ويقول عز

---

[1] انظر: مدخل لمعرفة الإسلام، ص٤٨.

[2] الصحوة الإسلامية في عيون غربية، محمد عمارة، ص٢١، الطبعة الأولى، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٧م.

[3] شمول الإسلام.. نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام، يوسف القرضاوي، ص٥، الطبعة الثالثة، مكتبة وهبة، جمهورية مصر العربية، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

[4] صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب: باب قول النبي: جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، حديث رقم: ٤٣٨.

[5] انظر: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني، جـ٢، ص٣٧٠.

وجل ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ أي وما أرسلناك إلا للناس كافة أي عامة([1]). (سبأ: ٢٨) ويقول عز وجل ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ (الفرقان: ١) "والمراد بالعالمين جميع العالمين الإنس والجن ممن عاصره ﷺ وجاء من بعده إلى يوم القيامة"([2]).

"فالإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعا، فهو عقيدة وعبادة، دولة ووطن، أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوة، أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون، أو علمٌ وقضاء، وهو مادة وثروة، أو كسب وغناء، وهو جهادٌ ودعوة، أو جيشٌ وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواءً بسواء"([3]).

ولهذا تناولت الأحكام التشريعية في الإسلام كافة مناحي الحياة، فالصلاة والصيام والزكاة والحج في الأمور التعبدية، والقصاص في القوانين الجنائية مثلا([4]) وكذلك الحدود والتعزيرات والعقوبات.

"وإن رؤية الصورة الكلية للإسلام وبيان معنى شمول الإسلام هو من الضروريات والواجبات وليس من التحسينيات، فالإسلام بناء متكامل الأركان، يبدأ بالعقيدة الإسلامية، والتي تقوم على التوحيد الخالص لله عز وجل – ربوبيةً وألوهيةً وأسماءً وصفات – ومن هذه الوحدانية المطلقة التي يؤمن بها الإنسان المسلم، ينطلق المسلم واثقاً مطمئناً لعبادة رب يستحق العبادة، ومن ثم تأتي الخطوات الأخرى، فتأتي أحكام المعاملات الداخلية والخارجية، الداخلية كالزواج والطلاق والحدود، لتحمي المجتمع من المشاكل الداخلية، والخارجية كالجهاد لحماية المسلمين من الأخطار الخارجية"([5]).

ولهذا يعج القرآن الكريم بالكثير من النصوص التشريعية في مجالات الحياة المختلفة. ففي القصاص يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ

---

[1] انظر: الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله، تحقيق: هشام سمير البخاري ، جـ١٤، ص٢٦٤، ، الطبعة الأولى، دار عالم الكتب، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

[2] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود ابن عبدالله الحسيني الألوسي، جـ١٤، ص٢٩، الطبعة الثانية، دار إحيار التراث العربي، جمهورية مصر العربية، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

[3] مجموعة الرسائل، حسن البنا، ص٣، الطبعة العاشرة، دار الدعوة، جمهورية مصر العربية، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

[4] انظر: الدولة في الإسلام، خالد محمد خالد، ص٢٤، الطبعة الأولى، دار ثابت للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

[5] الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل، علي بن نايف الشحود، ج٦، ص١٥٠، الطبعة الأولى، دار الجيل، الرياض، ٢٠٠٠هـ.

وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ ﴾ (البقرة: ١٧٨) وفي الوصية([1]) ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ (البقرة: ١٨٠) وفي الميراث([2]) فقد أفرد صدر سورة النساء وآخرها في بيان أحكام المواريث بدقة متناهية لم يسبق إليه قانون بشري، وقد كان منها: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ﴾ (النساء: ١١) وفي المهر: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾ ﴾ (النساء: ٤) وفي العلاقة بين اليتيم والولي: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴿٢﴾ ﴾، وفي التجارة: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ ﴾ (البقرة: ٢٧٥) وفي المعاهدات السياسية: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (الأنفال: ٥٨). وغير هذه الآيات، وإنما اكتفينا بذكر الآيات السابقة على سبيل المثال لا الحصر.

ولأن الشريعة الإسلامية شاملة، فإنها حاكمة على جميع أفعال المكلفين، فلا يخلو فعل ولا واقعة من الوقائع إلا ولها فيها حكم من الأحكام الشرعية الخمسة. كما قرر ذلك الأصوليون والفقهاء من كل الطوائف والمذاهب المنتسبة إلى الملة([3]). "ولأن الله عزوجل هو خالق الإنسان فهو وحده مَن يعلم بالذي يصلحه"([4]). ولهذا جاء الإسلام شاملاً لجميع مناحي الحياة.

---

[1] انظر: مدخل لدراسة الإسلام، ص١٤٢.

[2] المرجع السابق، ص١٤٢.

[3] شمول الإسلام للقرضاوي، ص٤٤.

[4] الإسلام ومشكلات الحضارة، سيد قطب، ص٣٨، الطبعة السابعة، دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

وقد دل على هذا الشمول القرآن والسنة، فقد قال تعالى مخاطباً رسوله عليه السلام: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ (النحل: ٨٩) "أي ما تركنا في القرآن من شيء من أمر الدين إما تفصيلا أو إجمالا"([1]) وبيناه بياناً تاماً لكل ما يحتاجه الإنسان ، "وكلمة "شيء" تُسمّى جنس الأجناس. أي : كل ما يُسمّى "شيء " فبيانُه في كتاب الله تعالى"([2]).

وقد ثبت أن النبي ﷺ ما ترك شيئا يقربنا من الله عزوجل إلا وأمرنا به، ولا ترك أمراً يبعدنا عن الله إلا ونهانا عنه، حتى تركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

"والفكر الإسلامي عندما يتصف بالشمول، فإن هذا يعني أنه ينظر إلى السياسة مثلاً كجزء من كل متكامل، تتفاعل فيه الأجزاء فتؤثر وتتأثر، لأن السياسة ومفاهيمها إنما تتأثر سلباً وإيجاباً بالأوضاع الدينية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية، كما أن التشريع السياسي الذي وُجد في القرآن الكريم لم يكن منفصلاً ولا متمايزاً عن التشريع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وهكذا يختلف التشريع الإسلامي عن أي فكر يفصل بين النواحي المختلفة"([3]).

"فالفكر الإسلامي يؤمن بتكامل وحداته وعناصره المختلفة، والتقائها على الهدف الأساس للفكر، وهو بناء شخصية الفرد وبناء المجتمع، وأبرز مميزات التكامل في الفكر الإسلامي هو التوازن بين تيارات الوحدات المختلفة واتجاهاتها، بحيث يحميها من التعارض والتضارب أو التخلف، ومرجع ذلك أن الفكر الإسلامي يقوم على الشمولية، فيجمع بين الدين والدنيا، والعقل والقلب، والعلم والدين والروح والمادة"([4]).

والخوف الغربي المعاصر من الإسلام متمثل في القدرة الذاتية للإسلام والكامنة بقدرته على الإجابة على أسئلة الحياة المتعاقبة، حتى وإن بدا واقع المسلمين اليوم بصورة غير لائقة، وهذا ما يعترف به ويخاف منه في آنٍ واحد مفكرو الغرب، "ففي حين أن الأيدلوجية الإسلامية قد فشلت في أفغانستان وإيران والسودان في خلق دولة حديثة تستطيع أن تملك ولاء شعبها، وتخدم لتكون نموذجاً للأمم الإسلامية الأخرى، فإن الدين الإسلامي لم يفشل"([5]).

---

[1] فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، جـ٢، ص١٦٤.

[2] تفسير الشعراوي، جـ١، ص٥٠٠٥.

[3] الفكر العربي الإسلامي، جهاد تقي صادق، ص٣٢، الطبعة الأولى، دار الرشيد، بغداد–العراق، ١٩٩٧م.

[4] الإسلام في مواجهة الفكر الغربي للراوي، ص١٤٩.

[5] موت الغرب، أثر الشيخوخة والسكان وموتهم وغزوات المهاجرين على الغرب، باتريك جيه. بوكانن، ترجمة: محمد محمود التوبة، ص٢٢٣، الطبعة الأولى، مكتبة العبيكان، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٥هـ–٢٠٠٥م.

إن الحضارة المعاصرة تجد نفسها في موقفٍ صعب لأنها لا تلائمنا، لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ أنها تولدَّت من خيالات الاكتشافات العلمية وخيالات الناس وأوهامهم، ونظرياتهم ورغباتهم([1]).

وإذا كانت البشرية ظلت مأسورة في العقدين الأخيرين لنظريتين بشريتين هما النظرية الرأسمالية والنظرية الاشتراكية، فإن خلاصها من غير الممكن أن يأتي من طريقٍ أو من مصدرٍ سوى الإسلام، لأن أيا من النظرتين لم تفلح في التعامل مع الإنسان كما ينبغي، فكلاهما تعاملت معه من نظرة قاصرة لا تتصف بالشمول إطلاقاً، هي النظرة الاقتصادية، وأهملت الجوانب الأخرى، الروحية والاجتماعية والنفسية، لقد ارتكب المجتمع العصري غلطة جسيمة في الجانب الاجتماعي مثلا، وذلك باستبداله تدريب الأسرة بتدريب المدرسة استبدالاً تاما، ولهذا تترك الأمهات أطفالهن لدور الحضانة حتى يستطعن الانصراف إلى أعمالهن أو مطامعهن الاجتماعية، أو هواياتهن الأدبية والفنية، أو ارتياد دور السينما، وهكذا يضيعنَّ أوقاتهن في الكسل، إنهن مسئولات عن اختفاء وحدة الأسرة واجتماعاتها التي يتصل الطفل فيها بالكبار، فيتعلم منهم أموراً كثيرة([2]).

شمول الإسلام يمنح المسلم ارتياحاً وطمأنينةً لا يجدها المواطن الغربي، لأن المواطن الغربي إذا أراد أن يبحث عن حلول لمشاكله الاقتصادية، فإنه سيتوه بين اشتراكية كارل ماركس ورأسمالية آدم سميث، وإذا بحث عن حلولٍ لمشاكله الاجتماعية فإنه سيجد نفسه نهباً لجملة من القوانين والتشريعات الاجتماعية التي قد تنجح في أي شيء إلا في تكوين أسرة ينتمي أفرادها إلى بعضهم البعض، أما على الصعيد النفسي والروحي فإن إحساس المواطن الغربي بالعزلة والوحدة سيتفاقم بين جنسية فرويد ودونية دارون، بينما المسلم فإنه سيجد الأمان والسلام والاطمئنان بانتمائه لدين لم يترك له سؤالاً إلا ومنحه إجابة عنه، إنه الدين الإلهي الحق([3]).

المطلب الخامس: موافقة الإسلام للفطرة الإنسانية.

الفطرة من فطر الشيء يفطره فطرا فانفطر، أي شقه، وتفطر: تشقق، فالفطر: الشق، وفي التنزيل قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾﴾ (الانفطار: ١) أي انشقت، وفي الحديث: "أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه"([4]). أي تتشقق([5]).

---

[1] انظر: الإسلام ومشكلات الحضارة، ص١١١.

[2] انظر: المرجع السابق، ص١١٥.

[3] انظر: نظام الإسلام، وهبة الزحيلي، ص٣٨١، الطبعة الثانية، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

[4] صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب: إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، حديث رقم ٤٨٣٧.

[5] انظر: لسان العرب، جـ٨، ص٢٠١.

وفطر الله الخلق أي خلقهم، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴿١﴾ ﴾ (فاطر: ١) ففاطر هنا بمعنى خالق السماوات والأرض([1])، وعليه فأصل كلمة فطر يرجع إلى التشقق والابتداء والخلق، "وسميت الفطرة فطرة لأنها ترتبط مع الخلق من بدايته، وهي أمر غير مكتسب بتعلم من الآخرين، وكل عمل يقوم به الإنسان من غير تعلم مكتسب بوسائل اكتساب المعرفة من سمع وبصر وفؤاد وما يتبعها من باقي الحواس هو أمر فطري" ([2]). وكلمة الفطرة هي من الكلمات التي يختلف معناها باختلاف استخدامها فإنها إن جردت تكون بمعنى إدراك الشيء دون الحاجة لتعلمه من الآخرين. قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الروم: ٣٠) "أي الزموا خِلقة اللّه التي خلق الناس عليها ، فقد جعلهم بفطرتهم جانحين للتوحيد وموقنين به"([3]) وعليه فالفطرة هي ما جُبل الإنسان عليه في أصل الخلقة من الأشياء الظاهرة والباطنة، تلك الأشياء التي هي من مُقتضى الإنسانية، والتي يكون الإخلال بها أو مخالفتها خروجًا عن الإنسانية، إما خروجاً كلياً أو خروجاً جزئياً، وهي ما يجبل عليه الإنسان دون تدخل أحد، فإذا تدخل الأهل من أب أو أم لا ينتهي دور الفطرة بل تكون مغروزة في قلب الإنسان ولو أنكرها بما غيره أبواه من تهويد أو تنصير أو من تعليم ما يخالف وحدانية الله ووجوده، ففي الحديث: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء"([4])

إن العقيدة الإسلامية ليست غريبة عن الفطرة السليمة ولا مناقضة لها ، بل هي على وفاق تام وانسجام كامل معها، وليس هذا بالأمر غريباً، إذ إن خالق الإنسان العليم بحاله هو الذي شرع له من الدين ما يناسب فطرته التي خلقه عليها، والواقع شاهد على موافقة الفطرة للعقيدة الإسلامية القائمة على الإخلاص لله وحده ، فما أن يصاب الإنسان بضر تعجز أمامه القوى المادية إلا ويلجأ إلى الله تعالى في تذلل وخضوع ، ويستوي في ذلك الكافر والمؤمن ، بل حتى الطفل الصغير فإنه لو ترك على حاله دون أن يؤثر عليه والداه أو البيئة من حوله لنشأ معتقدا بالله تعالى ربا وإلها لا يعبد سواه.

---

[1] انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير، جـ٥، ص١٠٠.

[2] منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، عثمان بن علي حسن، ص١٨٦، الطبعة الثانية، مكتبة الرشيد، الرياض، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

[3] تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، جـ١، ص٤٦، الطبعة الأولى، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، مصر، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

[4] صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الحلق والجلوس في المسجد، حديث رقم ١٣٨٥.

"وموافقة الشريعة الإسلامية للفطرة الإنسانية من أهم مميزاتها، وهي تستمد هذه الخاصية من الرسالة نفسها، فالإسلام دين الفطرة، وهذا لا يعني أن غيره من الشرائع التي أنزلها الله لم يكن موافقًا الفطرة، لكنها كانت شرائع محدودة ومحصورة في الزمان والمكان؛ ولذلك جاءت موافقتها للفطرة محدودة في موافقتها لفطرة أهلها في زمانهم ومكانهم وحسب، غير أنها حُرفت وبدلت.

لكن رسالة الإسلام الخالدة التي ارتضاها الله لخلقه حتى قيام الساعة، ولذلك جاءت شريعته إعجازية في موافقتها للفطرة، في تناسب وتناغم الفطرة على امتداد الزمان والمكان وتنوع الأشخاص والأحوال"([1]).

فالله تعالى هو خالق الفطرة البشرية، العليم بما يصلحها وما يصلح لها، وهو منزل هذا الدين، نزله على علم﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الروم: ٣٠) وكلما مر الزمن، وتقلبت البشرية في النظم الجاهلية بعيدًا عن منهج الله فأصابتها الاضطرابات والانحرافات، تبين مدى احتياجها الشديد لهذه الشريعة الربانية الخالصة.

"لقد خلق الله في الفطرة الإنسانية مجموعة من الدوافع تعين الإنسان على القيام بأمر الله في هذه الحياة وتضمن سلام القطيع الإنساني كله، كدافع الطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس والتملك وإثبات الذات، ومع أهمية هذه الدوافع وضروريتها، لكنها تصبح محل خطورة إذا تركت بلا ضابط يضبطها أو قاعدة سوية تحكمها وتنظمها"([2]).

والإسلام هو الشريعة الوحيدة الباقية والتي تراعي الجانب الفطري في الإنسان، ويتجلى ذلك في أمور عدة:

أولاً: الجانب التعبدي

فالإسلام جاء ملبياً لفطرة الإنسان المتعلقة بالجانب الروحي، فهو يقف كحد فاصل بين اليهودية التي تركز على الجانب المادي وتهمل الجانب الروحي، وبين الرهبانية النصرانية التي تركز على الجانب الروحي وتهمل الجانب المادي.

"ففي الشريعة اليهودية تتجلى النزعة المادية بوضوح، فلا تكاد تجد للجانب الروحي أثراً، ولا تسمع للوازع الديني ذكرا، ولا تقرأ كثيراً ولا قليلاً عن يوم القيامة واليوم الآخر والجنة والنار،

---

[1] الإسلام ومشكلات الحضارة، ص٧٥.

[2] المرجع السابق، ص٧٦.

فهذه في أسفار التوراة غير واردة"([1]). وهذا ما يبدو أثره في اليهود واضحاً وجلياً، إذ يغلب على اليهود الجشع والطمع والنظرة المادية للأشياء.

"ولا يوجد في التوراة ما يوجد في القرآن بكثرة من التعليلات الأخلاقية للتشريع الآمر الناهي، مثل قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾ (البقرة: ٢٣٢) ولا توجد الأجزية الأخروية والروحية المبثوثة في القرآن"([2]) مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾ ﴾ (الطلاق: ٥) وقوله تعالى: ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ (الأحزاب: ٧١)". ولا يبدو هذا غريباً، لأن اليهود قومٌ يغلب عليهم الجانب المادي للأشياء، فهم لا يلتفون إلى الجوانب المعنوية أو الروحية، إلا بالقدر الذي يستفيدون منه وتتحقق فيه مصالحهم.

"أما النصارى فقد غلو في دينهم فابتدعوا الرهبانية، وهي: التّبتّل والتّعبدّ، ولزوم الصّوامع، وعدم الخروج منها، رهبانية ابتدعوها"، كما قال الله تعالى: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الحديد: ٢٧) فالنصرانية تعلم الناس أن يغفلوا عن غاية وجودهم، أو تصور لهم غاية وجودهم في الحياة بصورة غير صحيحة، فتضل أعمالهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، فتصور هذه الغاية على غير حقيقتها، فتأمرهم بالاعتقاد بتفاهة الحياة الدنيا إلى درجة إسقاط القيمة التي جعلها الله لها، والغلو في تهذيب النفس البشرية إلى حد التضييق والتعذيب، مع صرف النظر عن عمارة الكون التي هي جزء من الغاية العظمى".([3]) وهذا ما أدى إلى ظهور العلمانية في الغرب، إذ وجد أصحاب العقول النيرة من الغربيين، أن الكنيسة تكبح جماح ابداعاتهم، وأنها عاملٌ مقيدٌ للقدرات الكامنة في نفوس الجماهير.

"وما الرهبانية التي عرفها الناس منذ القدم إلا تطبيق عملي للتصور السلبي الخاطئ الذي نشأ عن الجهل بطبيعة الإنسان ومهمته في الوجود، ومع أن الرهبانية بدعة بشرية مشتركة بين أديان عديدة، نلاحظ أن للرهبانية النصرانية ظروفاً وأسباباً بارزة تضافرت على إيجادها

---

[1] مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، ص١٢.

[2] المرجع السابق، ص١٣.

[3] إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، جـ٢، ص٢٦٤، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

وتنميتها، حتى أصبحت أبرز مظاهر الدين الكنسي على مر العصور، ولم تكن الرهبانية والنظام الديني السلبي هذا إلا مصادمة للفطرة"([1]).

ثانياً: النظم الاجتماعية

الله خالق الإنسان وهو أعلم بالتالي بالذي يصلحه، وكم تعبت البشرية وهي تبحث عن الترياق لمشاكلها الاجتماعية، فكم ضلت وأضلت.

فبين الرأسمالية التي تعظم الفرد على حساب الجماعة، وبين الاشتراكية التي تلغي الفرد لصالح الجماعة، جاء الإسلام من قبل متوافقاً مع فطرة الإنسان، مهتماً بالفرد جاعلاً إياه أهم من الكعبة المشرفة، ففي الحديث: "لهدم الكعبة حجراً حجراً أهون عند الله من سفك دمٍ امرءٍ مسلم"([2]) لكن دون إهمال لأهمية الجماعة إطلاقا، فهذا الفرد له الذي له وعليه الذي عليه، فكينونته جزء من كينونة مجتمع قائم عليه وعلى سواه من أفراد المجتمع، ومن أجل الجماعة على الفرد أن يتصدق وأن يقاتل وأن يصل الأرحام، وأن يؤدي كل حق عليه ويخدم الجماعة.

والنظريتان الاشتراكية والرأسمالية كلاهما جاءتا متعارضتان مع الفطرة الإنسانية، ذلك أنهما لم ينظرا إلا لجانب واحد من جوانب الإنسان هو الجانب الاقتصادي فقط، وليتهما أصابا في نظرتهما لهذا الجانب.

"لقد أكدت إحصائية أن ثمانية [3]في المائة من مرضى المدن الأمريكية الكبرى يعانون أمراضا ناتجة عن الأعصاب، من ناحية أو أخرى، ويقول علماء النفس الحديث أن من أهم جذور هذه الأمراض النفسية: الكراهية والحقد والجريمة والخوف والإرهاق واليأس والترقب والشك والأثرة والانزعاج من البيئة، وكل هذه الأعراض تتعلق مباشرةً بالحياة المحرومة من الإيمان بالله"([4]).

لأن الإيمان بالله يمنح الإنسان يقينا جبارا حتى يستطيع مواجهة أعتى المشكلات والصعاب، فهو يجاهد في سبيل هدفٍ سامٍ أعلى، ويغض بصره عن الأهداف الدنيئة القذرة.

"إن الإيمان بالله يعطي الإنسان محركاً هو أساس كل الأخلاق الطيبة ومصدر قوة العقيدة، العقيدة التي عبر عنها السير وليام أوسلار بقوله: "إنها قوة محركة عظيمة لا تُوزَن بأي ميزان،

---

[1] ماذا خسر العالم من انحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، ص١٥٤، الطبعة السابعة، مكتبة الإيمان، المنصورة، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

[2] سنن النسائي، كتاب الكفارات، باب: التغليظ في قتل المسلم ظلما، حديث رقم:٢٦١٩(صححه الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم ١٠٥٥)

[3] كانت الإحصائية في العام ١٩٩٨م. (حاشية كتاب حفارو القبور، ص١٣)

[4] حفارو القبور: الحضارة التي تحفر للإنسانية قبرها، روجيه غارودي، ص١٣.

ولا يمكن تجربتها في المعامل([1]). وهذا ما يفتقده الغرب، فيدفع ثمنه تلقائياً عبر هذه الأمراض الاجتماعية التي تعصفه به.

"حين تكون آصرة التجمع الأساسية في المجتمع هي العقيدة والتصور والفكرة ومنهج الحياة، يكون هذا كله صادراً من إلهٍ واحد تتمثل فيه السيادة العليا للبشر، وليس صادراً من أرباب أرضية تتمثل فيها عبودية البشر للبشر، يكون ذلك التجمع ممثلاً لأعلى ما في الإنسان من خصائص: الروح والفكر، فأما حين تكون آصرة التجمع في المجتمع هي الجنس واللون والقوم والأرض...، وما إلى ذلك من روابط، فظاهر أن الجنس واللون والقوم والأرض لا تمثل الخصائص العليا للإنسان، فالإنسان يبقى إنساناً بعد الجنس وللون والقوم والأرض، ولكنه لا يبقى إنساناً بعد الروح والفكر"([2]).

الإسلام يملك أو يحل لنا مشكلاتنا الأساسية، ويمنحنا عدالة اجتماعية شاملة، ويردنا إلى عدل في الحكم، وعدل في المال، وعدل في الفرص وعدل في الجزاء، وعليه فهو الأقدر على حل مشاكل البشرية، وهو أقدر على العمل في بلادنا من كل مذهب آخر من باب أولى، أقدر من أي مبدأ نحاول استعارته، عن طريق التقليد أو عن طريق المشاركة في الحضارة الإنسانية بالاستجداء([3]).

---

[1] انظر: الإسلام يتحدى، ص٢٥٦.

[2] معالم في الطريق، سيد قطب، ص١٠٨، الطبعة الأولى، دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٠م.

[3] انظر: معركة الإسلام والرأسمالية، سيد قطب، ص٣٧، الطبعة الأولى، دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٩م.

المبحث الثاني:الأسباب والدوافع الغربية للخوف من الإسلام (قديماً وحديثاً).

الخوف الغربي من الإسلام ليس وليد اللحظة، إذ إن التاريخ يشهد أن العلاقة ما بين الإسلام والغرب غالباً ما شابها التوتر والصراع، فمنذ اللحظة الأولى التي بزغ فيها نور الإسلام في شبه الجزيرة العربية، نظرت الدولة الرومانية إلى الإسلام نظرة ملؤها الريبة والشك.

وفي الحقبة النبوية كانت هناك معركتا مؤتة وتبوك، ومن ثم جاءت حقبة الخلفاء الراشدين المهديين التي تُوِجت بمعركة اليرموك كمعركة فاصلة انتصر فيها المسلمون.

ومن ثم توالت العلاقة محافظة على نسقها التوتري، فكانت الحروب الصليبية، ومن ثم الاستعمار الغربي المعاصر لبلاد المسلمين، بما سبق تلك الحقبة من مستشرقين غالباً ما جاءت كتاباتهم متجنية على الفكر الإسلامي وعلى المسلمين من باب أولى.

ولما غادر المستعمر بلاد المسلمين، استعاض عن تواجده بجملة من الأنظمة الحاكمة، التي حرص أيما حرص في أن تكون بعيدة عن الجوهر الحقيقي للإسلام، فبعد خروج المستعمر الغربي، حُكِم المسلمون ولأول مرة في تاريخهم بحكام تقول بطاقاتهم الشخصية أنهم مسلمون، وبرهنت أفعالهم وأحكامهم على بعد الشقة بينهم وبين الإسلام وثقافة المسلمين، لأنهم يدينون بالتبعية للغرب.

والخوف الغربي من الإسلام له مسبباته، سواء كانت هذه الأسباب نابعة من ذاتية الإسلام، كما تناولناها في المبحث السابق، أو كانت هذه الأسباب نابعة من منابع أخرى كما سنرى في هذا المبحث.

"لكن تبقى طبيعة النفسية الغربية هي السبب الرئيس لأي علاقة متوترة، لأن الغرب حضارة قامت منذ الأساس على ترسيخ عقيدة الخوف من أي آخر يحاول تقويض بنيانها، وبهذه العقيدة وتدعيمها عاشت الحضارة الغربية في كل مراحل تواجدها، إذ كانت الحضارة الغربية دائماً تحاول إقناع أفرادها أن هناك خطر خارجي يحاول استئصالهم، ففي القديم كانت الحضارة الفارسية سبباً لاستثارة الدوافع القومية لدى أفراد الدولة الرومانية، واستمرت الحضارة الغربية في ذلك حتى لاح في الأفق طيف للدولة الإسلامية"([١]).

"ولأنه وعبر التاريخ كان اتساع رقعة العالم الإسلامي يتم على حساب التشكيل الحضاري الغربي المسيحي، والعكس صحيح، فقد ساهم ذلك في تأجيج الصراع بين الغرب والإسلام، فمنذ

[١] العالم الإسلامي اليوم خارطة القضايا والأوضاع، عبد الملك منصور، ص٤٤، الطبعة الأولى، مؤسسة المنصور الثقافية، مصر، ٢٠٠٠م.

بداية التوسع الإسلامي الذي لم يقتصر على الجزيرة العربية بل شمل بلاد أخرى أيضا، فقدت المسيحية حقا كل نفوذ لها في الشرق ولم تقم لها قائمة بعد ذلك"([١]).

ومشكلة الغرب كانت دائماً تكمن في تمركزه حول ذاته، وجعل من نفسه مرجعية نهائية ومعياراً يحكم به على كل الظواهر والحضارات، ونظره إلى العالم لا باعتباره كيانات مستقلة لكل منها طموحاته المشروعة وأهدافه المختلفة، وإنما باعتباره مادة استعمالية من حقه أن يوظفها لحسابه باعتباره الأقوى. وهذا هو جوهر الرؤية الاستهلاكية الإمبريالية.

"ولا يقبل الاستعمار الغربي بطبيعة الحال قيام تكتلات عربية أو إسلامية تتصدى لمحاولته نهب ثروات الشعوب، ولهذا فهو يصر على تفتيتها وتجزئتها، وعلى سحق أي قوى مقاومة، وفي هذا السياق يمكن فهم العداء الغربي للإسلام فقد بدأت حركة مقاومة الاستعمار تحت ألوية القومية العربية، فتصدى لها الاستعمار بكل ضراوة"([٢]).

ومع انتهاء الحرب الباردة[٣] ومع تراجع القومية العربية ومع تزايد النضج السياسي للحركات الإسلامية ودخولها معترك الحياة السياسية، بدأت هذه الحركات في قيادة المقاومة للاستعمار الغربي، وهنا بدأ يظهر العداء الغربي للإسلام، وبدأ الحديث عن الإرهاب الإسلامي وضرورة إصلاح الخطاب الديني الإسلامي، ومما له دلالته على أن العالم الغربي الذي يحارب الإسلام.

حتى جاءت تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر لتؤجج حالة الخوف لدى الغرب من المسلمين، هذه التفجيرات التي تبنتها تنظيم القاعدة، لتصب في تيار تصعيد المخاوف من الإسلام، ولتعطي لأعدائه المزيد من المبررات لمحاربته وتضييق الخناق عليه، بحجة مسؤوليته المباشرة عن توليد الإرهاب والإرهابيين.

ويمكن إبراز الأسباب والدوافع الغربية للخوف من الإسلام قديماً وحديثاً في المطالب التالية:

---

[١] التبشير في منطقة الخليج العربي، ص١٦.

[٢] محاضرات في الاستعمار، مصطفى الشهابي، ص٣٣، الطبعة الثانية، معهد الدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٥م

[٣] الحرب الباردة: هي الحرب الأيدلوجية الاقتصادية المعلوماتية التنافسية التي شهدها القرن العشرين بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، وسُميت بالباردة لأنها لم تتخذ الوجهة العسكرية بصورة مباشرة.(انظر: المصور في التاريخ، شفيق جحا، منير البعلبكي، بهيج عثمان، جـ١، ص١٠٥، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة التاسعة، ١٩٩٩م جـ١، ص٢٣١)

المطلب الأول: الإرث التاريخي من القرون الوسطى والحروب الصليبية.

سُمِيت الحروب التي قام بها نصارى أوروبا ضد المسلمين بالحروب الصليبية لأنها قامت باسم الدين النصراني، "كما أن الكنيسة بزعمائها وقادتها ورجالها هم الذين دعوا إلى هذه الحروب، وهم الذين أمدوها بتأييدهم المادي والمعنوي، وقد اتخذ المشتركون فيها الصليب شعاراً لهم، وكانوا يقدمهم الرهبان، وملوك فرنسا والنمسا وإيطاليا وغيرهم"([1]).

والواقع أن المجازر التي ارتكبها الصليبيون في المدن الإسلامية خلال تلك الحملات، تعكس درجة متقدمة من الحقد والرغبة في الانتقام، وكأن في الانتقام الدموي البشع من المسلمين ضرباً من ضروب التعويض عن الخوف المزمن منهم ومن دينهم، فقد روي عن أحد شهود العيان من الرهبان المسيحيين الذين شهدوا احتلال الصليبيين لمدينة القدس سنة ٤٩٢ هـ قوله: "كان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل، وذلك كاللبؤات التي خطفت صغارها! كانوا يذبحون الأولاد والشباب، ويقطعونهم إرباً إرباً، وكانوا يشنقون أناساً كثيرين بحبل واحد بغية السرعة، وكان قومنا يقبضون كل شيء يجدونه فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعاً ذهبية !!! فيا للشره وحب الذهب، وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث"([2]).

دوافع الحروب الصليبية

تتعدد الأقوال حول الدوافع الحقيقية للحروب الصليبية، "فالذين درسوا الحروب الصليبية خرجوا بجملة من الأسباب والدوافع لهذه الحروب، منها الدوافع الاقتصادية والتجارية والسياسية، لكن المتعمق في دراسة هذه الحروب يكتشف بسهولة ويسر أن هذه الحروب جاءت وفق الدافع الديني بالأساس، إذ أنها جاءت بقرار ديني، ويمكن القول أن هذه الحروب كانت أول تجربة استعمارية خاضتها أوروبا خارج حدودها، حيث أسقط الغرب الأوروبي ضعفه على الشرق العربي الإسلامي، وحاول إيجاد حل لمشاكله المتفاقمة دينياً واجتماعياً واقتصادياً"([3]).

ويمكن القول أن الدافع الديني هو الدافع الأول لهذه الحروب والدليل:

---

[1] جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، فايد حماد عاشور، ص٧٧، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

[2] حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، ص٣٢٥، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة: ٢٠٠٠م.

[3] التنصير:مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته، علي بن إبراهيم الحمد النملة، ص، الطبعة الثالثة، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

- "ذكر المؤرخون أن البابا سلفستر الثاني هو أول من دعا إلى هذه الحروب ثم تلاه البابا خريغورس، ثم تلاه البابا أربان الثاني، والذي بدأت في عهده الجيوش النصرانية التحرك إلى بلاد المسلمين.
- قيام البابا بالتنقل بين المدن والبلدات المسيحية داعياً حكامها وشعوبها لهذه الحروب، وإرساله للمبعوثين والرسل إلى مختلف الأقاليم المسيحية للدعوة للمشاركة في هذه الحروب.
- أناب البابا أربان الثاني عنه الأسقف أدهمار كي يشجع المتطوعين للحرب، ولكي تكون الكنيسة هي المسيطرة على الروح الصليبية لدى المقاتلين.
- إن البابا نفسه هو الذي اختار مدينة القسطنطينية لتكون مكان تجمع الجيوش النصرانية"([1]).
- لقد صرح البابا أوربان الثاني الذي فجر الحروب الصليبية بالدافع الديني عندما قال في مجمع كلير مونت في سنة ١٠٩٥: "إن إرادة الرب تحتم على المسيحيين تخليص بيت المقدس من أيدي إمبراطورية الشيطان". وعندها خر الكهنة الحاضرون راكعين تحت قدمي البابا"([2]).
- "ويبين مكانة الدافع الديني للحروب الصليبية حركة الإحياء الديني التي ظهرت في الغرب النصراني في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، حيث ترتب على هذه الحركة عودة البابوية والكنيسة إلى سطوتها القديمة، وإثارة الحماس الديني في نفوس الغربيين، وقد ظهر شعور قوي لدى النصارى الغربيين بضرورة إنقاذ الأرض المقدسة من أيدي المسلمين، كما ترتب على هذه الحركة الازدياد الملحوظ في عدد قوافل الحجاج النصارى المتجهين إلى الشرق"([3]).
- من الدلائل على دينية هذه الحروب، أن الكنيسة كانت في ذلك التوقيت هي المسيطرة على الحياة الأوروبية الغربية، لدرجة أنه لا يمكن لأحد أن يخالف التعاليم الكنسية([4]).

أهداف الحروب الصليبية

- التنصير القسري، أو تمهيد الطريق لدعاوى التبشير([5]).

---

[1] واقعنا المعاصر والغزو الفكري، صالح الرقب، ص٢٠، الطبعة الجديدة، الدار العالمية للتجليد، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

[2] المفصل في أحكام الهجرة، علي بن نايف الشحود، جـ٤، ص٣٣١، الطبعة الأولى، الدار مجهولة.

[3] واقعنا المعاصر والغزو الفكري، ص٢١.

[4] انظر: المرجع السابق، ص٢٢.

[5] انظر: التنصير :مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته، ص ٤٢.

- "استعمار بلاد المسلمين، وإقامة كيان صليبي يكون له ارتباطه العضوي بالكنيسة المسيطرة على المجتمع الغربي الأوروبي"([١]).
- "إذلال المسلمين بغزوهم في عقر دارهم"([٢]).
- "تقسيم العالم الإسلامي إلى ولايات ضعيفة، وإبقاء التبعية الثقافية والسياسية للمستعمر الغربي، وهذا هو حال المسلمين اليوم"([٣]).
- "التشكيك في العقائد الإسلامية، وتشجيع العقائد والأفكار اللادينية، ومن ثم القضاء على الإسلام وأهله"([٤])، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (التوبة: ٣٢)﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾ (البقرة: ٢١٧)﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (البقرة: ١٠٩)

آثار الحروب الصليبية

إن حالة الاشتباك بين الغرب والإسلام لم تتوقف منذ الحروب الصليبية حتى الآن، وقد شهدت هذه الحالة لحظات انتصار وهزائم مريرة لكلا الجانبين، ونتج عن ذلك مجموعة من الآثار يمكن إجمالها في التالي:

١ - أنتجت هذه الحالة مخزوناً تاريخياً يصعب تجاوزه، "ولابد من التسليم بأنه سيظل ينتج تناقضات حادة، وحالة عداء مستمر بين الغرب والمسلمين، فلاشك أن هناك الكثير من الدماء قد سالت، ثم إن الغرب يدرك مصادر القوة في الإسلام، وأن الإسلام قد صنع وحدة الأمة الأولى ونهضتها، وأقام حضارة شامخة، وأنه قادر على أن يصنع وحدة

---

[١] التبشير الصليبي والغزو الاستعماري، عبد الفتاح احمد ابو زايدة، ص١٥٥، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

[٢] واقعنا المعاصر والغزو الفكري، ص٢٢.

[٣] المرجع السابق، ص٢٣.

[٤] المرجع السابق، ص٢٣.

الأمـة مـرة أخـرى، وأن يقـود خطاهـا إلـى صـنـع مرحلـة تاريخيـة جديـدة مـن الحضـارة والتقدم"([1]).

٢ -كان للحروب الصليبية أثر كبير في صياغة العقلية الغربية المعاصرة، فالأمم والشعوب لا تنسى تاريخها أبداً، ولأن الغرب دفع ثمناً غالياً في الحروب الصليبية، لذا فإن هذه الحروب ظلت ساكنة في وعي الأجيال الغربية، وحملت الذاكرة الغربية حقداً دفيناً ضد الإسلام والمسلمين([2]).

٣ -كان الهدف في الحروب الأولى دينياً في الغالب، أما محاولة العودة للعالم الإسلامي مرة ثانية فقد سيطر عليها طمع مادي في بلدان العالم الإسلامي، "ولقد شجع الأوروبيين على العودة لاحتلال الشرق الإسلامي بعد انتهاء الحروب الصليبية جهات متعددة:

أولها : الكنيسة التي كانت تحلم أن تُكَوِّن من أجل ذلك جيشاً أوروبياً ضخماً يعيد للكنيسة هيبتها، ويعطيها السلطة التي كانت لها على ملوك أوروبا أثناء الحملات الصليبية، ثم أضافت هدفاً آخر وهو العمل على دعوة المسلمين للدخول في النصرانية .

ثانيها: رجال المال والاقتصاد الذين بهرهم الشرق بمصنوعاته وخاماته .

ثالثها :ملوك أوروبا الراغبين في أن يحصلوا لتجارة ممالكهم وتجارها على أسواق رائجة وموانئ إسلامية حافلة ، عن طريق سيطرة السادة الغزاة لا المتحالفين المتعاهدين"([3]).

لقد أدرك المهزومون عسكرياً أن لا جدوى من قتال المسلمين ومواجهتهم مواجهة مباشرة في ساح القتال، وأنه لابد من سبل أخرى لاختراقهم وإضعافهم والانتصار عليهم، وكان لابد من تغيير المنهج والأداء في التعامل مع الإسلام ومعتنقيه، بعد هذا التعرف على مواطن قوته التي تكمن في عقيدته وشريعته.

وهكذا كان، فقد اتجهت أوربا اتجاهين متوازيين يعضد أحدهما الآخر:

الأول: تقوية أوربا عسكرياً واقتصادياً وعلمياً.

والثاني: اختراق العالم الإسلامي وتطويقه ودراسته دراسة قائمة على العلم والمكر والدهاء.

واليوم يعيد الغرب الكرة نفسها، فيحاول أن يثير مخاوف أبنائه من الإسلام، ويبث في نفوسهم أن الإسلام دين انتشر بالسيف، وعليه فلا بد من محاربته بالسيف، والقول بأن الإسلام دين قام على القوة، واستند إلى السيف في نشر مبادئه وتعاليمه، وأنه حمل الناس حملاً عليها، ولولا هذه القوة القاهرة، لما قُدِّر لهذا الدين أن يقوم، ولو قام لما كان له هذا العدد العديد من

---

[1] الحروب الصليبية المتأخرة، سهير محمد إبراهيم نعينع، ص٣٥، الطبعة الأولى، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٢م.

[2] انظر: الحروب الصليبية المتأخرة، ص٣٩.

[3] المرجع السابق، ص٤٠.

الأتباع المؤمنين، هذه هي القضية التي كثيراً ما يتخذ منها ذوو النوايا الخبيثة سبيلاً إلى الطعن على الإسلام والنيل منه، وإظهاره بمظهر النزعات البربرية، التي تهجم على الناس فتسلبهم حرية الرأي، فيما يحملون من قِبَل الغزاة الفاتحين، "والحقيقة أن غاية هذه الدعوة لا تقف عند تشكيك الناس في هذا الدين، وصرفهم عنه، فإنها من هذه الناحية لا تستند إلى المنطق، ولا تقوم على حجة، ولا تقع من العقل موقع الإقناع والاطمئنان، حتى عند أشد الناس عداوةً للإسلام وكيدا له، ذلك لو أنه كان الأمر أمرَ قوة وحدها لما كان لهذه الدعوة وجه تظهر به، وبعد أن قطع من عمر الزمان أربعة عشر قرنا، فإن هذه القوة إن تكن قد أقامته في أيامه الأولى، فإنه يكون من غير المعقول أن تقوم هذه القوة تلك القرون الطويلة إلى جانبه، تسنده وتحول بين الناس وبين الخروج منه، إنهم يقولون أن الإسلام انتصر بالسيف، والحقيقة أن الإسلام انتصر على السيف"([1]).

والتاريخ يثبت أن كثيراً من الدول الإسلامية الكبرى دخل أهلها الإسلام دون قتال.

المطلب الثاني: الصحوة الإسلامية.

إذا كان الغرب قديماً وقف موقف العداء من الإسلام والمسلمين، فقد ورث الغرب الحديث هذا الموقف، وظل محافظاً على روح الخوف والحقد على الإسلام، ويمكن القول أن الروح الغربية المعاصرة اليوم ليست ببعيدة عن الروح الصليبية التي كانت في العصور الوسطى، فالمخاوف هي المخاوف، والأطماع هي الأطماع، ولهذا لا يبدو غريباً أن تحافظ بعض الدول الغربية على ثقافة الهيمنة على الغير، كما يتجلى ذلك في الولايات المتحدة الأمريكية التي تمثل الاستعمار، وتسير في ركابها بريطانيا أيضاً، كما نرى ذلك في موقفها من العراق وحصاره، وضرب شعبه بالطائرات والقذائف والصواريخ، وقتل أطفاله بالتجويع ومنع الغذاء والدواء([2]).

"وقد جهد الغرب جهده، ومكر مكره، واستعان بكل مارق وخائن ممن ينتسب للمسلمين بلسانه، وعقله وقلبه ضد أمته. وكان أكبر همه أن يحول دون انطلاق المد الإسلامي، ويؤجل انبلاج فجر الصحوة الإسلامية، ولكن من الذي يستطيع أن يوقف التاريخ، أو يقاوم الأقدار، أو يحارب القهار، أو يمنع بزوغ النهار"([3]).

لقد تفجرت الصحوة الإسلامية في كل مكان، وكانت صحوة عقول وأفكار، وصحوة قلوب ومشاعر، وإرادة وعزائم، وعمل وسلوك، وغيرة وحماس، ودعوة وجهاد، وتغيير وإصلاح، وتجلى أثرها في الشبان والشابات، وفي الجوامع والجامعات، وفي الثقافة والفكر، وفي ميادين

---

[1] انظر: الاستعمار أحقاد وأطماع، ص١٣٢.

[2] انظر: أعداء الحل الإسلامي، ص٤٧.

[3] المرجع السابق، ص٤٧.

الجهاد وفي الاقتصاد والسياسة، والأسرة والمجتمع، وفرضت نفسها على الساحة كلها، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

أسباب الصحوة الإسلامية

لم تكن الصحوة الإسلامية المعاصرة حدثاً عارضاً منوطاً بصدفةٍ ما، بل تضافرت جملة من العوامل أدت إلى تزايد وانتشار هذه الصحوة منها([1]):

أولاً: طاقات الإسلام الذاتية التي لا تفتأ تمد المسلمين بدوافع التغيير، وتشدد على الحفاظ على الهوية الحضارية بعد أن أعطتها معالمها الشاملة ، بل وتدفع دائما على الحفاظ على التفوق أو استعادته إذا فقد.

ثانياً: اشتداد الحملة الأوربية على العالم الإسلامي بحيث استباح الغرب كل الثروات، واستعمر معظم البلاد، واعتدى على الهوية الثقافية، بل راح يهاجم المكونات العقائدية والأخلاقية، وينشر الرذائل، ويمزق النسيج الاجتماعي من خلال عملائه الحقيقيين أو الثقافيين، ويزرع الكيان الصهيوني الغاصب في قلب العالم الإسلامي.

ولا ريب أن حملة من هذا القبيل سوف تواجه برد فعلٍ قوي من أمة يبقى الإسلام فيها حياً ، رغم عمليات القضاء عليه.

ثالثاً: فشل كل الحلول والأطروحات البديلة للمقاومة والتغيير، لأنها كانت تحمل في داخلها عناصر فشلها. لقد فشلت الأطروحة القومية الضيقة رغم التطبيل والتزمير، ورغم نزولها المبكر إلى الساحة وتحقيقها الكثير من الأهداف الغربية ومسحها الكثير من السمات الإسلامية في تركيا وغيرها. ذلك لأنها لا تنسجم مع الطبيعة الإسلامية التي تتجاوز القوميات.

كما فشلت الاشتراكية لأنها اعتمدت على أسس الحادية رغم تمتعها ببعض الشعارات المنسجمة مع بعض التعاليم الإسلامية كالعدالة الاجتماعية والدفاع عن المحرومين ومعاداة الاستعمار.

وفشل الشكل التركيبي –الاشتراكي القومي– أيضا لأنه أيضا تركيب وهمي لا ينسجم مع الحس الإسلامي ولا يعبر عن أية إضافة معرفية([2]).

رابعاً: ظهور شخصيات دعوية كبرى كان لها الأثر المتفاوت في إيجاد هذه الصحوة أو مقدماتها أو ترشيدها أو إعطائها طاقات حماسية وفكرية أو منحها الثقة بنفسها والأمل الواعد

---

[1] انظر: المفصل في أحكام الهجرة، جـ٤، ص٣٣٣.

[2] انظر: الصحوة الإسلامية في عيون غربية، ص٢٠.

بمستقبلها الحتمي، إضافة للوعود الإلهية الحتمية بانتصار المؤمنين، والمستضعفين، وحلول العدل الشامل([1]).

خامساً: يجب أن لا ننسى دور التطورات والحوادث الكبرى في إذكاء هذه الصحوة من قبيل([2]):

- تنامي مستوى وسائل الاتصال ، والحركة المعلوماتية ووسائل الإعلام المرئية والمسموعة
- ارتفاع مستوى التعليم في البلاد الإسلامية.
- تطور أساليب الدعوة إلى الإسلام.
- توفر بعض أجواء الحرية في العالم الإسلامي.
- اشتداد حركة مقارعة الاستعمار.
- قيام المؤسسات الدولية الإنسانية المدافعة عن حقوق الإنسان والداعية لتنظيم العلاقات الدولية على أسس إنسانية.
- حدوث بعض الحوادث المروعة كإحراق المسجد الأقصى أو هزيمة عام ٦٧.
- انتصار المجاهدين الأفغان على الاتحاد السوفيتي.
- انهيار الاتحاد السوفيتي وتحرر الدول الإسلامية.

وغير ذلك من التطورات التي ساهمت في اتساع الصحوة الإسلامية ونشر مفاهيمها ودعوتها في رفض التخلف والتمزق والعلمنة، والعودة إلى الحل الإسلامي الذي لا بديل له.

ومن الجدير بالإشارة هنا أن الغرب لم يأل جهداً في إجهاض الصحوة، ومقابلتها، وإلهائها واتهامها بشتى التهم من قبيل: التخلف والرجعية، والتطرف والأصولية، والعنف والإرهاب.

ولم يعدم من قدم له الذرائع من المسلمين ممن عرض فكراً رجعياً، أو سلك مسلكاً متطرفاً، أو عمل عملاً إرهابيا،. ولكن الواضح تماماً أن هؤلاء لا يمثلون الاتجاه الإسلامي العام فضلاً عن أن يكون سلوكهم ممثلاً للصحوة الإسلامية أو معبراً عن روح الإسلام وتعاليمه.

عوامل نجاح الصحوة الإسلامية:

- "ارتباطها بأصول الإسلام فهماً وإيماناً وسلوكاً"([3]).

---

[1] انظر: الصحوة الإسلامية في عيون غربية، ص٢٠.

[2] انظر: المرجع السابق، ص٢١.

[3] مستقبل الأصولية الإسلامية، يوسف القرضاوي، ص٦٠، الطبعة الثالثة، دار المكتب الإسلامي، بيروت–دمشق–عمان، ١٤١٨هـ–١٩٩٨م.

- "قدرتها على الوفاء بحاجات مجتمعها، ومطالب عصرها، وخصوصاً في حل القضايا الشائكة مثل المرأة والأقليات والفنون والحريات والتعددية والديمقراطية ونحوها، وذلك عبر ظهور كثير من الاجتهادات الفقهية لكثير من علماء الحركة الإسلامية"([1]).
- "تأثيرها في المسلمين نخباً وجماهيراً، والتفاف المسلمين حولها، واقتناعهم بها: إخلاصاً وكفاية"([2]).
- "تجاوبها مع الآخرين من حولها، وتجاوب الآخرين معها"([3]).

أسباب خوف الغرب من الصحوة الإسلامية.

إن الإسلام كان يمثل على الدوام إزعاجاً خطراً للغرب...، "فلا يمكن وصف أي دين أو تجمعات ثقافية أنها تمثل تهديدا للغرب، بمثل التأكيد الشديد نفسه عند الحديث عن الإسلام، وليس من قبيل الصدفة أن الاضطراب والعنف والقلاقل التي تحدث في العالم الإسلامي –والتي تتصل بالعوامل الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية– أكثر مما تتصل اتصالاً أحاديا بالإسلام"([4]).

"والسؤال الذي يحوم في الدوائر الأكاديمية والإعلامية والسياسية هو إن كان هناك أي حرب باردة جديدة، وهل من خطر يحيق بهذا النظام العالمي الجديد، وكان الجواب سريعاً، أن الإسلام هو التهديد القادم من الشرق"([5]).

والغرب يخشى دائماً من تولي ثلة مؤمنة بالله لنظام حكم في الشرق الإسلامي، ذلك لأن هذا يمثل خطراً كبيرة على المصالح الغربية في المنطقة، وإن ثبات الحركات الإسلامية، وإصرارها على السعي لإقامة أمر الإسلام، وصمودها في وجه عتاة الأجنبي وأوليائه المحليين، وصدق إيمانها بقضيتها، مما جعلها تقدم من التضحيات المادية والمعنوية في المال والنفس والأهل والولد، ما تنوء بحمله الجبال، ذلك كله ما يزيد من حالة الخوف الغربي المرضي من الإسلام.

فاعلية الصحوة الإسلامية

لكي تكون الصحوة الإسلامية فاعلة ومؤثرة، ولكي تؤتي أكلها بطريقة أسرع ودونما تشتيت للخطى، فإنها بحاجة إلى أن تراعي جملة من الأشياء([1]):

---

[1] مستقبل الأصولية الإسلامية، ص٦١.

[2] المرجع السابق، ص٦١.

[3] المرجع السابق، ص٦١.

[4] تغطية الإسلام، ادوارد سعيد، ترجمة: محمد عناني، ص٢٥، الطبعة الأولى، دار رؤية للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٥م.

[5] تغطية الإسلام، ص٢٧.

أولاً: الاهتمام بالشكل والمظهر والحقيقة والجوهر

إذ يقع كثير من الإسلاميين في مشكلة الاهتمام بالظواهر وترك الأشياء العميقة للدين الإسلامي، إذ لا يعقل أن يكون التركيز في الكتب الفقهية المعاصرة على بعض سنن العبادات والهيئات على القضايا المفصلية التي تخص المسلمين، إذ على الرغم من أهمية هذه السنن والعبادات، إلا إنه تظل هناك قضايا أخرى تستحق الاهتمام بصورة أكبر، مثل الحالات التي يكون المسلمون فيها عُرضةً لغزوٍ أو احتلال خارجي، أو يكونون فيها معرضين لانتهاك الكرامة وحقوق الإنسان، ونهب الخيرات، سواء على يد الأعداء الغربيين، أم على يد أبناء الأمة المتغربين([2]).

ثانياً: من الكلام والجدل إلى العطاء والعمل

من ضمن الأخطاء التي يقع فيها كثير من أبناء الصحوة الإسلامية المعاصرة: التشدق بالكلام، وكثرة القيل والقال فيما لا يبني ولا يجدي على حساب العمل المنتج البناء، الذي ينفع الناس ويمكث في الأرض، ومن أعراض هذا المرض: التحدث عن أمجاد الماضي والكلام عن أخطاء الماضي ومآسيه، والكلام عن أخطاء الآخرين، والجدل العقيم، والخوض في الأغاليط، والثرثرة الفارغة، والقول المخالف للفعل. مع التأكيد على العمل للدين والدنيا معًا فلا خصومة بين المسلم والدنيا، وألا يكون العمل السياسي هو الهم الأول للصحوة الإسلامية([3]).

ثالثاً: من العاطفية والغوغائية إلى العقلانية والعلمية

وتغليب العاطفة على العقل من ضمن المحاذير التي يجب علينا ألا نغفلها، ومن مظاهر العاطفية في الصحوة: تمجيد الذات، والإسراف في الحب والبغض، الاستغراق في الأحلام والاستعجال في قطف الثمر([4]).

رابعاً: من التعسير والتنفير إلى التيسير

أوجز ما تُوصف به رسالة الإسلام: أنها رحمة الله إلى خلقه، وأمر رسول الله ﷺ بالتيسير في كل شيء فقال: "يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا"([5]) فالتيسير هو ضد التعسير، ومعنى التعسير هو اتباع التصعيب والتضييق والتشدد والإحراج لعباد الله، وهو منافٍ للمنهج القرآني والنبوي، ومظاهر التيسير كثيرة وأهمها الوسطية ومراعاة جانب الرخص، وتقديم الأيسر على الأحوط، والتيسير فيما تعم به البلوى، وتغليب جانب الرحمة والعفو، والتبشير بمستقبل الإسلام.

---

[1] انظر: الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد، يوسف القرضاوي، ص٥٥، الطبعة الأولى، دار الشروق، القاهرة، ١٤٣٢هـ-٢٠٠٢م.

[2] انظر: الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد، ص٥٥.

[3] انظر: المرجع السابق، ص٥٥.

[4] انظر: مستقبل الأصولية الإسلامية، ص٧٥.

[5] صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب قول النبي: يسروا ولا تعسروا، حديث رقم: ٦٩.

خامساً: من الجمود والتقليد إلى الاجتهاد والتجديد

ومن خصائص الفكر الإسلامي الذي يخدم الصحوة، أنه فكر مُجدِد، لا يرضى أن يحبس في قفص القديم، ولا يتعبد بالأشكال الموروثة، ولا يجمد عند الوسائل المعهودة، "بل هو فكر يؤمن بالاجتهاد ويتبنى التجديد، ويرفض التقليد والتبعية، ويرى أن الجمود هو الموت، فهو يجدد في الفقه وفي التربية وفي السياسة، وفي شتى المجالات"([1]).

سادساً: من الاختلاف والتشاحن إلى الائتلاف والتضامن

أعظم ما يؤذي الصحوة الإسلامية ويضربها، ويعوق مسيرتها ويمكن أعداءها منها، أن تتنازع فصائلها وأجنحتها المختلفة، أن تتعادى ولا تتآخى، وأن تتفرق ولا تتجمع، وأن يتوجس بعضها من بعض، ويسيء بعضها الظن ببعض، بل يكيد بعضها لبعض، ويعمل كثير منهم لهدم إخوانه وبناء نفسه على أنقاضه.

عموماً يمكن القول أن الصحوة الإسلامية هي أمل الغد لأمتنا، وهي التي تستطيع أن تقود سفينة الإنقاذ بقوةٍ وجدارة إذا ما ساعدناها نحن العرب والمسلمين على أداء رسالتها، وساعدت هي نفسها أيضاً بأن تكون صحوة للجميع، لا أن يقف فريقٌ منا معها، وفريقٌ يقاومها، ونقضي العمر في جذب وشد، ومد وجزر، دون أن ننجز شيئاً كبيراً.

"يجب أن نقف كلنا وراء الصحوة وأن يزول هذا التفريق بين مسلمين وإسلاميين، مسلمين بوراثة العقيدة وإسلاميين بالتوجه والولاء، يجب أن نكون كلنا إسلاميين، بمعنى أن يكون انتماؤنا للإسلام وولاؤنا للإسلام، وتوجهنا إلى الإسلام ومرجعنا إلى الإسلام، حتى غير المسلمين يمكن أن يكونوا كذلك فيؤمنوا بحتمية الحل الإسلامي، وإن لم يؤمنوا بحقيقة الاعتقاد الإسلامي، فهم مسلمون بالثقافة والحضارة، وإن لم يكونوا مسلمين بالعقيدة والديانة"([2]).

المطلب الثالث: التمدد الإسلامي في الغرب

لسنوات طويلة ظلت مسألة التمدد الإسلامي في الغرب من ضمن الهواجس التي أرقت الغرب كثيراً، فتعداد المنضمين إلى الإسلام يزداد عاماً إثر عام، وخطورة المسألة بالنسبة للغربيين كامنة في أن المتحولين للإسلام من الغربيين لا يقتصرون على عوام الناس، بل في كثير من الأحيان كان الداخلون في الإسلام من ذوي الكفاءات من الناحية الفكرية بالذات([3]).

---

[1] أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، يوسف القرضاوي، ص١٠٨، الطبعة الرابعة عشرة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

[2] مستقبل الأصولية الإسلامية، ص٧٤-٧٥.

[3] انظر: مستقبل الإسلام خارج أرضه، محمد الغزالي، ص٥-١٠، الطبعة الأولى، دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

وتمدد الإسلام في الغرب يأتي منسجماً مع وعد النبي ﷺ بانتشار الإسلام ووصوله إلى كل بقاع الأرض، ففي الحديث أن النبي ﷺ قال: "إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها"([1])

"ومن مآثر تاريخنا: أنه سجَّل لديننا قدرته على الانتشار السريع، ودخول الأمم فيه أفواجاً، بأدنى دعوة إليه، وإن لم يَقُم بهذه الدعوة أناس محترفون متخصصون في التبشير به، متفرغون له"([2]).

وسر ذلك: أن هذا الدين –بعقائده وعباداته وأخلاقياته وتشريعاته– تتوافر فيه: موافقة الفطرة، وملاءمة العقل، وتزكية النفس، وسمو الروح، وصحة الجسم، وتماسك الأسرة، وترابط المجتمع، وتحقيق العدل، وجلب المصالح، ودرء المفاسد، وإشاعة الخيرات، ومكافحة الشرور بقدر الإمكان، "وأبرز ما في هذا الدين سهولة عقائده التي ليس فيها غموض ولا التواء ولا تناقض، تقبلها الفطرة السليمة، ويسلم لها العقل المستقيم، فلا غرو أن انتشر دين الإسلام انتشار أضواء الصباح، فملأ الآفاق، ومحا الظلام، واستنارت به الأبصار والبصائر، ورحب الناس به في عامة الأقطار"([3]).

إن مداخل الإسلام إلى القلوب ، هي سماحته وبساطته وإنسانيته. إنه يقدم للمؤمن به الاطمئنان وهدوء البال، ويفتح له إلى الله سبحانه باباً واسعاً للمغفرة والأمل وثواب الآخرة ، وكل ذلك دون مقابل، وفي أديان أخرى تفرض عليه أموالا وهدايا وقرابين، ويلزم بطاعة رهبان وقساوسة، ويراقب ويعاقب ويحرم من نعمة الله بقرار.. لا شيء من هذا في الإسلام، من هنا كان مدخله إلى النفوس سهلا ذلولا([4]).

"أما مسالك الإسلام، فهي ضروب الأرض جميعاً: لقد انتشر الإسلام بالبر والبحر، بالحرب والسلم، لقد اخترق الجبال والشعاب، وأوجد لنفسه طرقا ومسالك لا تخطر على بال أحد. لقد اشترك في نقل الإسلام حتى الكفار، وانساح الإسلام في إندونيسيا حتى عمها كلها"([5]).

---

[1] صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، حديث رقم ٢٨٨٩.

[2] نحن والغرب، يوسف القرضاوي، ص٨٠، الطبعة الأولى، دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤١٨هـ١٩٩٨م.

[3] نحن والغرب، ص٨٠.

[4] انظر: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، يوسف القرضاوي، ص٤٩، الطبعة الأولى، مكتبة الشروق للنشر والتوزيع، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م. وأوضاع غير المسلمين في الدولة الإسلامية مقاربة تأصيلية، أبو الحسن السماني، ص٥٥، الطبعة الأولى، المركز العالمي للدراسات والبحوث، الخرطوم، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

[5] المرجع السابق، ص,٥٠

أما الأسباب التي تؤدي إلى دخول الغربيين في الإسلام، وتخليهم عن نصرانيتهم فهي أسباب عديدة، يمكن مقاربتها بالتالي:

أولاً: الخواء الروحي

"يُعد ٤٧% من الألمان أنفسهم لا دينيين، و ٩% ملحدين، أما بالنسبة للذين يعدون أنفسهم مؤمنين، فإن ٩% فقط يذهبون لقداس الأحد([1])، وعليه فلقد أصبح شائعاً أن المجتمع الألماني بات مجتمعاً كافراً لا يؤمن بالمسيحية ولا تعاليمها"([2])

أما أسباب هذا التردي الديني فهي أسباب عديدة، لعل أهمها النظريات الفلسفية التي حكمت العقل الغربي بعد التحرر من الكنيسة، فنظرية مثل نظرية دارون التي تمسخ أصل الإنسان إلى قرد، رسخت في لا وعي المواطن الغربي اللامبالاة واحتقار أي شيء، وبالتالي فقدان الثقة بكل قيمة سامية أو نبيلة([3]).

كما أن هيمنة الجانب المادي على حياة المواطن الغربي، غَلّبت الشق الحيواني في تصرفات الإنسان هناك، فبات غريقاً في ملذاته الحيوانية، وهذا ما يؤدي في النهاية إلى الانشغال بالجانب الشخصي وإهمال الشأن العام، وهكذا يفقد الإنسان إنسانيته ويتردى في مهاوي الظلمات.

ونتيجة للخواء الروحي، تنهار المجتمعات، وفي مجتمع مثل المجتمع الأمريكي فإننا نجد أن ٥٥% من المراهقين مصابون بالاكتئاب، وليس غريباً بالتالي أن نجد أن ٦٠% منهم يمارسون عادة التدخين، ويرى المراهق الأمريكي من خلال وسائل الإعلام قبل بلوغه الرشد ١٥ألف جريمة قتل واغتصاب، وهذا ليس مستغرباً، لأن المراهق هناك يبقى أسيراً لشاشة التلفاز حوالي ٣٠ ساعة أسبوعيا، وما ذلك إلا لانشغال الآباء والأمهات بأعمالهم([4]).

وإذا كان العرب في الجاهلية الأولى يئدون بناتهم، فإن تقريباً كل نساء مدينة برلين لا يصبحن أمهات لأبنائهم إلا بعد المولود الأول، بمعنى أن كل النساء هناك تقريباً يجهضن المولود الأول لهن([5]).

"ويُعد التحول في موقف الرأي العام من الشذوذ الجنسي أحد النتائج المميزة للخواء الروحي وسيطرة الجانب المادي في المجتمع الغربي، إذ كان الطب النفسي هناك حتى الحرب العالمية الثانية يَعُد الشذوذ الجنسي أحد أشكال الفساد الجنسي، وإحدى صور انحطاطه الواضحة، أما في

---

[1] إحصائية في العام ٢٠٠٠م.

[2] الإسلام في الألفية الثالثة ديانة في صعود، مراد هوفمان، ترجمة: عادل المعلم ويس إبراهيم، ص٢٠، الطبعة الأولى، دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٠م.

[3] انظر: المرجع السابق، ص٢١.

[4] انظر: الإسلام في الألفية الثالثة ، ص٢٥.

[5] انظر: المرجع السابق، ص٢٥.

العام ١٩٧٢م، فقد حدث تغير ما حين صنف المجتمع الأمريكي الشذوذ الجنسي واعتبره كمرض نفسي، ولكن سرعان ما ظهر الشذوذ الجنسي كأسلوب في الحياة بعد ذلك، وانتفت عنه صفة المرض في المعاجم والكتب النفسية المختصة، والحقيقة التي لا يمكن إنكارها، أن المجتمع الغربي بات مجتمعاً مدمناً للانحراف: خمر، دخان، جنس، ألعاب كمبيوتر، هيروين، وهذه كلها أشياء يعتبرها المسلمون انحرافاً عن الطريق الموصلة لله"([1]).

ومن النتائج الواضحة للخواء الروحي في الغرب، حالة التفكك الأسري الواضحة هناك، إذ تقول الإحصاءات أن نسبة الزواج الرسمي إلى العلاقات الجنسية الحرة في تناقص مستمر، وأن معدل نجاح الزواج الرسمي لا يتجاوز ١٥% ، بينما يأخذ الطلاق والفراق ما نسبته ٨٥% في دولة مثل الولايات المتحدة الأمريكية([2]). وعليه فليس غريباً أن تظهر هناك مشكلة كبار السن بإلحاح شديد، وأمام النهم الشديد للشباب المادي الباحث عن مضاعفة مصادر الرزق، تنعدم العلاقة بين الأبناء والآباء، وتصبح دور المسنين هي وسيلة للتخلص من المشكلة. وإزاء هذه الأنانية المفرطة، لا يفكر الشباب ولا الشابات بالزواج، فما الذي يجبر شاب على تحمل نفقات الزواج طالما أن السبيل لتفريغ الشهوة الجنسية متاح دونما تبعات ولا تكاليف، وما الذي يجبر الشابة على الزواج وتحمل تداعياته:الحمل، الميلاد، النفقات، طالما كان تفريغ الشهوة الجنسية متاحاً أيضاً ودونما كل هذه الأعباء، وبناءً على هذه المقدمات، فإن الجانب الاجتماعي في الغرب يسير نحو الهاوية، والدليل أن معدل عدد أفراد الأسرة هناك ثلاثة أفراد فقط([3]).

ثانياً: وضوح العقيدة

للعقيدة الإسلامية مزايا لا تتوافر لغيرها من العقائد، فهي عقيدة واضحة بسيطة لا تعقيد فيها ولا غموض، تتلخص في أن وراء هذا العالم البديع المنسق المحكم رباً واحدا خلقه ونظمه، وقدر كل شيء فيه تقديرا، وهذا الإله أو الرب ليس له شريك ولا شبيه ولا صاحبة ولا ولد:﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ (الإخلاص: ٣-٤) ، وهذه عقيدة واضحة مقبولة، فالعقل دائما يطلب الترابط والوحدة وراء التنوع والكثرة، ويريد أن يرجع الأشياء دوما إلى سبب واحد.

[1] الإسلام في الألفية الثالثة، ص٢٥.

[2] انظر: المرجع السابق، ص١٨.

[3] انظر: المرجع السابق، ص٢٧.

فليس في عقيدة التوحيد ما في عقائد التثليث أو المثنوية ونحوها من الغموض والتعقيد الذي يعتمد دائما على الكلمة المأثورة عند غير المسلمين: "اعتقد وأنت أعمى"([1])، فهي عقيدة ليست غريبة عن الفطرة ولا مناقضة لها، بل هي منطبقة عليها انطباق المفتاح المحدد على قفله المحكم، وهذا هو صريح القرآن: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الروم: ٣٠).

"إن تردي الأخلاق والآداب في الغرب تفاقم إلى درجة كبيرة، أدت في النهاية إلى أن تصبح هذه الأشياء خطراً يهدد مستقبل الشباب بالذات، الذين أضحوا يعانون من الخواء الروحي والفراغ العقلي، بل حتى الجهل بمصيرهم وهدفهم في الحياة، مما ألقى وسيظل يلقي بهم في غياهب الضياع والجنون المطبق، فأخذوا يبحثون عن الحقيقة لإنقاذ أنفسهم لا سيما بعدما فشل الإلحاد في تضميد جراحهم بل أصبح داءهم، فأخذت أسئلة بعينها تُلح عليهم، مثل: ما سر انتظام الكون، وما السر في جماله الأخاذ وما الغاية منه، ومن نحن، ولماذا خُلقنا، وما الغاية من حياة تصير بهم إلى القبر"([2]).

إن أهم ما يميز الإسلام وعقائده وأفكاره، أنه دائماً ما يجيب على السؤال: لماذا، وميزته أنه يخاطب العقول على اختلاف مستوياتها وبيئاتها وطبائعها([3]).

وبهذا المنطق يتحدث روجيه غارودي([4]) عن مسببات دخوله في الإسلام قائلاً: "بدا لي الإسلام مثل حامل إجابة على أسئلة حياتي، لا سيما على ثلاث نقاط أساسية بالنسبة للوعي النقدي لهذا العصر: أولى هذه النقاط أن النبي محمدﷺ لم يزعم أنه اختلق ديانة جديدة، لكنه يدعونا إلى العقيدة الجوهرية لإبراهيم عليه السلام، أما ثاني النقاط فتتمثل في أن الإسلام لا يفصل بين وحي الحكمة وحكمة الوحي، فالعلم الإسلامي في ذروته لم يفصل بين البحث في الأسباب عن البحث في الغايات، بعبارة أخرى إن الإسلام هو الديانة الوحيدة التي تجيب على السؤال (كيف) والسؤال (لماذا)، وبهذه الكيفية يصبح العلم في خدمة تألق الإنسان، وليس تحطيمه بإثارة رغباته وإرادة

---

[1] مدخل لمعرفة الإسلام، ص٩١.

[2] رحلتي من الكنيسة إلى المسجد، ص٤٦.

[3] انظر: المرجع السابق، ص٤٧.

[4] روجيه غارودي: فيلسوف وكاتب فرنسي. خلال الحرب العالمية الثانية أُخذ كأسير حرب في الجلفة (جزائر). كان جارودي شيوعيا، لكنه طرد من الحزب الشيوعي الفرنسي سنة ١٩٧٠ م وذلك لانتقاداته المستمرة للاتحاد السوفياتي، وبما أنه كان عضواً في الحوار المسيحي الشيوعي في الستينيات، فقد وجد نفسه منجذباً للدين وحاول أن يجمع الكاثوليكية مع الشيوعية خلال عقد السبعينيات، ثم ما لبث ان اعتنق الإسلام عام ١٩٨٢ م متخذا الاسم رجاء. (أمريكا طليعة الانحطاط، روجيه غارودي، تحقيق: عمرو زهيري، ص٣، الطبعة الأولى، دار الشروق للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٦م.).

تسلط مجموعات أو قوميات، وأخيراً فإن الإسلام لا يعني الطاعة بمعنى الاستسلام لبشر عاديين كما ألزمت الكنيسة المسيحيين، بل هو استسلام وخضوع مبني على الاستجابة لنداء الله سبحانه وتعالى استجابة نشطة، حرة، مسئولة"([1])، وهذه الأسباب هي التي جعلت آخرين كثيرين من كبار الشخصيات الغربية، يدخلون في دين الله أفواجاً، فـ"الإسلام ليس مبنياً على التعصب والتحجر، فالقرآن يقرر أن الله أرسل لكل شعب أنبياءه، لكي يُتاح لكل أمة أن تستوعب الرسالة الإلهية على طريقتها، ومن الواضح والمعلوم أن الاجتهادات الأولى للخلفاء الراشدين والمذاهب الفقهية التي جاءت بعد ذلك...، إن كل هذه الاجتهادات تؤكد بأنه على الرغم من أن الوحي الذي نزل على النبي هو الوحي الأخير، فهذا لا يمنع أن يظل باب الاجتهاد مفتوحاً، وهذا الاجتهاد ضروري لمواجهة المشكلات الحياتية الطارئة التي جدَّت بعد انتشار الإسلام، في المجتمعات التي تختلف عن مجتمع المدينة المنورة"([2]).

ثالثاً: سماحة الإسلام:

"إن التسامح الديني والفكري له درجات ومراتب، فالدرجة الدنيا من التسامح أن تدع لمخالفك حرية دينه وعقيدته، ولا تجبره بالقوة على اعتناق دينك أو مذهبك، بحيث إذا أبى حكمت عليه بالموت أو العذاب أو المصادرة أو النفي أو غير ذلك من ألوان العقوبات والاضطهادات التي يقوم بها المتعصبون ضد مخالفيهم في عقائدهم...، فتدع له حرية الاعتقاد، ولكن لا تمكنه من ممارسة واجباته الدينية التي تفرضها عليه عقيدته، والامتناع مما يعتقد تحريمه عليه"([3]).

"والدرجة الوسطى من التسامح: أن تدع له حق الاعتقاد بما يراه من ديانة ومذهب ثم لا تضيق عليه بترك أمر يعتقد وجوبه أو فعل أمر يعتقد حرمته. فإذا كان اليهودي يعتقد حرمة العمل يوم السبت فلا يجوز أن يكلف بعمل في هذا اليوم. لأنه لا يفعله إلا وهو يشعر بمخالفة دينه"([4]).

وإذا كان النصراني يعتقد بوجوب الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد فلا يجوز أن يمنع من ذلك في هذا اليوم.

والدرجة التي تعلو هذه في التسامح: ألا نضيق على المخالفين فيما يعتقدون حله في دينهم أو مذهبهم. وإن كنت تعتقد أنه حرام في دينك أو مذهبك. وهذا ما كان عليه المسلمون مع المخالفين من أهل الذمة. إذ ارتفعوا إلى الدرجة العليا من التسامح([5]).

---

[1] لماذا أسلمت...، نصف قرن من البحث عن الحقيقة، روجيه غارودي، ترجمة: محمد عثمان الخشت، ص٧٠، الطبعة الأولى، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، ١٩٦٢م.

[2] المرجع السابق، ص٥٠.

[3] غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص ٥٠.

[4] المرجع السابق، ص٥٠.

[5] انظر: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص٥٠.

ويتجلى تسامح الإسلام في قبوله وحمايته أفراداً وجماعات ومجتمعات غير إسلامية، فقد تقلد يهود ونصارى وأعضاء طوائف أخرى وظائف في حكومات إسلامية عدة، وحظيت أديان مختلفة بكامل الحقوق والرعاية، وسمحت السلطات لغير المسلمين بممارسة شعائر دينهم دون تضييق([1]).

والفتح الإسلامي عندما جاء لأوروبا فإنه لم يكن استعماراً كما يتصور كثيرون، بل إنه استقبل مثلاً شعب أسبانيا الفاتحين المسلمين الذين أنقذوهم من طغيان وغطرسة سلطات بلادهم الروحية والزمنية، فلم يقاوموهم، والدليل على ذلك أن المسلمين فتحوا الأندلس في ظرف سنتين، في حين تطلب استعادتها منهم سبعة قرون([2]).

"فلم يكن السيف هو الذي أدخل الناس في الإسلام، كما زعم بعض خصوم الإسلام، فإن السيف قد يفتح أرضا للاحتلال، ولكنه لا يفتح قلبا للهداية، بل إن الإنسان –بطبعه– يأبى أن يدخل في دين مَن يقهره عليه بالسيف"([3]).

على أن الإسلام ذاته ينكر إكراه الناس على الإيمان، ففي القرآن المكي يخاطب الله رسوله فيقول: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (يونس:٩٩)

وتسامح الإسلام مع مخالفيه ليس مسألة نظرية، فكثيرًا ما تُوْضَع شرائع حسنة، وأحكام عادلة، ومبادئ قيمة، ولكنها تظل حبرًا على ورق، فلا توضع موضوع التنفيذ، ولا يبالي بها الذين في أيديهم سلطة الأمر والنهي والإبرام والنقض.

ولكن ميزة المبادئ والأحكام الإسلامية أنها مبادئ ربانية الأصول، دينية الصِّبغة، ولهذا وجدت من القبول والاستجابة ما لم تجده أي شريعة أخرى أو قانون مما يضع البشر بعضهم لبعض.

وقد حفل الواقع التاريخي للأمة الإسلامية في مختلف عصورها، وشتى أقطارها، بأروع مظاهر التسامح، الذي لا يزال الناس يتطلعون إليه إلى اليوم في معظم بقاع الأرض فلا يجدونه([4]).

وينقل الشيخ الغزالي قول أحد كبار المفكرين الفرنسيين الذي أعلن دخوله في الإسلام، فينقل إلينا أسباب هذه الدخول وهو يخاطب أحد القساوسة الكاثوليك الفرنسيين قائلاً: "أتفهم ماذا يعني أن تدخل فرنسا في الإسلام، هذا يعني ببساطة في الأوقات المختلفة فجراً أو عصرً سوف

[1] لماذا أسلمت...، نصف قرن من البحث عن الحقيقة، ص٧٣.

[2] انظر: المرجع السابق، ص٧٤.

[3] نحن والغرب، ص٨٠.

[4] انظر: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص٥٨.

يفرش آلاف الفرنسيين سجاجيدهم ، وسوف يركعون ويسجدون بعد أن يستمعوا إلى مؤذن منهم يصيح: الله أكبر الله أكبر..!! أما النساء فسيضعن على رؤوسهن مناديل من القماش ، وينفردن في صفوف خاصة"([1]) ومن ثم يضيف قائلاً: "وتخيلت فرنسا كلها وقد اعتنقت الإسلام! ماذا سيحدث؟ لن تجد سكارى في الطرق ولن تبقى هناك تماثيل ، ولا إعلانات جنسية ، ولا برامج منوعات ، وستتحول الكنائس إلى مساجد ، ويعاد طلاؤها باللون الأبيض! والمحال التي تبيع لحم الخنزير ستغلق أبوابها!!"([2])

ومضى الكاتب في خياله يقول للفرنسيين: "إن شيئا من ذلك لم يخطر ببالكم وأنتم ترون العمال المسلمين النازحين إلينا يخرون سجدا أمام مصانع السيارات التي يعملون بها وهم يؤدون صلواتهم"([3]).

والخلاصة أن داعية الإسلام الأكبر هو الإسلام نفسه، فقد تضمنت عقيدته وشريعته من الفضائل ما يجعل الناس يحرصون أشد الحرص على أن يدخلوا فيها، ثم إن الإسلام يعطي الداخل فيه كل شيء ولا ينتقصه شيئا، فإن الإنسان يكسب الصلة المباشرة بالله سبحانه وتعالى، ويجد الطريق إليه فيقف بين يديه خمس مرات في اليوم، ويدعوه دون حجاب، ويكسب الأمل في حياة أسعد وأرغد في هذه الحياة الدنيا، ثم حياة الخلود في دار البقاء، ولا يكلفه ذلك إلا النطق بالشهادتين، واتباع شريعة الإسلام، وكلها خير ومساواة وعدل، في حين يتقاضاه رجال الدين في الأديان الأخرى الإتاوات في كل مناسبة، فهو يؤدي مالا إذا تزوج ، ويؤدي مالا كلما أنجب ولدا، ويؤدي مالا ليعمِّد الطفل الوليد، ثم مالا آخر ليثبته في الجماعة المسيحية إذا ضرب في مداخل الشباب، بل يؤدي مالا إذا مات له ميت لكي تصلى عليه صلاة الجنازة، وبالإضافة إلى ذلك يظل عمره كله تابعا لرجل الدين في كل ما يتصل بالله سبحانه، فإذا أراد الصلاة صلى عنه القس، ووقف هو يسمع ولا يملك إلا أن يقول: آمين، ولكن المسلمين وحدهم من دون أهل الأديان هم الذين يقوم كل واحد منهم بصلاته بنفسه، حتى لو كانت صلاة الجماعة، وفي غير الإسلام يصلى القس مع مساعديه نيابة عن الناس([4]).

المطلب الرابع: الازدياد السكاني للمسلمين.

كرم الإسلام الإنسان، وأعطاه من الإمكانات والقدرات ما يؤهله لأن يتفوق على سائر المخلوقات، ولقد كان تكريم الإسلام للإنسان تكريماً عاماً لكل بني الإنسان، دون تمييز بين عرق

[1] مستقبل الإسلام خارج أرضه، ص٤.

[2] المرجع السابق، ص٤.

[3] المرجع السابق، ص٥.

[4] غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص٥٣.

وعرق، أو فئة وفئة، قال تعالى﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (الإسراء: ٧٠)، وعليه فإن الإسلام قد أولى النفس الإنسانية عناية خاصة، فجاءت تشريعاته وتوجيهاته حافظة لهذه النفس، ومهيئة للظروف التي تحفظ وجودها إلى أن يشاء الله، قال تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ ﴿٣٢﴾ ﴾ (المائدة: ٣٢).

الآيات القرآنية التي تحث على طلب النسل:

١) قال تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءًۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ (النساء: ١)

٢) قال تعالى :﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴿٧٢﴾ ﴾ (النحل: ٧٢)

٣)قال تعالى :﴿ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (الشورى: ٤٩)

ومما يجدر ذكره أن بعض الأنبياء طلبوا الأولاد ودعوا الله أن يرزقهم الأبناء والذرية.

٤) قال تعالى على لسان إبراهيم :﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (الصافات: ١٠٠)

٥) قال تعالى:﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾ (الصافات: ١١٢ - ١١٣)

٦- وطلب زكريا عليه السلام الولد قال تعالى:﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ (مريم: ٢ – ٦) وفي السنة أن النبي ﷺ قال: " تزوجوا

الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة"([1]) وفي روايةٍ أخرى "أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال وإنها لا تلد أفأتزوجها؟ قال: لا، ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فقال: تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم"([2]).

والمتأمل في الشريعة الإسلامية، يجد بأن الآيات جاءت متضافرة للحفاظ على الجنس البشري وبقاء نوعه بالتناسل والتكاثر، وهو أمر لا مناص منه لاستمرار النوع البشري وبقاء الإنسان وذريته، وقيامه بالوظيفة المنوطة به، فلا ينقطع للإنسانية نسل ولا ينقرض لهم نوع إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وينقطع التكليف.

ولتتحقق هذه الغاية شرع الله عز وجل الزواج وحثّ عليه، وقرر له أحكاماً مضبوطة، وضوابط دقيقة لم يُتْرَكْ لاجتهاد المجتهدين فيها مجال كبير، فقد اعتبر هذا النظام من الثوابت التي لا تخضع لأحكام الزمان المختلفة ولا لأوضاع المكان المتنوعة، وذلك من خلال تنظيم عقد النكاح وما يترتب عليه من آثار مادية ومعنوية في الزوجين والأولاد ثم على مجموع أفراد الأسرة من علاقات دم ونسب ثم إرث وغيرها.

"ومسألة الازدياد السكاني العالمي مسألة حديثة وقديمة في آنٍ واحد، فهي مسألة لها عمقها التاريخي الممتد لبضع آلاف من السنين، من اليونان القديمة وحتى عرب الجاهلية، إلى عصر العلم، والتقنية، والصناعة، ولا تزال المسألة مثيرة للجدل اجتماعياً، ومحلاً للبحث في المحافل العلمية والاجتماعية المعاصرة، إذ مع وجود عشرات الكتب المطبوعة ومئات المقالات، وعقد عشرات المؤتمرات والندوات فيه، لاتزال كثير من جوانبه مجهولةً إلى يومنا هذا، كما أن الموافقين والمخالفين كلّ منهم قد اتخذ موقفاً من الآخر مصرّاً على إبطال رأي الطرف المقابل"([3]).

---

[1] سنن النسائي، كتاب النكاح، باب كراهية تزويج العقيم، حديث رقم:(١٣٥٤٩)، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم: ٢٨٨٣.

[2] سنن أبي داوود، كتاب النكاح، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء، حديث رقم: (٢٠٥٠))، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم: ٢٨٨٢.

[3] مشكلة السكان... التاريخ والآثار والنتائج، سمير قسيما، ص١٣، الطبعة الأولى، دار زكريا للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٩٥م.

"ومنذ القدم نَبَّه أرسطو في كتابه "السياسة" على أنّه لا شكّ في لزوم وضع قانونٍ للمنع عن إنجاب أطفال ذوي إعاقة، وينبغي إقرار نظام اجتماعي يؤدّي إلى الحول دون التزايد السكاني المُفرط، والسبيل الأنجع لذلك هو ذاك الذي يضع لكلّ أسرةٍ حَدّاً معيّناً"([1]).
كما أن عرب الجاهلية أيضاً كانوا – لفقرهم وضيق ذات يدهم – يقتلون أولادهم، فتصدّى القرآن بشدّة لهذه الظاهرة ونهى عنها: قال تعالى﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ (الإسراء: ٣١)

"وفي العصر الحديث، تعود فكرة الحد السكاني إلى نظرية "مالتوس"([2])القِسّ الإنجليزي، فقد قرأ الموضوع من زاوية العلاقة ما بين السكّان والغذاء في معالجة جديدة، مثيراً إيّاها من بُعدٍ اجتماعي، وقد ألّف "مالتوس" عام ١٧٩٨م كتاباً أسماه "رسالة في الأصل السكاني"، وفي ذلك الكتاب رسم مستقبل البشرية بنظرةٍ تشاؤمية، وقال: "ينبغي الحدّ من النموّ السكّاني، وإلا فإنّ الجوع والانفجار السكّاني سوف يهدّدان العالم"([3]) وقد تصاعدت وتيرة الدعاوى الغربية المشيرة إلى خطر الانفجار السكاني في البلدان الإسلامية، داعين بعد ذلك إلى تحديد النسل، "ومُرْجِعين أوضاع العالم الإسلامي من تخلف وفقر إلى كثرة السكان، متأثرين بديانتهم النصرانية وخوفها من الانفجار السكاني للمسلمين، والحقيقة أنهم في أوروبا يخشون من الطاقات البشرية المسلمة، ويريدون الاستئثار بهذه الطاقات لما يخدم مصالحهم هم"([4]).

وقد تنوَّعت النداءات الداعية لإيقاف الخطر السكاني للمسلمين، بين دعوة إلى تحديد النسل، ودعوة إلى منع الحمل أصلاً، ودعوة إلى تنظيم النسل، والحقيقة أن الدعوات الثلاث متباينة ومختلفة، ولهذا فإن الأحكام الشرعية المتعلقة بها مختلفة أيضا، فتحديد النسل هو: "الوقوف بالإنسال عند الوصول إلى عدد معين من الذرية باستعمال وسائل يظن أنها تمنع من الحمل"([5]) أما منع الحمل فهو: " استعمال الوسائل التي يظن أنها تحول بين المرأة وبين الحمل، كالعزل، وتناول العقاقير، ووضع اللبوس ونحوه في الفرج، وترك الوطء في وقت الإخصاب،

---

[1] مشكلة السكان، ص١٥.

[2] مالتوس: قس نصرني، وباحث سكاني واقتصادي سياسي إنجليزي. مشهور بنظرياته المؤثرة حول التكاثر السكاني. في العصر الحديث يتم منادته توماس مالتوس رغم أنه في حياته استخدم اسمه الأوسط.(المصور في التاريخ، ص٥٥٤).

[3] مشكلة السكان، ص٢٢.

[4] رحلتي من الكنيسة إلى المسجد، ص٤٨.

[5] البحوث العلمية، هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية، جـ٣، ص١٣٧، الطبعة الأولى، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ.

ونحو ذلك"([1]) أما تنظيم الحمل فهو: " استعمال وسائل معروفة لا يراد من استعمالها إحداث العقم أو القضاء على وظيفة جهاز التناسل، بل يراد بذلك الوقوف عن الحمل فترة من الزمن لمصلحة ما يراها الزوجان أو من يثقان به من أهل الخبرة"([2])

ولأن الغرب يخشى من الإسلام، ومن أي قدرة كامنة فيه، فإن الدعوة إلى تحديد النسل في العالم الإسلامي كانت من أبرز النداءات الغربية المعاصرة، والدراسات الغربية اليوم تركز على خطر الانفجار السكاني للمسلمين، ويبدو هذا الخوف طبيعيا وتلقائيا، لأن معدل الوفيات في الغرب أكبر من معدل المواليد، وهذا يعني بأن الحضارة الغربية في سبيلها للاندثار على الصعيد السكاني، بخلاف المسلمين الذين يحافظون على وتيرة متصاعدة من الإنجاب آخذين بتوجيهات الإسلام.

وقد وجد الغرب في بعض أبناء المسلمين، ممن يحملون الإسلام في بطاقاتهم الشخصية فقط، ويدينون للغرب ولاءً وانتماء وعقيدة، وجد عند هؤلاء آذاناً صاغية، فكثرت المؤتمرات الداعية إلى تحديد النسل، وكثرت الكتابات، وخُصصت حلقات إذاعية وتلفزيونية للحديث على المخاطر الناجمة عن تزايد أعداد المسلمين.

وقد استند هؤلاء إلى جملة من الأسباب والدوافع التي برروا من خلالها حملاتهم المسعورة ضد الازدياد السكاني للمسلمين، ومن هذه الأسباب قولهم "أن كثيراً من الناس حالتهم المادية والمعيشية لا تكفي للإنفاق عليهم وعلى من يعولون من زوجات وقريبات وغيرهن، وأن مجيء الأولاد يحتاج إلى مال للأنفاق عليهم وتعليمهم تعليماً عاليا يسمون به وتسموا به أمتهم فالحالة هذه تستوجب تحديد النسل وإيقافه، وقولهم هذا مردود لأن الله تبارك وتعالى قدر أرزاق الناس وهم في بطون أمهاتهم وخلق الأرض وقدر فيها كل ما يحتاج إليه بنو الإنسان حتى قيام الساعة قال تعالى : ﴿وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ (فصلت:١٠). "أما القول أن بلاد العالم الثالث لا تكفى حاجات أهلها وبالتالى لا تتسع لمزيد من الأفواه التى تطلب القوت والأجساد التى تطلب الكسوة؟ تلك هى الأكذوبة الكبرى التى يضخم الاستعمار صداها ويزعج الدنيا طنينها! إن أقطار العالم الثالث مشحونة بخيرات تكفى أضعاف سكانه، بيد أن هذه الخيرات تتطلب العقول البصيرة والأيدى القديرة"([3]) ومن الأسباب التي ساقها هؤلاء قولهم " إن ما في الأرض لا يكفي لأهلها الذين يتزايدون باستمرار، وقد استقى هؤلاء أقوالهم من الراهب الإنجليزي مالتوس الذي رأى أن الموارد المعيشية في الأرض محدودة وأن سكان العالم في ازدياد مستمر لا يتوقف وما في

[1] البحوث العلمية، ص١٣٧.

[2] المرجع السابق، ص١٣٧.

[3] قذائف الحق، محمد الغزالي، جـ٣، ص٥٠، الطبعة الثانية، دار الشروق للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

الأرض لا يكفي لهذا النمو المتزايد من عدد السكان وحتى لا يتعرض العالم إلى المجاعة والهلاك يجب أن يوقف الإنجاب والإنسان"([1])، والحقيقة أن الدعاة إلى تحديد النسل خشية أن تضيق الأرض بالسكان وخشية أن تضيق بهم وسائل العيش من كثرتهم، يظنون بالله الظنونَ ويتدخلون في تقديره لشئون عباده وهذا هو الضلال البعيد، فالله عز وجل خلق الأرض وخلق المخلوقات وخلق آدم وذريته وقدر في الأرض أقوات الذين يعيشون عليها منذ خلقهم وحتى تقوم الساعة. قال تعالى :﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾(الأعراف: ١٠) فالله سبحانه خلق عباده وهو الذي يدبر معايشهم وهو الرزاق ذو القوة المتين، قدر أرزاقهم وما يجري عليهم في جميع أحوالهم قبل أن يكونوا، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: حدثنا رسول الله ﷺ قال : إن أحدكم يجمع له في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد ([2]).

ولقد وهب الله تعالى للإنسان من القدرات العقلية والجسمية ما يمكنه من كسب رزقه الذي قدره له وتهيئة الأرض وإصلاحها للسكن واستغلال ما فيها من ثروات هائلة ومعرفة طرق استخراجها، فلن تضيق الأرض بسكانها بل قدر الله جلت قدرته وعزت عظمته أن توسع للخلق سكنا ورزقا فما ضاقت الأرض بالإنسان ونسله منذ آلاف السنين وستتسع لهذه المخلوقات حتى يبعث الله الأرض ومن عليها قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ (ص: ٥٤)

ومن الأسباب التي ساقها دعاة تحديد النسل قولهم أن "تحديد النسل يحفظ للمرأة صحتها وأن تتابع الحمل والولادة وما يتبع ذلك من رعايتها لأولادها، وسهرها على مصالحهم يذهب قوامها وجمالها ويسبب لها أتعاباً وآلاماً مما يهدد حياتها الزوجية فيزهد فيها زوجها لانشغالها بالحمل والآلام والأولاد"([3]). وقولهم هذا مردود أيضاً الحمل يرهق المرأة ويتعبها وقد خلقها الله تعالى وفطرها على حب الإنجاب والأولاد مع ما في الحمل من متاعب، قال تعالى :﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ (لقمان: ١٤) ومع ذلك فهي تنسى هذه الآلام حين تضع مولودها، بل وتنقلب هذه الآلام والمتاعب إلى حبور وسرور، وفرحة بهذا المولود الذي اقتضت حكمة الله تعالى أن ترى فيه الأم

---

[1] تحديد النسل في ضوء الكتاب والسنة، رسالة دكتوراة مخطوطة، الطالبة: انتصار مطر الواوان، اشراف الدكتور: طارق الطواري، جامعة الكويت، كلية الدراسات العليا، برنامج الحديث الشريف، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

[2] صحيح مسلم، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله حديث رقم:٢٦٤٣.

[3] تحديد النسل في ضوء الكتاب والسنة، ص٢٠.

هذه الآلام، وتعاني من حملة ما تعاني ليتذكر ما تحملت أمه من ضعف ووهن، وما لاقت من عناء فيقوم بواجب البر والشكر والإحسان، لأمه خاصة ولوالديه عامة إذا ما احتاجه وهم في الكبر .

"هذا ويبين الطب البشري والنفسي قديماً وحديثا أن اكتمال أنوثة المرأة وجمالها إنما يحدث بعد الزواج لأن الحمل والولادة والإرضاع عمليات حيوية لتنشيط غدد المرأة الأنثوية فتؤدي وظيفتها على خير وجه"([1]).

وهذا ما أدركه كثير من الأطباء والباحثين، ومن هؤلاء الدكتور الكيس كارل في كتابة الإنسان ذلك المجهول يقول : "أنه حتى هذه الأيام لم ينضج فكر الإنسان ولم يشعر على الوجه التام بما لوظيفة التوليد من الأهمية في حياة المرأة، إن قيام المرأة بهذه الوظيفة لا مندوحة عنه لكمالها القياسي، فما تحريف النساء عن التوليد ورعاية الطفل إلا حماقة شنيعة لا يقدم عليها عاقل"([2]).

المطلب الخامس: الجهاد في سبيل الله.

الجهاد في سبيل الله من ضمن الأشياء التي يخشى منها الغرب خشيةً كبيرة، ويخشى من اللحظة التي يكون فيها المسلمون مهيئين للقيام والنهوض بها، والجهاد في اللغة هو ما جهد الإنسان من مرض أو أمر شاق([3])، وهو بذل واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل([4])، وفي الشرع الجهاد هو بذل الجهد من المسلمين في قتال الكفار المعاندين المحاربين، والمرتدين، والبغاة ونحوهم، لإعلاء كلمة الله تعالى([5]). ويكون الجهاد فرض عين في ثلاث حالات[6]:

١ – إذا حضر المسلم المكلف القتال والتقى الزحفان وتقابل الصفان، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ الله كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ﴾ (الأنفال:٤٥). وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ *وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً

---

[1] حقوق الطفل في الإسلام، جودة محمد عودة، ص٢٢، الطبعة الأولى، دار الفضيلة، جمهورية مصر العربية، ١٤١٨هـ-١٩٩٩م.

[2] الإنسان ذلك المجهول، ألكسي كارل، ترجمة: عادل شفيق، ص٥٥، الطبعة الثالثة، الدار المصرية العامة للكتاب، جمهورية مصر العربية، ١٩٨٠م.

[3] انظر: لسان العرب، جـ٢، ص٢٣٩.

[4] انظر: النهاية في غريب الحديث والآثار، عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، جـ١، ص٣١٩، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

[5] انظر: المغني، موفق الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي وعبد الفتاح الحلو، جـ١٣، ص١٠، الطبعة الثانية، دار عالم الكتب، المملكة العربية السعودية، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

٦ انظر: المغني لابن قدامة، جـ٣، ص١٨.

لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ الله وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (الأنفال:١٤-١٥).
وذكر النبي ﷺ أن التولي يوم الزحف من السبع الموبقات[١].

٢ – إذا حضر العدو بلداً من بلدان المسلمين تعين على أهل البلاد قتاله وطرده منها، ويلزم المسلمين أن ينصروا ذلك البلد إذا عجز أهله عن إخراج العدو ويبدأ الوجوب بالأقرب فالأقرب[٢]، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ الله مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة:٢٦).

٣ – إذا استنفر إمام المسلمين الناس وطلب منهم ذلك، قال الله تعالى: ﴿انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ الله ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (التوبة:٤١)، وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ الله اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ (التوبة:٣٨).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: "لا هجرة بعدَ الفتحِ ولكن جهادٌ ونيَّةٌ، وإذا استُنْفِرْتُم فانفِروا"[٣].

وإذا كان الجهاد في الإسلام ينقسم إلى ثلاثة أنواع: النوع الأول هو جهاد الكفار وهو جهاد الطلب وجهاد الدفع، والنوع الثاني: جهاد المنافقين، والمرتدين[٤] والنوع الثالث: جهاد البغاة المعتدين الذين يخرجون على الإمام المسلم ولهم تأويل سائغ وشوكة، وفيهم منعة وقوة[٥]، فإن الجهاد الذي يخشاه الغرب هو جهاد الطلب بالذات، جهاد الفتوحات الإسلامية، وحول هذا النوع من الجهاد الإسلامي يدندن الغرب ليبين الخطر الإسلامي القادم، ليبين ألا حوار مع الإسلام، إذ الإسلام دين يتسم بالإرهاب، ويدعو إلى قتل الآخرين والسيطرة عليهم([٦])، والحقيقة أن المسلمين منقسمون في الرأي حول هذا النوع من الجهاد، فالذين يتبنون حتمية صدام الحضارات منهم، يقولون بأن الإسلام جاء فعلاً ليقوض الحضارة الغربية، وأنه حال قام للمسلمين دولة، فإن هذه الدولة ستمنح الغرب خياراتٍ ثلاثة، إما الإسلام وإما الجزية وإما السيف، وعلى الطرف الآخر

---

١ انظر: صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب قوله تعالى "إن الذين يأكلون أموال اليتامى"حديث رقم ٢٧٦٦، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان، حديث رقم ٨٩.

٢ انظر: فتاوى شيخ الإسلام، جـ٥، ص٤٤٨.

٣ صحيح البخاري، كتاب الإمارة، باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد، حديث رقم ١٣٥٣.

٤ انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم الجوزية، جـ٣، ص١٠٠، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، الجمهورية العربية السورية، ١٤٢٠هـ٢٠٠٠م.

٥ انظر: المغني، جـ١٢، ص٢٣٧.

٦ انظر: صدام الحضارات، ص٣٥.

يتواجد القائلون بأن الجهاد في الإسلام جهاد دفاعي، لا يدعو ولا يبدأ القتال مع أحد إلا إذا تم الاعتداء على المسلمين، ولكلٍ من الفريقين أدلته التي يبرر فيها موقفه.

أدلة القائلين بهجومية الحرب في الإسلام

جمهور العلماء الأقدمين يقولون بهجومية الحرب في الإسلام، و"لم يُخالف في هذه المسألة إلا نزر يسير من العلماء مثل أبو جعفر النحاس الحنفي، وقد انتشر القول بدفاعية الحرب في الإسلام مع بدايات القرن العشرين على يد مجموعة من علماء الأزهر مثل الشيخ محمد عبد الله دراز، والشيخ محمد أبو زهرة والشيخ المراغي وآخرين"([1])، "إلا أن القول بهجومية الحرب في الإسلام لازال قولاً مشهوراً ومنتشراً حتى زماننا هذا، يقول به عددٌ لابأس به من المعاصرين"([2]) وهؤلاء يبدؤون دعواهم الهجومية بأن سبب الجهاد هو كفر المخالفين، سواء كان هؤلاء المخالفون مسالمين أو محاربين، فكونهم كفاراً يبيح للمسلمين منحهم ثلاث خيارات، أولاها الإسلام، فإذا أسلم المخالفون كُفَ عن قتالهم، وثاني الخيارات هو الجزية، أي أن يدفعوا الجزية للمسلمين عن يد وهم صاغرون، وإلا قوتلوا، إذ أن: "سبب الجهاد ليس الجزية، وإن كنا عند قبول الجزية نكف عنهم، وإنما سبب الجهاد هو كون الذين نقاتلهم كفاراً امتنعوا عن قبول الدعوة([3])" ويستشهد هؤلاء بمجموعة من الآيات والنصوص منها:

١-قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣ ﴾ (البقرة: ١٩٣). والآية واضحة في استمرارية القتال ما دامت الفتنة موجودة، "فالله تعالى أمر بقتالهم ثم بين العلة التي بها أوجب قتالهم، فقال :"حتى لا تكون فتنة" ويخلص الدين الذي هو دين الله من سائر الأديان، وإنما يحصل هذا المقصود إذا زال الكفر بالكلية"([4]).

وقوله واضح بأن علة القتال هي الفتنة وهي كفر هؤلاء الناس، سواء كانوا كفاراً مسالمين أو محاربين.

---

[1] انظر: فقه الجهاد للقرضاوي، جـ١، ص٧٠.

[2] أحكام الحرب في الإسلام وخصائصها الإنسانية، وهبة الزحيلي، ص١٥، الطبعة الأولى، دار المكتب للنشر والتوزيع، سوريا، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

[3] الشخصية الإسلامية، تقي الدين النبهاني، جـ٢، صـ١٤٦، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م.

[4] التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي الشافعي، جـ١٥، صـ١٣١، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م.

٢–آية السيف التي نسخت نحو مائة وأربع عشرة آية، وهي توجب قتال المشركين المسالمين والمعادين منهم، العجيب أن الذين استدلوا بآية السيف اختلفوا في تعيينها([1])، لكن أكثرهم قال بأنها آية: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ (التوبة: ٥) بمعنى "إن تابوا وأقاموا الصلاة، أي تابوا عن الشرك الذي هو سبب القتل وحققوا التوبة بفعل ما هو من أعظم أركان الإسلام وهو إقامة الصلاة .. اتركوهم وشأنهم فلا تأسروهم ولا تحصروهم ولا تقتلوهم"([2]).

٣–قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (التوبة: ٣٦). وتعلق القائلون بهجومية الحرب في الإسلام بكلمة كافة، حيث قالوا بأن الآية واضحة في الأمر بمقاتلة كافة المخالفين، مسالمين أم معادين "وقاتلوا المشركين كافة أي جميعا"([3]).

٤–قوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (التوبة: ٢٩) والآية واضحة في إثبات قتال الكافرين، والآية عامة فتعم كل الكافرين، قال ابن قدامة في تعليقه على هذه الآية: "ويقاتل أهل الكتاب والمجوس حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون([4])" وقال شيخ الإسلام: "كل طائفة خرجت عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها وإن تكلمت بالشهادتين"([5]).

٥–مجموعة من الأحاديث التي يثبت ظاهرها وجوب مبادأة المخالفين بالجهاد، مثل حديث ابن عمر عن النبيﷺ: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق

[1] فقه الجهاد، دراسة مقارنة لأحكامه وفلسفته في ضوء القرآن والسنة، يوسف القرضاوي، ص٢٦٨، جـ١، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠٠٩م.

[2] فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الإمام الشوكاني، تحقيق عبد الرحمن أبو عميرة، جـ٢، صـ ٣٥٧، الطبعة الأولى، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، مصر، ١٩٩٤م.

[3] فتح القدير، جـ٢، صـ٣٧٨.

[4] الكافي في فقه الإمام أحمد بن حنبل، ابن قدامة المقدسي، تحقيق محمد حسن الشافعي، جـ٤، صـ ١٤٩، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، لبنان، ٢٠٠١م.

[5] مجموعة الفتاوى، تقي الدين أحمد بن تيمية، تخريج عامر الجزار وأنور الباز، جـ٢٨، صـ٢٧٨، الطبعة الأولى، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، مصر، ١٩٩٧م.

الإسلام وحسابهم على الله"([1])، ودلالة الحديث واضحة في قتال كل الكفار، الوثنيين وأهل الكتاب منهم، يقول الإمام النووي: "معلوم أن المراد بهذا أهل الأوثان دون أهل الكتاب لأنهم يقولون: لا إله إلا الله، ثم يقاتلون ولا يرفع عنهم السيف"([2]) وقال ابن حجر: "حتى يشهدوا، جعلت غاية المقاتلة وجود ما ذكر"([3]) يقصد الإسلام وإلا القتل.

٦–ومن ضمن الأدلة التي استدل بها الهجوميون فعل الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم، وهو الفتوحات الإسلامية وهي كانت حروب هجومية لا دفاعية.

ردود القائلين بدفاعية الحرب في الإسلام:

"انتشر القول بدفاعية الحرب في الإسلام مع بدايات القرن العشرين على يد مجموعة من علماء الأزهر مثل الشيخ محمد عبد الله دراز، والشيخ محمد أبو زهرة والشيخ المراغي وآخرين"([4])

والحقيقة أن جملة من العلماء المعاصرين تنحو هذا النحو، مثل الشيخ القرضاوي، والشيخ البوطي والشيخ وهبة الزحيلي([5]).

١– أما ردهم فيما يتعلق بقوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ (البقرة: ١٩٣) فهو يعتمد على تفسير الفتنة نفسها، هل الفتنة تعني هنا الكفر، أم تعني استقواء الكافرين وإيذائهم وفتنتهم المؤمنين للعودة عن دين الإسلام، وواضح أنه لو فُسرت الفتنة بالكفر لكان ذلك داعماً للرأي القائل بهجومية الحرب، إذ يكون معنى الآية قاتلوا حتى لا يكون هناك كفر أو شرك على وجه الأرض. لكن ماذا لو كان معنى الفتنة هو إيذاء المؤمنين وإكراههم وفتنتهم عن دينهم، وهذا هو ظاهر السياق، لأننا لو قلنا الفتنة هنا بأنها الكفر، لكان ذلك عاماً يشمل المشركين وأهل الكتاب، ولكننا نعلم أن الله عزوجل أمرنا بكف الأيدي عن أهل الكتاب بالجزية مثلاً، ولم يقبل من مشركي العرب سوى الإسلام. إذن تفسير الفتنة هنا بالتفسير الثاني أولى، بمعنى أيها المسلمون قاتلوا المشركين حتى يكفوا عن إيذائكم في

---

[1] صحيح البخاري مع كشف المشكل، ابن الجوزي، كتاب الإيمان، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، حديث رقم: ٢٥، الطبعة الأولى، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٠م.

[2] صحيح مسلم بشرح النووي، الإمام النووي، جـ١، صـ١٨٤، مكتبة العلم، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

[3] فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاي، جـ١، صـ ٩٦، مكتبة الصفا، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.

[4] انظر: فقه الجهاد للقرضاوي، جـ١، ص٧٠.

[5] انظر: فقه الجهاد للقرضاوي، ص٥٢، وأحكام الحرب في الإسلام للزحيلي، ص١٢.

دينكم، حتى تكونوا أحرار في اختيار دينكم، هذا التفسير هو الأقرب للسياق. وبالتالي فلا معنى للاستدلال بالآية على قتال كل الكافرين، فالصواب هو قتال الذين يفتنونكم عن دينكم([1]).

٢-آية السيف: إذا كان الهجوميون اعتمدوا على آية السيف في دعواهم الهجومية، وقولهم أن هذه الآية نسخت كل الآيات التي تدعو للحوار والسلم مع المخالفين، فإن الدفاعيين قد اعتمدوا على عدة ردود فيما يتعلق بآية السيف منها:

-يعيب الدفاعيون على الهجوميين، أنهم لا يستطيعون بحال أن يحددوا آية السيف من القرآن([2])، فكل الذي اتفقوا عليه أنها آية من سورة التوبة اختلفوا في تعيينها، فهل هي آية:﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴿٥﴾ ﴾(التوبة:٥) أم قوله تعالى:﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾(التوبة:٣٦). أم هي قوله تعالى:﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (التوبة:٢٩).

-ومما يعيبه الدفاعيون على الهجوميين أيضاً هو التساؤل: كيف لآية واحدة اختلف في تعيينها أن تنسخ هذا الجم الغفير من الآيات التي يفيد ظاهرها بعدم جواز مبادأة المسالمين من الكفار بالقتال، خاصةً وأن تعداد هذه الآيات بلغ مائة وأربع عشرة آية في أقل تقدير.

-من هم المشركون المقصودون بالآية: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴿٥﴾ ﴾(التوبة:٥) ، هل هم كل المشركين؟ أم صنف من المشركين تحدثت عنه الآيات بعد ذلك: كان بينهم وبين النبي عليه السلام عهد فنقضوه، وظاهروا عليه أعداءه، وقد برئ الله ورسوله منهم، وآذنهم بالحرب إن لم يتوبوا. وإلا فهذا قوله تعالى في الآية التي تلت آية السيف([3])﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ ﴾(التوبة: ٧)

---

[1] انظر: أحكام الحرب في الإسلام وخصائصها الإنسانية، وهبة الزحيلي، ص٥٥، الطبعة الأولى، دار المكتب للنشر والتوزيع، سوريا، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

[2] انظر: فقه الجهاد للقرضاوي، ج١، ص٢٦٨، ٢٦٩.

[3] نقصد هنا الآية التي رجحها جمهور العلماء على أنها هي آية السيف وهي قوله تعالى:" " فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم"

٣- أما رد الدفاعيين على استدلال الهجوميين بقوله تعالى:﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (التوبة: ٣٦) فهو يعتمد على تفسير كلمة "كافة"، هل المقصود بالكلمة جميعاً كما يقول الهجوميون أم أن معناها: قاتلوهم مجتمعين غير متفرقين، كما يقاتلونكم مجتمعين غير متفرقين، يقول الإمام الرازي: "في قوله كافة قولان: الأول: أن يكون المراد قاتلوهم بأجمعكم مجتمعين على قتالهم كما أنهم يقاتلونكم على هذه الصفة، يريد تعاونوا وتناصروا على ذلك ولا تتخاذلوا ولا تتقاطعوا وكونوا عباد الله متوافقين في مقاتلة الأعداء. والثاني قول ابن عباس رضي الله عنه قاتلوهم بكليتهم ولا تحابوا بعضهم بترك القتال، كما أنهم يستحلون قتال جميعكم. والقول الأول أقرب حتى يصح قياس أحد الجانبين على الآخر"([1]). ويمكن نفي مراد المهاجمين هنا بالقاعدة الأصولية المشهورة: إذا تطرق الدليل للاحتمال سقط به الاستدلال([2]).

٤-أما فيما يتعلق باستدلال الهجوميين بقوله تعالى:﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (التوبة: ٢٩) فقد أجاب الدفاعيون عنها بقولهم أن هذه الآية نزلت بعد غزوة تبوك والتي كان المسلمون يريدون فيها قتال الروم النصارى، " وهذه الآية لا يجوز أن تُقرأ منفصلة عن سائر الآيات الأخرى في القرآن، فإذا وجد في أهل الكتاب من اعتزل المسلمين، فلم يقاتلوهم ولم يظاهروا عليهم عدوا، وألقوا إليهم السلم، فليس على المسلمين أن يقاتلوهم وقد قال الله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾ ﴾ (النساء: ٩٠) ([3]).

٥-أما حديث:" "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله"، فقد بنى الدفاعيون ردهم من خلال التساؤل: من هم "الناس" المقصودون بالحديث، هل هم كل الكفار، المشركين الوثنيين واليهود والنصارى، ونفوا هم هذا المعنى بالتأكيد، إذ قالوا أن اليهود والنصارى هم من الناس إلا إنهم تقبل منهم الجزية دون الإسلام ولا

---

[1] التفسير الكبير، الرازي، ج١٦، ص٤٤.

[2] انظر نص القاعدة: نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد المختار، الإمام الشوكاني، ج٢، ص٤١٥، الطبعة الأولى، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٠م.

[3] فقه الجهاد للقرضاوي، ج١، ص٢٩٦.

يقاتلون، ومن ثم سألوا إن كانت كلمة الناس تعم الوثنيين، وقالوا بالتأكيد لا، لأن المجوس وثنيون إلا إنهم مستثنون من هذا العموم لقول النبي عليه السلام: "سنوا بهم سنة أهل الكتاب"([1]) يقول الشيخ محمد الغزالي: "الحق أن الحديث في مشركي العرب الذين ضنوا على الإسلام وأهله بحق الحياة ولم يحترموا معاهدة مبرمة ولا موثقاً مأخوذا"([2]). على العموم فإن هذا الحديث لا يشكل قدحاً لنظرية الدفاعيين، لأن نظريتهم تلتئم عراها بهذا الحديث، إذ من الممكن أن يحمل هذا الحديث على الحالة التي تكون فيها الحرب قائمة، وفي هذه الحالة يكون إسلام الكفار سبباً لرفع السيف عنهم.

٦-أما بالنسبة لدليل الفتوحات الإسلامية، وقول الهجوميين أن النبي عليه السلام كان في أغلب غزواته هو البادئ في الهجوم لا العكس، فهذا فيه تجنٍ كبير، ولا أفضل هنا من أن ننقل كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الموضوع، يقول شيخ الإسلام في كتابه قاعدة في قتال الكفار:"وكانت سيرته أن كل من هادنه من الكفار لا يقاتله، وهذه كتب السيرة والحديث والتفسير والفقه والمغازي تنطق بهذا وهذا متواتر من سيرته"([3]). ويقول أيضاً:" وأما النصارى فلم يقاتل أحداً منهم إلى هذه الغاية، حتى أرسل رسله بعد صلح الحديبية إلى جميع الملوك، يدعوهم إلى الإسلام، فأرسل إلى قيصر، وإلى كسرى، والمقوقس والنجاشي، وملوك العرب بالشرق والشام، فدخل في الإسلام من النصارى وغيرهم من دخل، فعمد النصارى بالشام فقتلوا بعض من أسلم من كبرائهم بمعان"([4]).

أدلة القائلين بدفاعية الحرب في الإسلام

انتشر القول بدفاعية الحرب في الإسلام مع بدايات القرن العشرين على يد مجموعة من علماء الأزهر مثل الشيخ محمد عبد الله دراز، والشيخ محمد أبو زهرة والشيخ المراغي وآخرين([5])، وهؤلاء يبدؤوا دعواهم بالإنكار على القائلين بأن آية السيف نسخت ١١٤آية من القرآن الكريم، إذ كيف لهذه الآية الواحدة أن تنسخ هذا الجم الغفير من الآيات التي تثبت بدورها

---

[1] موطأ مالك، كتاب الجزية، حديث رقم: ٦١٦، وصححه الألباني.

[2] علل وأدوية، محمد الغزالي، ص٢٦١، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، جمهورية مصر العربية، ١٤٢٨هـ-١٩٩٨م.

[3] قاعدة مختصرة في قتال الكفار ومهادنتهم وتحريم قتلهم لمجرد كفرهم، ابن تيمية، تحقيق: عبد العزيز آل أحمد ص١٣٤، الطبعة الأولى، دار نهضة مصر، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٤م.

[4] المرجع السابق، ص١٣٤.

[5] انظر: فقه الجهاد للقرضاوي، جـ١، ص٧٠.

أن الحرب دفاعية([1])، والتي سنفصل القول فيها بعد قليل، ولهؤلاء مستند قوي في نفي النسخ، وفقاً للقاعدة المشهورة عند أهل الأصول، النسخ لا يثبت بالاحتمال([2]).

أما أدلتهم فهي كالتالي:

١-قوله تعالى:﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ ﴾ (البقرة:١٠٩) "فشرع الله قتال من قاتلنا، ومفهومه عدم قتال من لم يقاتلنا، ونهي الاعتداء ومنه قتال من سالم"([3]). ولعل تعليل النهي عن مبادأة العدو بالقتال بقوله تعالى :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ ﴾ (البقرة: ١٩٠) ، فيه دليل واضح على دفاعية الحرب في الإسلام، لأن الحكم هنا معلل، ولو كان هذا الحكم منسوخاً لنسخت علته، أي لأضحى معنى الآية أن الله يحب المعتدين-تعالى الله-، وهذا ممتنع.

٢-قوله تعالى في سورة النساء:﴿ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ٩٠ ﴾ (النساء:٩٠).

٣-قوله تعالى:﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ ﴾ (الممتحنة: ٨)

٤- القراءة الصحيحة لفتوحات المسلمين أنها كانت رداً لعدوان، أو منعاً لفتنة المؤمنين، أو كانت عمليات وقائية بالنسبة للمسلمين، أو تحريراً لشعوب مستضعفة من ظالميهم([4]).

٥-بيان أن علة القتال هي : الاعتداء والحرب والفتنة في الدين، وليست مجرد الكفر لقوله تعالى:﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦ ﴾ (الكافرون: ٦) "([5]).

وعليه فالمسألة خلافية حول طبيعة العلاقة المفترضة بين الإسلام والغرب، فالذين يقولون بأن العلاقة علاقة حرب، يأتي قولهم هذا منسجماً مع الادعاءات الغربية الخائفة من الإسلام، بينما يأتي القول بأن الحرب دفاعية في الإسلام منسجماً مع القائلين بنظرية حوار الحضارات مع الغرب.

ويمكن القول أن الرأي القائل بأن الحرب في الإسلام دفاعية أقرب إلى الصواب، لأنه يتماهى مع سماحة الإسلام، ومع طبيعته كدين يصلح للتطبيق في كل زمان ومكان، فلو سلمنا أن العلاقة

---

[1] انظر: فقه الجهاد للقرضاوي، ص٢٠٨.

[2] انظر: الأم، الإمام محمد بن ادريس الشافعي، تحقيق: رفعت فوزي عبد المطلب، جـ٣، ص١٨٨، الطبعة الثانية، دار الوفاء للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٤١٠هـ١٩٩٠م.

[3] فقه الجهاد للقرضاوي، ص٤٠٥.

[4] انظر: فقه الجهاد ليوسف القرضاوي، ص٤٠٧، وآثار الحرب في الإسلام للزحيلي، ص٨٢.

[5] المرجع السابق، ص٤٠٧.

التي تجمع المسلمين مع غيرهم علاقة أصلها السيف، لكان هذا ممكنا فيما انقضى من أزمان، وما عاد هذا صالحاً في زماننا الذي انقلب فيه السيف إلى قنابل لها القدرة على تدمير الكرة الأرضية مرات ومرات.

كما أن الآيات التي تُحدد العلاقة مع أهل الكتاب غالباً ما جاءت معللة، فقوله تعالى:﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ البقرة: ١٩٠ نهيٌ معلل، وهذه العلة متمثلة بقوله تعالى : إن الله لا يحب المعتدين، ولو كان هذا الحكم منسوخاً لنسخت علته، أي لأضحى معنى الآية أن الله يحب المعتدين–تعالى الله–، وهذا ممتنع.

والذي يُمكن الإشارة إليه هنا أن الإسلام لا يبدأ الآخرين بالعدوان أو القتال، لأنه دين قائم على الإقناع قبل أي شيء، وهذا ما يبدو جلياً في معجزته القرآنية التي جاءت على خلاف كل المعجزات المادية الأخرى، والمتأمل في سيرة النبي ﷺ يلحظ بوضوح أنه لم يبدأ أحداً بالقتال طيلة حياته، وأن الخلفاء الراشدين المهديين من بعده عندما هاجموا قوات الفرس والروم في ذلك الزمان، قاتلوها لأن هذه الدول كانت تتربص بالمسلمين الدوائر، وتحول بين رسالة الإسلام وتبليغها إلى الشعوب المقهورة والمضطهدة.

الفصل الثاني: الأساليب الغربية العدائية ضد الإسلام

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الأساليب العدائية التقليدية

المبحث الثاني:الأساليب الغربية العدائية المستجدة

مقدمة:

العداء الغربي للإسلام كان منذ البدايات الأولى للدعوة الإسلامية، أما الوسائل فقد تنوَّعت وتعددت وفقاً للإمكانات والقدرات التي تتيحها الظروف البيئية والاجتماعية للغرب، فإذا كان مبنى العلاقة في البداية قائماً على السيف، بدايةً بمعركتي تبوك ومؤتة في التاريخ القديم، ومرورا بالحروب الصليبية في القرون الوسطى، فإن الغرب في العهد الحديث حافظ على بعضٍ من الوسائل التقليدية، واستلهم بعضاً من الوسائل المستجدة لمحاربة الإسلام والمسلمين.
أما الأساليب التقليدية للغرب في محاربة الإسلام فهي تتمثل في الاستشراق والاستعمار والتغريب والتحالف مع اليهود وبعض المنتسبين للمسلمين هويةً وللغرب عقيدةً وانتماءً.

المطلب الأول: الاستشراق

الاستشراق لغةً

استشرق من الفعل "شرق" يقال : شرقت الشمس أى طلعت، واسم الموضع المشرق، والشرق : المشرق، والجمع إشراق. والتشريق الأخذ في ناحية المشرق، يقال : شتان بين مشرق ومغرب، وشرقوا: أي ذهبوا إلى الشرق أو أتوا الشرق، وكل ما طلع من المشرق فهو شرق([1]).

الاستشراق اصطلاحاً:

تعددت التعريفات لمصطلح الاستشراق باختلاف الناظرين إليه، لكن يمكن القول أن الاستشراق هو "منظومة فكرية متخصصة في دراسة الشرق، ويمكن أن تكون هذه المنظومة قد قامت على إعداد الموظفين والدبلوماسيين والضباط والاستخبارات وممثلي المؤسسات التجارية والاستثمارت وأحياناً الجمعيات العلمية الصرفة"([2]). "أو هو أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودي ومعرفي بين الشرق والغرب، وبإيجاز: الاستشراق هو أسلوب غربي للسيطرة على الشرق واستبنائه وامتلاك السيادة عليه"([3]). وهو علم الشرق أو علم العالم الشرقي، وهو تعبير أطلقه الغربيون على الدراسات المتعلقة بالشرقيين شعوبهم، وتاريخهم، وأديانهم، ولغاتهم، وأوضاعهم الاجتماعية، وبلادهم، وأرضهم، وحضارتهم، وكل ما يتعلق بهم. وهذا معنى عام للاستشراق، وهناك معنى خاص كان يشير إلى أن هدف المستشرقين الأساس هو : دراسة الإسلام والشعوب

---

[1] انظر: القاموس المحيط، مجد الدين الفيروز أبادي، جـ١، ص٢٤١، الطبعة الثانية، دار المعرفة، لبنان، ٢٠٠٧م، ومختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، ص ٣٣٦، الطبعة الأولى، دار المعرفة، لبنان، ٢٠٠٥م.

[2] المورد، منير البعلبكي، ص٣٦٨.

[3] الاستشراق، ادوارد سعيد، ص٣٨.

الإسلامية لخدمة أغراض التبشير من جهة، وخدمة أغراض الاستعمار الغربي لبلدان المسلمين من جهة أخرى، ولإعداد الدراسات اللازمة لمحاربة الإسلام وتحطيم الأمة الإسلامية([١]).

وحسب هذا التعريف يكون للاستشراق موقف عقائدي وفكري معاد للإسلام يقفه الكافرون بهذا الدين بوجه عام، وبعض أهل الكتاب من اليهود والنصارى بوجه خاص.

وهذا الموقف – فى جوهره النابع من العداوة في العقيدة – ليس بجديد وإنما هو امتداد لموقف أسلافهم الكافرين بالإسلام من المشركين وأهل الكتاب، منذ ظهور الإسلام وحتى اليوم : وهو موقف الإنكار للرسالة، والتكذيب للرسول ﷺ، وإثارة الشبهات حول الإسلام وحول القرآن والرسولﷺ وسنته المطهرة بوجه خاص، لتشكيك المسلمين فى دينهم، ومحاولة ردهم عنه، وقد تختلف وسائل المشركين ووسائل أهل الكتاب، ولكنهم – فى نهاية المطاف – يلتقون حول الهدف : وهو محاولة منع الخير – وهو الإسلام – عن المسلمين، ومحاولة ردهم عنه كما قال الله تعالى:﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥ ﴾ (البقرة: ١٠٥).

وقد ألف المستشرقون من منتصف القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين ستين ألف كتاب([٢])، يغلب على معظمها النيل من الإسلام وثوابته، فكتابات المستشرقين في أغلبها تهدف إلى توهين القيم الإسلامية، والتشكيك بكل الثوابت الدينية والتاريخية المتعلقة بالإسلام وأمثلة ذلك:

- فهناك من المستشرقين مَن زعم أن القرآن كتاب يهودي أو مسيحي سرقه محمد ﷺ، وأن محمد ﷺ استقى معلوماته من صاحبيه صهيب الرومي وسلمان الفارسي ﷺ وزوجته مارية القبطيةﷺا، وهذه الافتراءات كان المستشرق الفرنسي جيوم من أشد المنادين لها. ([٣]).
- التشكيك في صحة الحديث النبوي، متذرعين بأن الحديث النبوي دخلت عليه يد الوضاعين والدساسين، متجاهلين دور علماء المسلمين بالذود عنه، وقد أفرد المستشرق هافلنج كتاباً بأكمله ليثبت ذلك([١]).

---

[١] انظر: كتابات أعداء الإسلام ومناقشتها، عماد السيد محمد إسماعيل الشربيني، ص١١٦، الطبعة الأولى، دار الكتب المصرية، ١٤٢٢القاهرة، هـ–٢٠٠٢م. أَجْنِحَةُ المَكْرِ الثَّلَاثَةُ وَخوافيهَا، التبشير – الاستِشراق – الاستِعمار، عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني، ص٣٧، الطبعة الثامنة، دار القلم، دمشق–سوريا.

[٢] انظر: سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ص١١٠.

[٣] انظر: الإسلام والمستشرقون، عبد الجليل شلبي، ص٣٣، الطبعة الأولى، مكتبة الشعب للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٦٢م.و المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، محمد البهي، ص٢١، الطبعة الأولى، مطبعة الأزهر للنشر، جمهورية مصر العربية، ١٩٧٨م

- التشكيك بقيمة الفقه الإسلامي الذاتية، ذلك التشريع العظيم الذي لم يجتمع مثله لجميع الأمم([2])، وقد عقدت جامعة السوربون عدة مؤتمرات لتؤكد ذلك([3]).

- التشكيك في قدرة اللغة العربية على مجاراة التطورات البشرية، والتشكيك في غنى الأدب العربي، وبذلك تشعر الأمة الإسلامية بفضل الغربيين عليها، وقد بدأت الفرية هذه على يد المستشرق بارزاك وزملاؤه، ولقد آذاناً صاغية عند كثير من علمانيي العرب ([4]).
- التشكيك في تاريخ المسلمين، والنيل من ذرى المسلمين العالية المتمثلة بالصحابة رضي الله عنهم والسلف من بعدهم، ومن أشد المستشرقين اهتماماً بهذا الموضووع المستشرق هافلنج([5]).
- إضعاف روح الإخاء الإسلامي بين المسلمين في مختلف أقطارهم، عن طرق إحياء العرقيات والنعرات الجاهلية، خاصة في النصف الأول من القرن العشرين، فقد نبَّش المستشرقون في الحضارات الجاهلية القديمة، لإحياء معارفها من ذلك: بعث الفرعونية في مصر، والفينيقية في سوريا، والآشورية في العراق، والفارسية في إيران، والطورانية في تركيا، أمَّا الجزيرة العربية فلقد بحثوا في آثار السَّابقين، وأسموا دراستهم " التاريخ الحضاري للعرب قبل الإسلام"، وتعمدوا بذلك إظهار الحضارات القديمة ليطفئوا نور الإسلام، وأنَّ الإسلام ليس وحده هو الذي قدَّم الحضارة الإنسانية([6]).

نشأة الاستشراق

يرجع تاريخ نشأة الاستشراق في البلدان الأوروبية إلى القرن الثالث عشر الميلادي، وذلك بعد فترة الإصلاح الديني التي شهدتها أوروبا([7]). لكن بعض الباحثين يرون أن نشأة حركة الاستشراق ولدت منذ أن دقت جيوش الفتح الإسلامي أبواب أوروبا، فأخذ الأوروبيون يبحثون عن أسباب نهضة المسلمين وسر بلوغها هذا المجد فدرسوا علوم العرب المسلمين الشرقيين، وفي

---

[1] انظر :سيرة الرسول في تصورات الغربيين... فصول مختارة من كتابات المستشرق الألماني جوستاف بفانموللر، تعريب: محمود حمدي زقزوق، ص١١٠، مجلة مركز بحوث السنة والسيرة، العدد الثاني، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

[2] انظر: الفكر الإسلامي في مواجهة الفكر الغربي للراوي، ص٣١٠، و الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية ، سعيد عبد الفتاح عاشور، جـ٢، ص٥٥، الطبعة الثالثة، منشورات مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطا، ١٩٩٥م.

[3] انظر: الفكر الإسلامي في مواجهة الفكر الغربي للراوي، ص٣١٠.

[4] انظر: المرجع السابق، ص٣١٠.

[5] انظر :المرجع السابق، ص٣١٠.

[6] انظر: الفكر الإسلامي في مواجهة الفكر الغربي للراوي ، ص٣١١.

[7] انظر: المرجع السابق، ص٥.

القرن الثامن توسعت حركة الاستشراق ونتج عن ذلك صدور العديد من المجلات المتخصصة في الدراسات الاستشراقية، وصحب ذلك الغارة على المخطوطات العربية، وشرائها من أصحابها الذين لا يدرون قيمتها أو سرقتها من المكتبات العامة ومن ثم نقلها إلى بلادهم([١]).

منهج المستشرقين في دراساتهم:

ليس غريباً أن تأتي المناهج التي اعتمدها المستشرقون في كتاباتهم منسجمة مع مناهج الفلاسفة، لأن المستشرقين أناسٌ وُلدوا في بلاد كانت الفلسفة تتبوأ فيها مكاناً كبيراً، و"إذا كانت عقلية الفيلسوف تعتمد على وضع الفكرة أولاً ومن ثم تجميع الأدلة لإثباتها، فقد كان هذا دأب المستشرقين دائماً، إذ كانت تنقدح الشبهة في أخيلتهم أولاً ومن ثم يعملون على لي أعناق الأدلة، لإثباتها"([٢]).

ويمكن القول أن منهج البحث لدى المستشرقيت اتصف بالصفات الآتية([٣]):

١-الاعتماد على الهوى والرغبة الشخصية في الانتقاص من المسلمين.

٢- وضع فكرة معينة في الذهن ومن ثم لَي أعناق المواقف والشواهد لتبدو خادمة لها.

٣-الاعتماد على الخيال والوهم المجرد في تفسير الوقائع وتحليل الحوادث والمفاهيم الدينية.

٤-جمع الشبهات وإثارة الشكوك حول الرسالة الإسلامية.

ولما كان أول أهداف الاستشراق الإساءة إلى الإسلام أولاً، فقد نقب المستشرقون في القرآن والسنة والسيرة النبوية، باحثين عن مبتغاهم، ومن خلال بعض النصوص التي تخدم ولو من بعيد أغراضهم وأهدافهم التشكيكية، نسجوا أقوالاً متهمة للإسلام، ولم يكتفوا، إذ أضحت هذه الأقوال حقائق ليست بحاجة إلى برهان.

فمثلاً كان سؤال المستشرقين دائماً "من أين جاء محمد بن عبد الله ﷺ بهذا القرآن؟ أَمن عند نفسه ومن وحي ضميره، أم من عند معلم ومن هو ذلك المعلم؟"([٤]) هذا التساؤل يحتمل عدة عدة إجابات، وما من دليل على عدم حيادية المستشرقين، سوى تبنيهم لكل الإجابات الممكنة، واستثنائهم لإجابة واحدة، هي كون هذا القرآن من عند الله عزوجل.

وإذا كانت السيرة النبوية تنطوي على جملة من الأحداث التي تُثبت نبوة محمد ﷺ فإن عقول المستشرقين لم تنصرف إلا إلى جملة من المواقف التي لا يثبت أو لا يثبت سندها للاتكاء عليها في غمرة تشكيكهم بالنبي.

---

[١] انظر: الفكر الإسلامي في مواجهة الفكر الغربي، ص٦.

[٢] سيرة الإسلام في تصورات الغربيين، ص٤٢.

[٣] انظر: واقعنا المعاصر والغزو الفكري، ص٦٩.

[٤] النبأ العظيم، ص٢٠.

فقالوا أن محمداً ﷺ استقى قرآنه ودينه وإسلامه، من لقائه ببحيرا الراهب[1]، متناسين جملة من الأمور التي تقدح في هذا الإدعاء منذ، وتحمل العقول على الانصراف عنه منذ البداية، "فهل تكفي هذه اللقيا العابرة لأن تُعلم شخصاً أمياً كل هذا العلم الذي جاء به؟ ثم ألم تكن هذه المقابلة بين محمد ﷺ والراهب بحيرا كانت في حضور أهل القافلة بأسرهم، فهل شهِد أيٌ من هؤلاء بأنه عليه السلام استقى علمه من بحيرا، خاصةً وأن منهم من ظل على كفره متصدياً للدعوة الإسلامية حتى الممات، وإذا كان المشككون المعاصرون يلجؤون لهذه القصة للتشكيك بربانية الرسالة، فلماذا لم يفعل ذلك كفار قريش المعاصرين للنبي ﷺ خاصةً وأن دواعي ذلك كانت متوفرة لهم وبصورة أكبر، والأهم من ذلك كله، لماذا لم يدعِ أيٌ من هؤلاء الأساتذة النبوة بدلاً من محمد عليه السلام؟ لماذا لم يدعِ بحيرا الراهب النبوة قبل محمد عليه السلام"([2]).

ناهيك عن جهل المستشرقين باللغة الغربية، وأساليبها، فقد ذهب هؤلاء إلى القرآن الكريم مغرورين بعقولهم، ليلتقطوا جملة من الآيات التي تُثبت أن هذا القرآن كتبه عليه السلام من غيره، فقد استدلوا بالآية القرآنية: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥ ﴾ **الفرقان: ٥**

فقالوا أن الآية واضحة في دلالتها، فمحمد ﷺ كتب القرآن، بمعنى أن محمداً كان يكتب وهذا يعني أنه لم يكن أمياً كما يزعم المسلمون، وقد فات هؤلاء أن هناك فارقاً كبيراً بين قوله: كتبها واكتتبها، فاكتتبها –الكلمة الواردة في الآية– تعني أنه أسند الكتابة لغيره"([3]).

دوافع الاستشراق

أولاً: الدافع الديني

يقول الدكتور محمد البهي([1]): يمكن القول أن الدافع الرئيس للاستشراق هو الدافع الديني في الدرجة الأولى، حيث وجد الأوروبيون أنفسهم في عهد الإصلاح الديني مضطرين للإطلاع

---

[1] بحيرا الراهب: هو الراهب الذي التقاه النبي عليه السلام عندما كان صغيراً في رفقة عمه أبي طالب قبل الإسلام، فعرف الراهب محمداً وورأى سيما النبوة بادية فيه، فحذر أبا طالب من اليهود. (انظر: سيرة ابن هشام، ج١، ص٣٥٦، و الجامع المختصر من السنن عن رسول اللهﷺ ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، كتاب المناقب عن رسول الله، باب ما جاء في بدء نبوة النبيﷺ، حديث رقم ٣٦٢٠، الطبعة الأولى، مكتبة المعرف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٧هـ. (صححه الألباني)

[2] النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز،ص٥٧، الطبعة الأولى، دار القلم، الكويت، ١٤٠٨هـ–١٩٨٨م.

[3] مدخل إلى القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، ص١٤٠، الطبعة الأولى، دار القلم، الكويت، ١٤٠٨هـ–١٩٨٨م.

على ثقافات أخرى تفوقهم تقدما، وذلك ليستعينوا بها على فهم كتب الدينية فهماً واقعياً متقدما، وبمرور الزمان اتسعت دائرة الدراسات الاستشراقية لتضم أديان وثقافات أخرى سوى الثقافة الإسلامية([2]).

ويمكن القول أن غاية الهدف الديني هي معرفة الإسلام لمحاربته وتشويهه وإبعاد النصارى عنه، وقد اتخذ النصارى المعرفة بالإسلام وسيلة لحملات التنصير التي انطلقت إلى البلاد الإسلامية، وكان هدفها الأول تنفير النصارى من الإسلام.

من جهة أخرى رغب المسيحيون في التبشير لدينهم، فأقبلوا على الدراسات الاستشراقية ليعينوا دعاة التبشير على فهم الدين الإسلامي، ومن ثم إرسالهم لبلاد المسلمين.

ثانياً: الدافع الاستعماري

التقت أهداف المبشرين مع مصلحة الاستعمار، فأعان المستعمرون دعاة التبشير أيما مساعدة، إذ أقنع المبشرون المستعمرين أن المسيحية ستكون قاعدة الاستعمار الغربي في الشرق([3]).

وكانت الوسائل الاستعمارية التي نادى بها المستشرقون في العالم الإسلامي تهدف كلها إلى إضعاف الروح الإسلامية بين الشعوب، وتعمل على بث الفرقة بين أبناء الشعب الواحد، ليسهل بعد ذلك السيطرة عليها، كما روج المستشرقون كذلك لبعض القضايا التي كان لها أخطر النتائج في ازدياد عوامل الفرقة بين صفوف المسلمين.

ثالثا: الدافع الاقتصادي

وبجانب هذا وذاك كانت هناك أسباب أخرى للتبشير، منها أسباب تجارية، إذ كان يبدو أن هناك بعضاً من المستشرقين دخلوا باب الاستشراق في غمرة بحثهم عن أماكن للرزق عندما ضاقت

---

[1] الدكتور محمد البهي: وزير الأوقاف المصري الأسبق أحد مفكري الإسلام في العصر الحديث، دعا إلى الإصلاح الديني بالعودة للأصول، وتتبع نشأة الفكر الإسلامي منذ بدايته حتى الوقت المعاصر مقارنا بينه وبين غيره من المذاهب الفكرية، متصديا للأفكار الهدامة وفاضحا الاستعمار ودوره في المجتمعات الإسلامية. وقد ترك البهي ثروة غنية من المؤلفات التي أثرت الفكر الإسلامي والمكتبة الإسلامية كان أكثرها أهمية كتابه "الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي" الذي كان له الفضل في التعريف به كمفكر إسلامي في الأوساط العربية والإسلامية(http://www.ikhwanonline.com/new/Article.ArtID=6438&SecID=2).

[2] انظر: المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، ص٧. والفكر الإسلامي في مواجهة الفكر الغربي للراوي، ص٣٠٥.

[3] انظر: التنصير :مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته، علي بن إبراهيم الحمد النملة، جـ١، ص٢، الطبعة الثالثة، مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر،١٤٢٤هـ. الفكر الإسلامي في مواجهة الفكر الغربي للراوي، ص٣٠٧.

بهم سبل الحياة في الغرب، فجاءوا إلى بلاد المسلمين طامعين بخيرات العالم الإسلامي، وأسواق العالم الإسلامي، ليظل المسلمون مستهلكين لا منتجين([1]).

كما أن أوروبا لما بدأت نهضتها العلمية والصناعية والحضارية كانت في حاجة إلى المواد الأولية الخام لتغذية مصانعها، فكان لا بد لهم أن يتعرفوا إلى البلاد التي تمتلك الثروات الطبيعية ويمكن أن تكون أسواقاً مفتوحة لمنتجاتهم . فكان الشرق الإسلامي والدول الأفريقية والآسيوية هي هذه البلاد فنشطوا في استكشافاتهم الجغرافية ودراساتهم الاجتماعية واللغوية والثقافية وغيرها.

وكانت هناك أسباب سياسية دبلوماسية، وأسباب شخصية مزاجية عند آخرين([2]).

رابعاً: الدافع العلمي

ما كان لأوروبا أن تنهض نهضتها دون أن تأخذ بأسباب ذلك، وهو دراسة منجزات الحضارة الإسلامية في جميع المجالات العلمية، فالغربيون لم يتركوا مجالاً كتب فيه العلماء المسلمون حتى درسوا هذه الكتابات وترجموا عنها([3]).

والحقيقة أن بعض المستشرقين اتجه إلى البحث والتمحيص لمعرفة الحقيقة خالصة، وقد وصل بعض هؤلاء إلى الإسلام ودخل فيه، مثل: توماس أرنولد الذي أنصف المسلمين في كتابه الدعوة إلى الإسلام، والمستشرق الفرنسي رينيه فقد أسلم وعاش في الجزائر وله كتاب أشعة خاصة بنور الإسلام مات في فرنسا لكنه دفن في الجزائر .

وسائل المستشرقين:

حاول المستشرقون أن يحققوا أهدافهم بكل الوسائل، ومما ساعدهم على ذلك تبني دولهم الرسمية لمشاريعهم، ودعمهم المادي والمعنوي لتحقيق أهدافهم، ويمكن إجمال هذه الوسائل في النقاط التالية:

١- ألفوا الكتب، وألقوا المحاضرات والدروس، وبشروا بالمسيحية في بعض الأحيان، وجمعوا الأموال وأنشئوا الجمعيات، وعقدوا المؤتمرات، وأصدروا الصحف، يقول الدكتور محمد البهي: "ولعل أخطر ما قاموا به في هذا الصدد هو إنشائهم مجلة: دائرة المعارف الإسلامية، ومن ثم قيامهم بترجمتها للغات عديدة، منها الترجمة العربية، وخطورة هذه المجلة تكمن في أن كثير من الكتاب العرب المستغربين يعتمدون عليها في دراستهم للتاريخ ويتأثرون بالشُبَه التي ترمي بها الإسلام وتشريعاته وعقائده"([4]).

---

[1] انظر: الفكر الإسلامي في مواجهة الفكر الغربي للراوي، ص٣٠٧.

[2] انظر: المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، محمد البهي، ١٢، ط١، مكتبة الأزهر، القاهرة، ١٩٦٠م.

[3] الفكر الإسلامي في مواجهة الفكر الغربي للراوي، ص٢١٢.

[4] المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام،ص١٧.

٢-قد حرص المستشرقون على إنشاء المدارس والجامعات الغربية في العالم الإسلامي، فمن ذلك الكلية الإنجيلية التي تحولت إلى الجامعة الأمريكية التي لها فروع في كل من القاهرة وبيروت واسطنبول ودبي، وقد كان الهدف من هذه المدارس والجامعات تنشئة أجيال من أبناء المسلمين يكونون جسراً بين الثقافة الغربية ومواطنيهم المسلمين، وقد استطاع الاستشراق تحقيق هذا النجاح بما توفر له من السيطرة على منابر الرأي في العالم الإسلامي فقد أنشأ الغرب العديد من المدارس، كما أن العديد من أبناء الأمة الإسلامية تلقوا تعليمهم على أيدي المستشرقين في الجامعات الغربية -الأوروبية والأمريكية-، ولمّا كانت بعض البلاد العربية والإسلامية خاضعة للاحتلال الأجنبي فقد مكّن لهؤلاء الذين تعلموا في مدارسه.

٣-إنشاء الصحف والمجلات المتناغمة مع الأفكار الغربية، "ومن هذه المنابر استطاع الغرب أن ينشر من خلالها الثقافة والفكر الغربيين وسائل الإعلام المختلفة من صحافة وإذاعة وتلفاز ونشر بأشكاله المتعددة، فقد أنشئت الصحف والمجلات التي تولى رئاسة تحريرها أو عملية الكتابة فيها كثير من الذين تشبعوا بالثقافة الغربية. وقد بذلوا جهوداً كبيرة للرفع من شأن تلاميذهم فهذا يطلق عليه "عميد الأدب العربي"، وآخر يطلق عليه "أستاذ الجيل"، وثالث يطلق عليه "الزعيم الوطني"، ومن هذه الصحف الأهرام ومجلات المقتطف وغيرهما من الصحف والمجلات. كما أنشئوا المسارح والسينما ، وأدخلوا إلى حياة الشعوب العربية الإسلامية فنون اللهو غير المباح من مراقص وغناء وغير ذلك"([١]).

أثر المستشرقين في العالم الإسلامي

- شعور كثير من المسلمين بضعفهم، ونقص إمكاناتهم، وتأخرهم عن غيرهم في العصر الحديث، ونسبة كل الإيجابيات إلى الغرب.([٢])
- تبعية كثير من الكتَّاب والباحثين فكرياً لهم، ودفاعهم عن مبادئهم ومناهجهم([٣]).
- وضع أسس لمنهج البحث والتفكير المادي، فكتبوا وبحثوا ونقدوا في ضوء هذا المنهج، كما نجدهم قد طبَّقوا المناهج الفكرية المادية على كثير من علومنا الإسلامية سواءً في التفسير المادي للتاريخ، أو في كتاباتهم عن القرآن الكريم والرسولﷺ فدَّعموا شهادتهم في هذه الجوانب الفكرية باسم المنهج العلمي، ممَّا أدى إلى رواجها واستسلام كثير من الكتاب لها ودفاع بعض المسلمين عنها([٤]).

---

[١] مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية. مجموعة من العلماء، جـ١، ص٥٣، الطبعة الأولى، مكتبة التربية العربية، الرياض، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

[٢] انظر: المرجع السابق، ص٩٩.

[٣] انظر: المرجع نفسه، ص٩٩.

[٤] انظر: الفكر الإسلامي في مواجهة الفكر الغربي، ص٢٧٦.

- لقد رسَّخ المستشرقون مبدأ العلمانية وصدَّروه إلى عالمنا الإسلامي سواء في الجانب الفكري والسياسي، فأصبح من المسلمين من تبنوا مبدأ العلمانية، بل نجد هناك بعض الدول الإسلامية قد تبنت العلمانية، وأعلنت أنَّها دولة علمانية، أو هناك من المسلمين من ينادي بعلمانية السياسة، ونحن لو رجعنا إلى أصل نشأة هذه الدعوة نجد أنَّ المستشرقين ممن روَّجوا لها ودعوا إليها([1]).
- دعوة المستشرقين إلى الحرية الفكرية المزعومة التي دعوا إليها، ولم يلتزموا بها في بحوثهم وكتاباتهم، إذ نجدهم صوروا المفكرين الإسلاميين مجرد نقلة للتراث اليوناني الفلسفي بناءً على نظرتهم العنصرية المقسمة للشعوب إلى: ساميين، وآريين. فالساميون ومنهم العرب لا قدرة لهم على التفكير الفلسفي([2]).

والخلاصة أن الاستشراق تيار فكري يتجه صوب الشرق ، لدراسة حضارته وأديانه وثقافته ولغته وآدابه، من خلال أفكار اتسم معظمها بالتعصب، والرغبة في خدمة الاستعمار، وتنصير المسلمين، وجعلهم مسخاً مشوهاً للثقافة الغربية، وذلك ببث الدونية فيهم، وبيان أن دينهم مزيج من اليهودية والنصرانية، وشريعتهم هي القوانين الرومانية مكتوبة بأحرف عربية ، والنيل من لغتهم ، وتشويه عقيدتهم وقيمهم ، ولكن بعضهم رأى نور الحقيقة فأسلم وخدم العقيدة الإسلامية.

المطلب الثاني:الاستعمار

الاستعمار لغةً: "هو لفظة مشتقة من عَمَر، واستعمره في المكان أي جعله يعمره"([3])، ومنه قوله تعالى:﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾(هود: ٦١).

الاستعمار اصطلاحاً: "هو استيلاء دولة أو شعب على دولة أخرى وشعب آخر لنهب ثرواته وتسخير طاقات أفراده والعمل على استثمار مرافقه المختلفة"([4])، وهذا التعريف يشمل أنواع مختلفة من الاستعمار لا تختلف عن بعضها إلا بالأسماء وبعض الأشكال، "فمن أشكال الاستعمار أن تضع دولة ما أخرى تحت حمايتها وإشرافها وتسلبها من حريتها بقدر ما يتناسب مع قوة هذه الدولة وضعف تلك، وفي الأغلب يكون للدولة المحمية شبه سيادة داخلية يمارسها حكام وطنيون تديرهم الدولة المستعمرة من خلف ستار"([5])، وهناك أشكال متعددة للاستعمار،

---

[1] مناهج المستشرقين، ص٢٧٧.

[2] انظر: الفكر الإسلامي في مواجهة الفكر الغربي، ص٢٧٧.

[3] لسان العرب، ابن منظور، جـ٥، ص٥٥، ط٢، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٥م.

[4] أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص ٥١.

[5] الاستعمار ودوافعه الدينية، منقذ بن محمود السحار، ص٤، بحث مخطوط، موقع أهل الحديث.

فهناك استعمار إحلالي كاستعمار اليهود لفلسطين، وهناك استعمار احتلالي كالاستعمار الذي شهدته معظم الدول العربية مع نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

دوافع الاستعمار الأوربي

جاء الاستعمار الغربي لبلاد المسلمين نتيجة لحدثين هامين وقعا في أوروبا، أولهما: الاكتشافات الجغرافية في القرن السادس عشر، وثانيهما: الثورة الصناعية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وبناء على ذلك بدأت الدول الأوربية مغامراتها التوسعية في العالم في القرن التاسع عشر بحثا عن أسواق جديدة لبضائعها وعن مصادر جديدة للمواد الخام.

عندها بدأ المبشرون أيضاً أعمالهم التبشيرية في البلاد غير المسيحية التي وقعت تحت النفوذ الاستعماري، وقد وجد الجانبان بأن بينهما هدفا مشتركا يجب أن يتعاونا لتحقيقه، والواقع أن زعماء الفريقين كانا يحملان فكرة دينية سياسية مشتركة، وقد تكونت هذه العقلية الغربية نتيجة للتطورات منذ فجر تاريخهم، ابتداءً بالحروب الصليبية ومروراً بعصر النهضة والإصلاح الديني والاكتشافات الجغرافية والثورة الصناعية والاستعمار في القرن التاسع عشر، وقد أحدثت هذه الأمور تغييرات طبيعية وثقافية واقتصادية وسياسية عميقة، وكانت هذه التغييرات مصحوبة دون شك بتغيرات عظيمة مماثلة في الجانب الروحي.

"وبالرغم من مرور السنين الطويلة وبالرغم من هذه التغيرات العميقة، فان العقلية الغربية في القرن التاسع عشر ظلت تحمل طابع التفكير الصليبي، ولهذا فان المبشرين والقوى الاستعمارية كانا يعملان معا"([١])، ونستطيع القول بأن ميل النفس إلى الصراع والطموح إلى الأفضل جِبلّة بشرية جاءت النبوات لتهذيبها وجعلها عبادة يراد منها إقامة دين الله وإزالة الطغيان.

أهداف الاستعمار

- القضاء على الحركات الإسلامية الجهادية كحركة المهدي في السودان، وعمر المختار في ليبيا، وعبد القادر الجزائري وعبد الكريم الخطابي في المغرب الأقصى، وإسماعيل الشهيد في الهند، أما في مصر فقد أعدم الإمام الشهيد حسن البنا بعد أن عجزت المخططات عن احتواء دعوته، ثم ضربت الحركة بطريق مباشرة وغير مباشرة([٢]).
- إلغاء المحاكم الشرعية وإحلال القوانين الوضعية محلها، حيث لا تكاد جيوش الاحتلال تضع أقدامها على أرض إسلامية، حتى تبادر بهذا العمل لأنهم يدركون نتائجه البالغة. وأول قطر بدأ فيه إلغاء الشريعة الإسلامية هو الهند، فحتى سنة ١٧٩١ كانت الشريعة

---

[١] التبشير في منطقة الخليج العربي، ص٢٠٧.

[٢] انظر: العلمانية .. نشأتها وتطورها و آثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، سفر بن عبد الرحمن الحوالي، ص٤٥٨، الطبعة الثانية، دار الجيل، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٠هـ٢٠٠٠م.

هي القانون العام فيها، ولكن الإنجليز تدرجوا في إلغائها حتى تم ذلك في أواسط القرن الماضي، يلي ذلك الجزائر التي بدأ إلغاء الشريعة فيها عقب الاحتلال الفرنسي سنة ١٨٣٠، ثم مصر التي أدخل الخديوي إسماعيل -عميل فرنسا- القانون الفرنسي فيها ولم تأتِ سنة ١٨٨٣ حتى كان نصيب الشريعة لا يتجاوز الأحوال الشخصية إلا قليلاً([١]).

- القضاء على التعليم الإسلامي والأوقاف الإسلامية، إذ أدرك المستعمرون أن أعظم وسيلة لإبعاد المسلمين عن دينهم هو أن يكونوا جهلاء به، واتعظوا بما ذاقوه من مقاومة في الهند والمغرب تزعمها علماء الشريعة وطلابهم، فوضعوا المخططات الماكرة لتقليص التعليم الديني تدريجياً، وإحلال التعليم اللاديني محله، وأشهر هذه المخططات مخطط كرومر ودنلوب في مصر، الذي انتهج سياسة بعيدة المدى دقيقة الخطى في القضاء على الأزهر ومعاهده وكتاتيب القرآن، ووضع نموذجاً خبيثاً للدس على الإسلام وتشويه تاريخه خلال المنهج التعليمي، ولا أدل على نجاح هذه الخطة من بقاء آثارها إلى اليوم في مصر والدول العربية عامة([٢]). فحيثما كانت الأرض المستعمرة غير إسلامية اكتفى الاستعمار بنهب الخيرات وتوزيع فائض الإنتاج، أما حيث تكون الأرض إسلامية فالعناية الأولى موجهة لمحو الإسلام عن طريق التبشير والغزو الفكري ومناهج التعليم التى تفرض على المسلمين ووسائل الإعلام التى توجه إليهم، ثم يأتي بعد ذلك نهب الخيرات وتوزيع فائض الإنتاج، "وخير مثال لذلك استعمار البريطانيين للهند، فقد كان أول عمل لهم هناك هو إزالة الحكم الإسلامي في الهند، ثم تركوا الهنود لمعتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم لم يتعرضوا لهم بشيء، ووجهت الحرب الضارية ضد المسلمين وحدهم ، فصودرت الأوقاف المرصودة للتعليم الإسلامي فجفت منابعه، وحورب المسلمون في الوظائف العامة وأعطيت للوثنيين الهنود، ووجه الغزو الفكري ضد المسلمين لإخراجهم من حقبة الإسلام"([٣]).
- احياء الطوائف غير الإسلامية في المجتمعات الإسلامية، وهذه الخطوة من أخبث الخطوات وأعمقها دلالة، "فحيثما حل المستعمرون يقومون بنبش العقائد الميتة أو تنظيم الطوائف غير الإسلامية، ويمهدون لها السبيل لتولي المناصب المهمة، مستثيرين حقدهم على المسلمين بالزعم بأن الفتح الإسلامي كان استعماراً لهم، وأن المسلمين متعصبون

---

[١] العلمانية نشأتها تطورها، ص٤٥٨.

[٢] انظر: هل نحن مسلمون، محمد قطب، ص١٣٦، الطبعة الثالثة، دار الشروق للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

[٣] هل نحن مسلمون، ص١٣٧.

ضدهم... إلخ، ففي بلاد الشام تعهدت فرنسا بدعم النصارى وسلمتهم الوظائف العليا، ونظمت فلولهم في جمعيات ومؤسسات عسكرية ومدنية، وعند إنشاء الجامعة السورية – مثلاً– عينت لها مديراً نصرانياً هو قسطنطين زريق"([1]) ولاشك ان الهدف من ذلك هو ضرب الأمن الداخلي للبلاد الإسلامية، من خلال إحياء هذه النزعات.

- تكوين جيل يستحي من الانتساب للإسلام، ويكره أن يرى وهو يقوم بشيء من شعائره، خصوصاً بين المثقفين الكبار، والطبقات التي تهيأ للحكم والنفوذ، واختير من تلك القوى أفراد قَدَّر المستعمر أنهم أفضل المطايا له، فصنع لهم بطولات ضخمة، وأثار حولهم الغبار الكثيف، حتى خيل للأمة أن على أيديهم مفتاح نهضتها وبناء مجدها، فطأطأت لهم الرأس حتى إذا تمكنوا منها أنزلوا بها من الذل والدمار وخراب العقيدة ما لم تذقه على يد أسيادهم، "وعندما ترك المستعمر بلاد المسلمين، ترك أذياله يحكمون، وهنا يمكن القول أن هناك استقلال أسوء من الاستعمار، وأشد وطأة منه، لقد لاحظنا أن الاستعمار الغربي عندما يشكل الحكومات التي تخلفه في إدارة البلاد التي نالت استقلالها، يجتهد في محاربة الدين الذي تعتنقه الكثرة، وفي سلب أنصاره كل طريق إلى السلطة، إن الحكام الذين رباهم في جامعاته هم وحدهم موضع الثقة ومناط الكفاية، وهم وحدهم بيئة الحكم، ومصدر التشريع"([2]).

وكان استعمار الغرب لبلاد المسلمين قاسياً، كلف المسلمين أثماناً غالية في كافة الميادين، الإنسانية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، وفي كل بلد من بلاد المسلمين، في كل زمن وفي كل مكان، "كان الاستعمار لا يبرهن على شيء أكثر من برهنته على وحشيته وحيوانيته، وفظائعه المروعة ليست في الصليبية الغربية سجية محدثة، إن القوم يسيرون على النهج الذي سلكه آباؤهم قبل، فالخلف والسلف على الاختلاف في الأمكنة والأزمنة تحركهم طبائع واحدة، وتحدوهم غاية واحدة، إنهم مع خصومهم لا يعرفون للحرب أدباً، ولا للرحمة موقعا، إلا إذا تكافأت القوى وخافوا الثأر العاجل، فهم عندئذ يعاملون العدو بحذر، اتقاء للعقوبة لا اتقاء لله، أما إذا أمنوا الثأر، فلن يتوقع منهم إلا بطش الجبابرة"([3]).

المطلب الثالث:التغريب

---

[1] العلمانية نشأتها وتطورها، ص٤٦٠.

[2] الاستعمار أحقاد وأطماع، محمد الغزالي، ص ٥٥-٥٦، الطبعة الأولى، دار نهضة مصر للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٧م.

[3] انظر: المرجع نفسه، ص ٢٦.

التغريب لغةً: التغريب لفظة مشتقة من الغرب وهو خلاف المشرق، وغرب القوم ذهبوا في المغرب، وتغرَّب: أتى من قبل الغرب، والتغرب هو البعد([1]).

التغريب اصطلاحاً: من ضمن الأساليب التقليدية التي حارب الغرب فيها الإسلام، "التغريب هو خلق عقلية جديدة تعتمد على تصورات الفكر الغربي ومقاييسه، لتحاكم الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي من خلالها، بهدف سيادة الحضارة الغربية وتسييدها على حضارات الأمم ولاسيما الحضارة الإسلامية"([2])، وقد نهانا الله عزوجل عن ذلك:﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (المائدة: ٤٨)، وثبت أن النبي ﷺقال: "لتتبعن سَنَنَ من كان قبلكم، شبرا بشبر وذراعا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه. قلنا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟!!"([3])

"ويخطئ البعض حين يظن أن التغريب يعني حمل المسلمين والعرب على قبول ذهنية الغرب، وإنما الحقيقة أن التغريب هو محاولة خلق دائرة فكر تهدم إرادة المسلمين والعرب وتنتقص فكرهم وتشيع فيه الشبهات والمثالب، ثم لا تدفعهم إلى أي جانب من جوانب البناء أو النهضة"([4])، وعليه فالتغريب يجعل المسلمين يفكرون من داخل دائرة مادية خالصة، معزولة تماماً عن العقيدة الإيجابية المتكاملة التي علمهم إياها الإسلام، وهداهم إليها منهاجاً للحياة قادراً على التقدم من ناحية، وعلى مقاومة الغزو من ناحية أخرى.

والمسلمون يعرفون أن شخصيتهم تستمد قوتها من الإسلام، فإذا انحرفنا عن هذه القيم فقدنا الطريق، وتهنا في البيداء وذلك هو ما قصد إليه التغريب واستطاع أن يحققه إلى حد كبير، ولعل أبرز محاولات التغريب هي الحيلولة دون قيام خط التقاء بين العناصر والشعوب التي يجمعها فكر واحد في الأصل مصدره القرآن واللغة العربية ومنهج محمدﷺ، وذلك عن طريق استهلاكها في الإقليميات والأمميات والمفاهيم التي تفصل القيم وتمزق العناصر التي وحدها الإسلام في كل متكامل جامع([5]).

---

[1] انظر: لسان العرب، جـ٦، ص٥٨٥_٥٨٧.

[2] انظر: التغريب أخطر التحديات في وجه الإسلام، ص٤، الطبعة الثانية، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، جمهورية مصر العربية، ١٩٦٦م.

[3] صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: ما ذُكر عن بني إسرائيل، حديث رقم:٣٤٥٦

[4] التغريب أخطر التحديات في وجه الإسلام، ص٥.

[5] انظر: المرجع السابق، ص٥.

أهداف التغريب

وإذا كان يقف خلف حملة التغريب للمسلمين الاستعمار والمستشرقون والمبشرون وأجهزة الأمن في الدول العربية والإسلامية، وجملة من أدعياء الثقافة والتنوير من أبناء المسلمين، فإن هؤلاء سعوا من خلال الدعوة إلى التغريب إلى جملة من الدعوات منها([1]):

١-إشاعة قضية الأجناس السامية والآرية التي تستهدف الانتقاص من شأن العرب.

٢-مهاجمة الدين بعامة والإسلام بخاصة واتهامه بأنه سبب التخلف.

٣-انتقاد العرب واتهامهم بأنهم ظلوا مستعبدين لليونان والرومان.

٤-إنكار فضل العرب على الحضارة الحديثة.

٥-الحملة على العقائد والقيم.

٦-الدعوة إلى التجزئة والإقليمية وإحياء الدعوات القديمة الفينيقية الفرعونية.

٧-الدعوة إلى ما يسمى ثقافة البحر الأبيض.

٨-إذاعة الفرقة والخصومة بين الأديان والأجناس: البربر والعرب، الدروز والموارنة، المسلمون والمسيحيون، السنة والشيعية.

وسائل التغريب

"اعتمد الغرب خطة طويلة الأمد لتغيير أحوال المسلمين وسلوكهم، حتى لا تحس الأمة المسلمة بأهدافها البعيدة، أو لا تشعر بأسلوبها الذي تعتمده في التغيير، وكأن هذا التغيير يتم تلقائياً" ([2])

ومن وسائل التغريب:

أولاً: "اتخذ التغريب لتحقيق أهدافه رسلاً من أبناء المسلمين أنفسهم، يدعو المسلمين إلى أفكار الغرب وأخلاقه، وهم المفكرون والأدباء والكتاب الذين تربوا في أحضان الثقافة الغربية"([3])، وقد عملت "حركة التغريب" في جملة ميادين، بدأ العمل فيها غربيون نزلوا إلى المعركة، ثم سلَّموا مقاليد الأمور من بعد إلى كتاب من العرب والمسلمين، ففي كل ميدان من ميادين العمل كان النفوذ الأجنبي يجد من يعاونه من أبناء الأوطان، وإذا كان هجومه على الدين قاسياً، فإن من المؤسف أن نجد كثيراً ممن حمل لواء هذا الهجوم من الذين ثقفوا أول الأمر ثقافة إسلامية، وكانت اللغة والدين في الأغلب هما الميدانان الكبيران للعمل البعيد المدى، وإن كان التغريب لم يترك ميداناً دون أن يوغل فيه ويسممه ويبعث فيه الشك، وكانت كلمة "حرية الفكر" والتقدمية، ومقاومة الرجعية، والتطور من الكلمات البراقة التي لعبت دوراً كبيراً في خداع الجماهير،

[1] انظر: التغريب أخطر التحديات في وجه الإسلام ، ص١٢.

[2] واقعنا المعاصر والغزو الفكري، ص٧٩.

[3] المرجع السابق، ص٧٩.

واستطاع التغريب أن يجد المنافذ المرنة الماكرة إلى ما يريد دون أن يصطدم بالعقائد أو يواجه المواقف الحرجة([1]).

ثانياً: "يبدأ التغريب أولاً في أدنى مظاهر الحياة الاجتماعية، كالأكل والشرب باليد اليسرى، واستخدام الكلمات والمصطلحات الأجنبية في آداب التحية والوداع، أو التحية بغير تحية الإسلام المعروفة–السلام عليكم ورحمة الله وبركاته– ثم الانتقال إلى كبائر المحرمات"([2])، "الواحد من هؤلاء يحب أن يراه الناس خارجاً من حانة، ولا يحب أن يروه خارجاً من مسجد، ومن السهل عليه أن يوصف بأنه زنى بعشر نسوة، لكن وجهه يسود لو قيل: متزوج من اثنتين، أما أن يفكر في تلاوة آيات من القرآن أو يرجع إلى شيء من سنة رسول الله فذلك ما لا يخطر له ببال"([3]).

ثالثاً: "يبدأ التغريب بمخاطبة فكر الأمة المسلمة وعقيدتها، عن طريق العملاء والمأجورون من الداخل، ثم يجري داخل العقول والقلوب، وأخيراً ينتقل إلى الأخلاق والتقاليد والعادات الاجتماعية والسلوكية"([4]).

رابعاً: "تستفيد خطة التغريب في إحداث التغيير الاجتماعي من جهود المبشرين، وأعمال المستشرقين، وجهود العلمانيين اللا دينيين من أبناء المسلمين"([5]).

ولاشك أن تحقيق أهداف التغريب هو أمر بعيد المنال، بالنسبة لأصالة الإسلام وفكره ومقوماته وجذوره العميقة الضاربة في التربة العربية الإسلامية خلال أكثر من أربعة عشر قرناً كاملة، ومع ذلك فقد عمد الاستعمار إلى تنفيذ مخطط ضخم في سبيل التغريب والغزو الثقافي، قام أساساً على مؤسسات ضخمة تحمل لواء العمل في مجال التبشير والتعليم والصحافة والاستشراق، وكلها تنسق بين خططها وأهدافها لتحقيق غاية واحدة، هذه الغاية هي السيطرة الكاملة على العالم الإسلامي التي عجزت عنها الحروب الصليبية والحيلولة بين الإسلام وأهله وبين القوة والسيطرة والقدرة على الحياة والحركة، تخوفاً من خطر مفزع متوهم يتمثل في انقضاض الإسلام على الحضارة الغربية وإسقاطها.

خامساً: "استخدام الشعارات والمصطلحات التي تدغدغ العواطف، كالتطور والتقدم والمدنية والرفاهية والحضارة، مع عدم الاصطدام بالمشاعر والأحاسيس، واستخدام مصطلح العادات والتقاليد الموروثة للدلالة على الأحكام الشرعية التي يجب على المسلمين أن يتركوها"([1]).

---

[1] انظر: التغريب أخطر التحديات في وجه الإسلام، ص١٢.

[2] واقعنا المعاصر والغزو الفكري، ص٧٩.

[3] حصاد الغرور، محمد الغزالي، ص٣٩، الطبعة الأولى، دار الشروق للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

[4] واقعنا المعاصر والغزو الفكري، ص٧٩.

[5] المرجع السابق، ص٧٩.

آثار التغريب

لقد عانى المسلمون من التغريب أيما معاناة، وتأثرت حياة بعضٍ منعم على كافة الصعد والجوانب الإنسانية، الثقافية والأخلاقية وحتى الدينية، ويمكن إجمال آثار التغريب في الآتي([2]):

أولاً: تشويه الثقافة الإسلامية والتراث العربي والإسلامي.

ثانياً: إفساد الخصائص المعنوية في البلاد العربية والإسلامية.

ثالثاً: خلق تخاذل روحي وشعوري بالنقص، ومظاهر ذلك تتمثل في إتباع آثار اليهود والنصارى، ممثلا في اقتفاء آثار الغرب في طرائق معايشهم ومناهج حياتهم، إذ أصبح ذلك من الأمور المميزة لحياة المسلمين في هذا الزمان.

رابعاً: توسيع شقة الخلاف بين الطوائف والمذاهب وإثارة النزاع بين الأديان.

خامساً: إخضاع العالم الإسلامي والأمة العربية للاستعمار الغربي.

سادساً: إعداد شخصيات عربية تستسلم ولا تقاوم النفوذ الأجنبي.

مواقف المسلمين من التغريب

تعددت مواقف المسلمين من الحضارة الغربية، بين موقفٍ متطرفٍ في قبولها بكل تجلياتها، وبين رافضٍ لها رفضاً تاما، وموقفٍ متوازن، يأخذ الجيد والإيجابي منها، ويترك الخبيث، ويمكن إجمال هذه المواقف في التالي([3]):

- **الموقف السلبي:** اتخذ بعض المسلمين موقفاً سلبياً أمام الحضارة الغربية، وكل ما انبثق عنها من مؤسسات ثقافية، وهو يدعو إلى عدم الأخذ بشيءٍ من أسباب هذه الحضارة، وكان هذا نتيجة سوء تفسير للنصوص الدينية الإسلامية، فالله تعالى حثنا على استعمال العقل والفكر، واقتباس الصالح المفيد، وإعداد القوة، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها، ولقد أخذ الرسولﷺ فكرة حفر الخندق حمايةً لها من الأعداء، وهي فكرة فارسية نافعة، والموقف الرافض لكل ما أنتجته الحضارة الغربية يستحيل عملياً، لأن طبيعة الأشياء تأباه.
- **الموقف المتغرب:** وهو الموقف الداعي إلى التغريب والأخذ بكل أسباب الحضارة الغربية، خيرها وشرها، حلوها ومرها، سواء ما يتعلق بالعلم والصناعة أو ما يتعلق بالثقافة، وأسلوب الحياة الاجتماعية والروحية، وهذا الموقف المستسلم للحضارة الغربية والمقلد لها، المؤمن بكل قيمها ومبادئها، وفلسفتها المادية ونظمها السياسية والاقتصادية، وجد هذا الموقف أنصار

---

[1] واقعنا المعاصر والغزو الفكري، ص٨٠.

[2] العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب ، محمد حامد الناصر، ص٥١، الطبعة الثانية، مكتبة الكوثر، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٦م.

[3] انظر: واقعنا المعاصر والغزو الفكري، ص٨١.

ومؤيدين في كل بلاد المسلمين، ففي تركيا: كان ضياء كوكب ألب([1]) هو الممثل الفكري لهذا الموقف، وكانت المؤسسات الرسمية التي تولت السلطة بعد الحرب العالمية الأولى اليد المنفذة لها، وكان هدفها واضحاً ومحدداً، وهو إقامة دولة على طراز الدول الأوروبية الحديثة، ففصلت الدين على الدولة، وأقامت المجتمع التركي على الأسس العلمانية، وفي الهند حمل لواء التغريب أحمد خان، والمدرسة التي أسسها، حيث دعا إلى تقليد الحضارة الغربية وأسسها المادية، واقتباس العلوم العصرية بحذافيرها وعلى علاتها، وتفسير القرآن الكريم ومفاهيم الدين وفقاً لما وصلت إليه الحضارة الأوروبية، وأصدر أحمد خان في ذلك تفسيراً سمَّاه "تبيان الكلام" فسر فيه القرآن الكريم على صورة تطابق هواه وأهواء أسياده الغربيين وآرائهم، وفي مصر حمل لواء التغريب طه حسين([2]) داعياً إلى ما يُسمى تحرير المرأة ومساواتها بالرجل، وتركها للحجاب، والخروج سافرة متبرجة، والدعوة إلى العامية المصرية، واستخدام اللاتينية بدل العربية الفصحى، والدعوة إلى الفرعونية والقومية والاشتراكية إلى غير ذلك من الدعوات الهدامة.

- **الموقف التوفيقي:** وهو الموقف الداعي إلى تطوير الإسلام، والتوفيق بينه وبين الثقافة الغربية من خلال تقريب مبادئ الإسلام ومفاهيمه من الحضارة الغربية، وتصيد الأدلة على ذلك من أقوال مفكري الإسلام، ويعتبر الشيخ محمد عبده([3]) من مناصري هذا الموقف والداعين إليه، وقام محمد عبده باعتماد أسلوب جديد يعتمد على توضيح الإسلام، والدفاع عن الثقافة الإسلامية، والتأكيد على أنه دين التطور والتجديد، وأنه لا يتعارض مع المدنية الحديثة، وعلى هذا الأساس انطلق الشيخ إلى مهاجمة التقليد، والدعوة إلى الاجتهاد وتطوير الإسلام، وإعادة النظر في وضع المرأة في المجتمع: الحجاب، الحد من تعدد الزوجات، الحد

[1] إنه واحد من أبناء تركيا الذين دعوا إلى سلخ تركيا من ماضيها الإسلامي القريب، وتكوينها تكوينًا قوميًا خالصًا، وإيثار الحضارة الغربية على أساس أنها امتداد للحضارة القديمة. استغل ضياء كوكب ألب وظيفته كأستاذ في جامعة أستانبول ومواهبه الشخصية، فاستطاع أن يؤثر بأفكاره المريضة في الجيل التركي الجديد(http://www.sa-fawaed.com/new/Article.aspx?ArtID=6438&SecID=2).

[2] طه بن حسين بن علي بن سلامة، الدكتور في الادب: من كبار المحاضرين، درس في الغرب وتأثر به، له من الكتب: مستقبل الثقافة في مصر، ورحلة الربيع والصيف(الأعلام للزركلي، جـ٣، ٢٦١)

[3] محمد عبده بن حسن خير الله، من آل التركماني: مفتي الديار المصرية، ومن كبار رجال الاصلاح والتجديد في الاسلام. قال أحد من كتبوا عنه: (تتلخص رسالة حياته في أمرين: الدعوة إلى تحرير الفكر من قيد التقليد، ثم التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة). له من المؤلفات: (تفسير القرآن الكريم) لم يتمه، و (رسالة التوحيد) (الأعلام للزركلي، جـ٦، ص٢٥٣)

من حرية الطلاق، والمناداة بالقومية والوطنية، والعمل على الأخذ بالنظام السياسي الغربي، والعناية بالتاريخ السابق على الإسلام.

- **الموقف المحافظ على ثوابت الإسلام:** وهو الذي يتمثل في الدعوة إلى احتفاظ المسلمين بهويتهم الإسلامية، وشخصيتهم المستقلة المتميزة حسب القرآن والسنة، والمحافظة على الفكر الإسلامي في منابعه الأصيلة، وإعادة تماسك الجماعة الإسلامية مع الإفادة من خير ما أنجزته المدنية الغربية والعلم الغربي، مع عدم الأخذ من الثقافة نفسها إلا ما كان منها لا يتعارض مع هوية الأمة الإسلامية، وشخصيتها وثقافتها الأصيلة.

ولا شك أن الموقف الأخير هو الموقف الأولى أن يتبعه المسلمون في زماننا هذا، لأنه موقف لا يدعو إلى التميع، ولا يدعو إلى الجمود أيضاً، فهو موقفٌ وسطي بين الطرفين، فهو يتسلح بالإسلام عقيدة وشريعة، لكنه لا يهمل العصر الذي تحيا فيه الأمة، ولا يهمل جوانب التقدم المادي في الحضارات الأخرى.

المطلب الرابع: المذاهب الفكرية المعاصرة.

لقد اكتشف الغرب من سلسلة الحروب التي خاضها ضد المسلمين عبر تاريخه الطويل، أن السيف والقتال لا يجدي نفعاً مع المسلمين، فبعد كل حرب شنها الغرب ضد المسلمين، كان المسلمون يستعيدون رباطة جأشهم، ويعيدوا الكرة على الغرب منتصرين، بل كانت الحروب الغربية ضد بلاد المسلمين من ضمن الأسباب التي تجعل المسلمين يعودون إلى التمسك بالإسلام.

ولهذا لم يجد الغرب وسيلة أفضل لهزيمة المسلمين من أن يقوم بانتزاع أسباب القوة منهم، ولأن قوة المسلمين تتمثل في تمسكهم بدينهم، فقد جاءت سهام الغرب موجهةً نحو هذا الدين، ووجد الغرب كالعادة أذناباً من أبناء المسلمين منصاعين لهذا التوجه ولهذه الرؤية.

"فإذا كان الغرب قد قال لا دين، فلا دين، وإذا قال ألا أخلاق، فلا أخلاق، ولا تقاليد، فلا تقاليد، أأنتم رجعيون أم ماذا؟ ألا تتقدمون وتتحضرون وتتطورون؟ فلتنبذوا تلك الخرافة البالية التي اسمها الدين"([1])

والحقيقة أن كثيراً من المذاهب الفكرية المعاصرة لها ما يبررها خارج بلاد المسلمين، في الغرب بالذات، إذ كانت ظروف الكنيسة وتغولها على الناس، على العلم والعلماء، سبباً أكيداً لأن يبحث الغربيون عن أيدلوجيات وعقائد أخرى يستعيضون بها عن الكنيسة.

---

[1] هل نحن مسلمون، ص١٩٦.

لكنْ غياب الإسلام عن حياة المسلمين جعل كثير من الأفكار الغربية تنبت في بلاد المسلمين وتزدهر بسهولة ويسر، وأبرز هذه المذاهب ما يلي:

أولاً العلمانية

العلمانية لغةً: لم تكن كلمة العلمانية معهودة في اللغة العربية، إذ لم ترد هذه الكلمة في أي معجم عربي قديم، وإنما جاءت الكلمة كترجمة غير دقيقة لمصطلح ظهر في الغرب، وفي بعض المعاجم العربية الحديثة نجد بعضاً من المعاني لهذه الكلمة، وهي تدور حول معانٍ محددة لها علاقة بالدين، فالعلماني هو العامي الذي ليس بإكليريكي، أو العلماني هو ما ليس كنيسياً ولا دينياً([1]).

العلمانية اصطلاحاً: "العلمانية هي الترجمة العربية لكلمة Secularism, Secularite في اللغات الأوربية وهي ترجمة مضللة لأنها توحي بأن لها صلة بالعلم ، بينما هي في لغاتها الأصلية لا صلة لها بالعلم، بل المقصود بها في تلك اللغات هو إقامة الحياة بعيدا عن الدين، أو الفصل الكامل بين الدين والحياة"([2])، والعلماني هو ما ليس بديني، وكأن مدلول العلمانية المتفق عليه يعني: عزل الدين عن الدولة، وعن جميع جوانب المجتمع، فالحياة يجب أن تقوم بمعزل عن الدين سواءً بالنسبة للأمة أو للأفراد([3]).

أسباب نشأة العلمانية في الغرب

قد كان لظهور فكرة العلمانية في الغرب ما يبرره، إذ بحث الناس هناك عن بديل لتجاوزات الكنيسة، وظلمها الروحي والاجتماعي والعلمي والاقتصادي، ويمكن إجمال مبررات ظهور العلمانية في التالي:

أولاً: فساد العقيدة النصرانية وطغيان الكنيسة ورجالها

-**الطغيان الديني للكنيسة:** والطغيان الروحي لرجالها فيها، ويتمثل ذلك في تحريف الدين، إذ كان لتبني الكنيسة بعضاً من العقائد المتناقضة مع الفطرة والعقل سبب في ثورة كثير من الغربيين على هذه العقائد، مثل عقيدة التثليث، وعقيدة الصلب والعشاء الرباني، وصكوك الغفران ونظام الرهبنة، والأهم من ذلك كله، امتلاك الكنيسة لحقوق لا يملكها إلا الله عزوجل، مثل حق الغفران وحق الحرمان من الجنة، وذلك من خلال صكوك الغفران التي كانت الكنيسة تمنح من خلاله الجنة لمن تشاء وتمنعها عن من تشاء([4]).

---

[1] انظر: واقعنا المعاصر والغزو الفكري، ص٨٦.

[2] مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب، ص٣٧٣، الطبعة الثانية، دار الشروق للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

[3] انظر: واقعنا المعاصر والغزو الفكري، ص٨٩.

[4] انظر: العلمانية لسفر الحوالي، ص١٣١، ومذاهب فكرية معاصرة، ص٤٠٢.

-**الطغيان المالي للكنيسة**: "التي كانت تنهى عامة الناس عن اقتناء المال، في الوقت الذي كانت تؤيد ضمنياً سياسة الإقطاعيين والملاك الذين كانوا يمتصون دماء الشعب"([1]). وفي الوقت الذي تفرض فيه الكنيسة على أتباع دينها التقشف والزهد، نجد حال الكنيسة نفسها مغايراً لروح وصايا المسيح عليه السلام ولمقتضى ما تدعو الناس إليه، "إذ كانت الفضائل المسيحية كالفقر والتواضع والقناعة والصوم والورع والرحمة، كل ذلك خيراً للمؤمنين وللقسيسين وللقديسين وللخطب والمواعظ، أما أساقفة البلاد والشخصيات الكهنوتية الكبيرة، فقد كان لهم شيء آخر: البذخ والأحاديث المتأنقة مع النساء، والشهرة في مجالس الخاصة، والعجلات والخدم والأرباح الجسيمة والموارد والمناصب"([2]).

الطغيان السياسي: وهو طغيان متمثل بتحول رجال الدين النصارى إلى طواغيت مضافين إلى طواغيت السياسة، "وقد ظلت النفسية الأوروبية تعاني إثره تمزقاً رهيباً، ما تزال آثاره ممتدة إلى اليوم بسبب الصراع المزمن الذي دار بين الكنيسة وبين الملوك، والمنافسة الشديدة بين الطرفين للقبض على مقاليد المجتمع وكسب ولاء الأفراد، ولم تكن الحرب بين أتباع البابوات وأنصار الأباطرة أو "الجوالف والجبليين" -كما يعرفهم التاريخ الأوروبي- إلا حرباً بين حزبين متناحرين لا يكاد أحدهما يتميز عن الآخر إلا في الشعارات التي يخفي تحتها مطامعه الدنيوية البحتة.

كان ملوك أوروبا يضيقون ذرعاً بتدخل الكنيسة المتعنت في كل شئونهم، ذلك التدخل الذي لا يجدون له مبرراً على الإطلاق، وفي نظرهم لم يكن لرجال الدين عليهم ميزة إلا "القداسة" ومع ذلك فهم أيضاً" مقدسون، إن لم يكن بأنفسهم فبنسبهم"([3]).

الطغيان العلمي: حيث أقحمت الكنيسة نفسها في ميادين العلوم التجريبية، وتبنت بعض النظريات العلمية القديمة في بعض العلوم، ثم بمرور الزمن جعلتها جزء من الدين يحكم على كل من يخالفها بالردة والمروق والهرطقة، وحين تطورت العلوم الطبيعية تبين أن الكثير من تلك النظريات كانت خاطئة وخلاف الصواب والحقيقة، وانبرت الكنيسة تدافع عن تلك الأخطاء باعتبارها من الدين، واشتعلت الحرب، وسقط ضحايا التزمت الخرافي والتعصب الأعمى غير المبرر من علماء الطبيعة ما بين مقتول ومحروق ومشنوق، ومارست الكنيسة أقصى درجات

---

[1] العلمانية لسفر الحوالي، ص٩٤.

[2] المشكلة الأخلاقية والفلاسفة، أندريه كريسون، ترجمة: عبد الحليم محمود وأبو بكر ذكرى، ص١٦٧، الطبعة الأولى، مطبعة دار الشعب، مصر، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

[3] العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، سفر بن عبد الرحمن الحوالي، ص١٣٤، الطبعة الأولى، دار الهجرة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ١٤١٠هـ١٩٩٠م.

القمع الفكري والبدني على معارضيها بزعمها، وجنت الكنيسة على الدين حين صورته للناس دين الخرافة والدجل والكذب، بسبب إصرارها على أن تنسب إليه ما هو منه براء([1]).

الطغيان الديني والروحي: حيث فرضت عقيدة التثليث قسراً، وقتلت كل من وقف في وجه هذه العقيدة، أما الطغيان الروحي فقد استولت الكنيسة على أرواح الناس من خلال فرضهال جملة من التشريعات التي تجعل أرواح النصارى بقبضة رجل الدين منذ ولادته إلى وفاته([2]).

ثانياً: اصطدام الكنيسة مع الحقائق العلمية

ويقصد به الصراع الذي نشأ بين الكنيسة والكشوف العلمية في جوانب الحياة المختلفة.

فعلى الرغم من أن الديانة النصرانية ديانة روحية صرفة، إلا أن المؤسسة الكنسية تبنت بعض النظريات العلمية القديمة في بعض العلوم، ثم بمرور الزمن جعلتها جزء من الدين يحكم على كل من يخالفها بالردة والمروق والهرطقة، وحين تطورت العلوم الطبيعية تبين أن الكثير من تلك النظريات كانت خاطئة وخلاف الصواب والحقيقة، وانبرت الكنيسة تدافع عن تلك الأخطاء باعتبارها من الدين، واشتعلت الحرب، وسقط ضحايا التزمت الخرافي والتعصب الأعمى غير المبرر من علماء الطبيعة ما بين مقتول ومحروق ومشنوق، ومارست الكنيسة أقصى درجات القمع الفكري والبدني على معارضيها بزعمها، وجنت الكنيسة على الدين حين صورته للناس دين الخرافة والدجل والكذب، بسبب إصرارها على أن تنسب إليه ما هو منه براء.

وهذا كان من أبرز الأسباب التي أدت إلى اتجاه المجتمع الغربي بعيدا عن النصرانية، إذ كان اصطدام الكنيسة مع الحقائق العلمية مصدراً للشك في ربانية مصدرها، ومن ثم إلى اليقين بأنها –الكنيسة– مصدر للتخلف والخرافة في المجتمع الغربي.

ويبدو هذا جلياً من موقف الكنيسة من العلماء الذين قالوا بأن الأرض تتحرك وأنها ليست ثابتة، إذ حوكم كل من قال بهذه المقولة، وعُذِّب أو أوذي، لأن الكنيسة كانت تعتقد بأن الأرض مركز الكون وهي ثابتة، وأن كل الأجرام الأخرى هي التي تدور حولها([3]).

"وقاومت الكنيسة كل محاولة للتجديد، وإن كانت نافعة خيرة، فقد كفرت رئيس بلدية في ألمانيا، لأنه اخترع غاز الاستصباح بحجة أن الله خلق الليل ليلاً والنهار نهاراً، وهو بمخترعه يريد تغيير مشيئة الخالق فيجعل الليل نهاراً"([4]).

وكان لتبني الكنيسة جملة من الخرافات، واعتبارها عقيدة على المواطن الغربي أن يؤمن بها، سبباً لتصدي كثير من العلماء العقلانيين العلميين للكنيسة، "فأول ما انتقد فولتير([1]) العقيدة

---

[1] انظر: العلمانية نشأتها وتطورها، ص١٤٠.

[2] انظر: واقعنا المعاصر والغزو الفكري، ص٩٦-٩٧.

[3] انظر: العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها ، ص١٥٠-١٥١.

[4] المرجع السابق، ص١٥٧.

المسيحية في التثليث وتجسيم الإله والصور المقدسة، وأنحى باللائمة على بولس الذي طمس المسيحية وحرفها، ولذلك كان الإيمان بالمسيحية في نظره هو " الاعتقاد بأشياء مستحيلة أو بأشياء تستعصي على الفهم، فالحية تتكلم، والحمار يتحدث، وحوائط أريحا تتساقط بعد سماعها صوت الأبواق، أن الإيمان على هذا النحو هو الجنون"([2]).

وسائل دخول العلمانية في العالم الإسلامي

لقد بزغ نجم العلمانية وعلا شأنه في الغرب في ظل الظروف التي أشرنا إليها، وقد صاحب ظهورها في الغرب انحطاط وتخلف وهزائم في الشرق، مما أتاح للغرب أن يستلم زمام قيادة ركب الحضارة البشرية بما أبدعه من علم وحضارة، وما بذله من جهد وتضحية، فكان أمراً طبيعياً أن يسعى الغرب لسيادة نموذجه الحضاري الذي يعيشه، وأن يسوقه بين أمم الأرض لأنه بضاعته التي لا يملك غيرها، ولأنه أيضا الضمانة الكبرى لبقاء الأمم الأخرى تدور في فلك التبعية له، وتكدح في سبيل مدنيته وازدهار حضارته ، وكان تسويق الغرب للعلمانية في الشرق الإسلامي من خلال الوسائل والطرق الآتية:

١- من خلال الاحتلال العسكري الاستعماري

فقد وفدت العلمانية إلى الشرق في ظلال الحرب العسكرية، وعبر فوهات مدافع البوارج البحرية، ولئن كانت العلمانية في الغرب نتائج ظروف ومعطيات محلية متدرجة عبر أزمنة متطاولة، فقد ظهرت في الشرق وافداً أجنبياً متكامل الرؤى والإيديولوجيات والبرامج، يطبق تحت تهديد السلاح وبالقسر والإكراه([3]).

٢- من خلال البعثات التي ذهبت من الشرق إلى الغرب لطلب العلم والتقدم ، فعاد الكثير منها بالعلمانية لا بالعلم، ذهبوا لدراسة الفيزياء والأحياء والكيمياء والجيولوجيا والفلك والرياضيات فعادوا بالأدب واللغات والاقتصاد والسياسة والعلوم الاجتماعية والنفسية، بل وبدراسة الأديان وبالذات الدين الإسلامي في الجامعات الغربية([4]).

٣- من خلال البعثات التنصيرية، فالمنظمات التنصيرية التي جابت العالم الإسلامي شرقاً وغرباً من شتى الفرق والمذاهب النصرانية جعلت هدفها الأول زعزعة ثقة المسلمين في دينهم ، وإخراجهم منه، وتشكيكهم فيه، حتى وإن لم يعتنقوا النصرانية.

---

[1] فولتير هو اسمه المستعار. كاتب فرنسي عاش في عصر التنوير، وهو أيضًا كاتب وفيلسوف ذاع صيته بسبب سخريته الفلسفية الظريفة ودفاعه عن الحريات المدنية خاصة حرية العقيدة. (دراسات عن الاستشراق والمستشرقين، منصور صدقي، ص٢، الطبعة الأولى، دار الرسالة، دمشق، ١٩٨٨م)

[2] العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، ص١٦١.

[3] انظر: العلمانية النشأة والتاريخ والفكرة، عوض القرني، ص٦، بحث مخطوط، موقع صيد الفوائد، ٢٠٠٠م.

[4] انظر: المرجع السابق، ص٧، والفكر الإسلامي الحديث وعلاقته بالاستعمار، محمد البهي، ص١٦١.

٤- من خلال المدارس والجامعات الأجنبية، "ففي أواخر الدولة العثمانية وحين سيطر العلمانيون على مقاليد الأمر سمح للبعثات التبشيرية والسفارات الغربية بإنشاء المدارس والكليات، وانتشرت في بلاد الشام والأناضول انتشار النار في الهشيم ، وخرجت أجيال من أبناء وبنات المسلمين أصبحوا بعد ذلك قادة الفكر والثقافة ودعاة التحرير والانحلال، ومن الأمثلة على ذلك الجامعة الأمريكية في بيروت، والتي في أحضانها نشأت العديد من الحركات والجمعيات العلمانية، وقد سرت العدوى بعد ذلك إلى الكثير من الجامعات والمؤسسات التعليمية الرسمية في العديد من البلاد العربية والإسلامية"([1])، وقد قام خريجو هذه المدارس والجامعات بممارسة الدور نفسه حين عادوا لبلدانهم أو ابتعثوا للتدريس في بعض البلدان الأخرى، وإن المتابع لما ينشر من مذكرات بعض العلمانيين في البلاد التي لم تبتلى بهذه المدارس ليتبين له بجلاء ووضوح الدور الكبير الذي قام به العلمانيون العرب من الذين استقدموا للتدريس في تربية طلابهم وإقناعهم بالعلمانية، سواء من خلال التنظيمات الحزبية أو من خلال البناء الفكري الثقافي لأولئك الطلاب .

٥- من خلال الجمعيات والمنظمات والأحزاب العلمانية، التي انتشرت في الأقطار العربية والإسلامية، مابين يسارية وليبرالية وقومية وأممية وسياسية واجتماعية وثقافية وأدبية، بجميع الألوان والأطياف وفي جميع البلدان، حيث أن النخب الثقافية في غالب الأحيان كانوا إما من خريجي الجامعات الغربية أو الجامعات السائرة على النهج ذاته في الشرق، وبعد أن تكاثروا في المجتمع عمدوا إلى إنشاء الأحزاب القومية أو الشيوعية أو الليبرالية، وجميعها تتفق في الطرح العلماني، وكذلك أقاموا الجمعيات الأدبية والمنظمات الإقليمية أو المهنية ، وقد تختلف هذه التجمعات في أي شيء إلا في تبني العلمانية ، والسعي لعلمنة الأمة كل من زاوية اهتمامه، والجانب الذي يعمل من خلاله .

"ومن الأمور اللافتة للنظر أن أشهر الأحزاب العلمانية القومية العربية إنما أسسها نصارى بعضهم ليسوا من أصول عربية، أمثال "ميشيل عفلق" و"جورج حبش" ، والكثرة الساحقة من الأحزاب الشيوعية العلمانية إنما أسسها يهود مليونيرات"([2]).

والمتأمل في أسباب ودوافع ظهور العلمانية في الغرب، يجد أنه لا داعي بتاتاً لتبنيها أو لاعتناقها كمذهب للحياة في بلاد المسلمين، ففي الإسلام لا توجد كنيسة أو رجال دين يستأثرون

---

[1] الفكر الإسلامي الحديث وعلاقته بالاستعمار، ص١٨٩.

[2] جيل العمالقة والقمم الشوامخ في ضوء الإسلام، أنور الجندي، ص٨٣، الطبعة الثالثة، دار وهبة للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

ويملكون رقاب وأملاك وطموحات وقدرات الناس، لا يوجد صكوك غفران ولا كرسي اعتراف، لا يوجد قطعيات دينية تتعارض مع حقائق العلم القطعية.

موقف الإسلام من العلمانية

الإسلام يرفض العلمانية رفضاً قاطعاً سواء أكانت العلمانية بمعنى فصل الدين عن الحياة، أم بمعنى اللادينية، لأنها دعوة ضد الإسلام.

فالدولة في الإسلام ضرورة لابد منها، وذلك لإنفاذ الأحكام الشرعية، وصيانة الحقوق، ووصول الدين إلى أهدافه وأغراضه في حفظ الدين والنفوس والعقول والأعراض والمال وغيرها.

أمَّا إذا أبعد الإسلام عن الحكم وعطلت صلاحياته، فستصبح كثيرٌ من أحكامه وتشريعاته حبراً على ورق، لأنه لا يمكن تنفيذ تلك الأحكام من قبل الفرد وحده، وذلك كالجهاد في سبيل الله تعالى، وتنفيذ القصاص، وجباية الزكاة، وتأمين الطرق، ونشر الأمن، وفض الخصومات وما شابه ذلك، وقد شملت أوامر الله ونواهيه الحياة بأسرها، فليس هناك جانب من جوانب الحياة أو شيء من نظمها إلا ولله تعالى فيه حكم، فحياتنا العقدية، والاجتماعية، والتربوية والاقتصادية، والسياسية، وضع لنا أصول التعامل فيها، وفصل لنا بعض جوانبها تفصيلاً، قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (النحل: ٨٩).

ويمكن إيضاح وبيان حكم الإسلام في العلمانية كما يلي:

١- العلمانية من الجانب العقدي تعني التنكر للدين وعدم الإيمان به، وترك العمل بأحكامه، وحدوده، وهذا كفر صريح، قال تعالى:﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (المائدة: ٤٤)

٢- العلمانية في الجانب التشريعي تعني فصل الدين عن الدولة، أو فصل الدين عن الحياة كلها، وهذا يعني الحكم بغير ما أنزل الله، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (النساء: ٦٥).

٣-العلمانية من الجانب الأخلاقي تعني: الانفلات والفوضى في إشاعة الفاحشة والرذيلة والشذوذ، والاستهانة بالدين والفضيلة، وسنن الهدى، وهذا ضلال مبين وفساد في الأرض، ومن العلمانيين من يرى أن السنن والآداب الشرعية والأخلاق الإسلامية إنما هى تقاليد موروثة، وهذا تصور جاهلي منحرف.

وعليه فالعلمانية كفرٌ، "لأن لب معناها رفض الدين، وإبعاده وإقصائه من جوانب الحياة السياسية والاقتصادية"([1]) ولهذا تبدو الدعوة إليها دعوةٌ للكفر، ويبدو الانتساب لكل الأحزاب الداعية لها

[1] واقعنا المعاصروالغزو الفكري، ص١٣٠.

معصيةٌ يقترب مقترفها فيها من دائرة الكفر، وإن عُذِرَ أحد فلم يُكفر، فإنما يعذر بجهله، ولكن يُنبَّه لذلك، وتُقام عليه الحجة([1]).

ثانياً: الليبرالية

من الصعوبة بمكان تحديد تعريف دقيق لليبرالية، وذلك بسبب تعدد جوانبها، وتطورها من جيل إلى جيل، ولكن لليبرالية جوهر أساسي يتفق عليه جميع الليبراليين، في كافة العصور مع اختلاف توجهاتهم وكيفية تطبيقها كوسيلة من وسائل الإصلاح والإنتاج، "هذا الجوهر هو أن الليبرالية تعتبر الحرية المبدأ والمنتهى، الباعث والهدف، الأصل والنتيجة في حياة الإنسان، وهي المنظومة الفكرية الوحيدة التي لا تطمع في شيء سوى وصف النشاط البشري الحر، وشرح أوجهه والتعليق عليه"([2]). هذا هو الوعاء الذي ينبثق منه كل دعاة الليبرالية على اختلاف رؤاهم وأنظارهم، فالليبراليون يتفقون في ذلك، ويختلفون في أشياء وأشياء، وربما يكون مرد ذلك لأن "الليبرالية ليست من صنع عقل بشري واحد، ولا وليدة بيئة ثقافية أو ظروف زمنية واحدة، فقد تعددت تعريفاتها بعد أن استقرت فلسفة فكرية غربية وضعية تنزع إلى المادية والفردية والتحرر من كل قيد أو ثابت، إلا ثابت عدم الثبات"([3]).

ولهذا وجدت الليبرالية آذاناً صاغية لها، وميادين فسيحة لتطبيقاتها في الدول ذات الوجهة الرأسمالية، لأنه "ذا كان لليبرالية من جوهر فهو التركيز على أهمية الفرد وضرورة تحرره من كل نوع من أنواع السيطرة والاستبداد، فالليبرالي يصبو على نحو خاص إلى التحرر من التسلط بنوعيه: تسلط الدولة "الاستبداد السياسي"، وتسلط الجماعة "الاستبداد الاجتماعي"، لذلك نجد الجذور التاريخيَّة لليبرالية في الحركات التي جعلت الفرد غاية بذاته، معارضة في كثير من الأحيان التقاليد والأعراف والسلطة رافضة جعل إرادة الفرد مجرد امتداد لإرادة الجماعة"([4]).

ويمكن تعريف الليبرالية على أنها مصطلح له مفاهيم متعددة بحسب ما تُضاف إليه، ويجمعها الاهتمام المفرط بالحرية، وتحقيق الفرد لذاته، واعتبار الحرية هدفاً وغاية في ذاتها.

نشأة الليبرالية وجذورها

---

[1] انظر: فتاوى معاصرة، يوسف القرضاوي، جـ٣، ص٢٢٢، الطبعة الثالثة، دار القلم، الكويت، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

[2] الإسلام والليبرالية الغربية، منذر عطا الله، ص١٤٥، الطبعة الأولى، دار النذير للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٩٩م.

[3] معركة الثوابت بين الإسلام والليبرالية، عبد العزيز مصطفى كامل، ص٣٢، الطبعة الخامسة، منشورات مجلة البيان، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

[4] الليبرالية نشأتها ومجالاتها، عبد الرحمن بن صايل السلمي، ص٤، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

نشأت الليبرالية في ظل التغيرات الاجتماعية التي شهدتها أوروبا منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي، ويمكن القول أن طبيعة التغير الاجتماعي والفكري يأتي بشكل متدرج بطيء، ولهذا فإن الليبرالية لم تتبلور كنظرية في السياسة والاقتصاد والاجتماع على يد مفكر واحد، بل أسهم عدة مفكرين في إعطائها شكلها الأساسي وطابعها المميز.

فهي جاءت نتيجة اختمار وتلاقح الأفكار التي جاء بها مفكرون وفلاسفة بحجم جون لوك([١])، وجان جاك روسو([٢])، وجون ستوارت([٣])، وآخرين.

ويمكن القول أنها تشكلت وتكونت منذ بدايات القرن السادس عشر، والظاهر من تاريخها أنها كانت رد فعل لتسلط الكنيسة والإقطاع في العصور الوسطى بأوربا، مما أدى إلى انتفاضة الشعوب، وثورة الجماهير – وبخاصة الطبقة الوسطى – والمناداة بالحرية والإخاء والمساواة، وقد ظهر ذلك في الثورة الفرنسية([٤]).

أشكال الليبرالية

١- الليبرالية الدينية

ظهرت مبادئ الليبرالية الدينية كرد فعل طبيعي على الفساد الكنسي، فمن أكبر الأسس التي كانت ترتكز عليها الكنيسة، القول بأن طريق الخلاص والنجاة يمر عبر رجال الدين فقط، وأن مَن لا يرضى عنه القسيس في الأرض لا يرضى الله عنه في السماء، ومَن لا تُعمده القساوسة فإنه لا يدخل ملكوت السماء.

ولأن دور رجل الكنيسة كان في رأي الكثير من العامة والخاصة شيئاً سيئاً، فقد تنامى الشعور بأهمية كسر حالة القداسة التي كان يريد بها رجال الدين أن يتحكموا في مصائر الناس في الآخرة، بعد أن ضيقوا عليهم في الدنيا، ونشأ القول إنه يمكن دخول ملكوت السماء من غير

[١] جون لوك: فيلسوف تجريبي ومفكر سياسي إنجليزي، لعب دوراً خطيراً في الأحداث السياسية العظيمة التي وقعت في إنجلترا ما بين سنة ١٦٦٠ وسنة ١٦٨٠. لعبت علاقة لوك باللورد آشلي دوراً كبيراً في نظرياته السياسية الليبرالية. (معركة الثوابت بين الإسلام والليبرالية، ص٤٤).

[٢] جان جاك روسو: فيلسوف سويسري، كان أهم كاتب في عصر العقل. وهو فترة من التاريخ الأوروبي، امتدت من أواخر القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلاديين. ساعدت فلسفة روسو في تشكيل الأحداث السياسية، التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية. حيث أثرت أعماله في التعليم والأدب والسياسة. (معركة الثوابت بين الإسلام والليبرالية، ص٤٥)

[٣] جون ستوارت: فيلسوف واقتصادي بريطاني، نشر خلال أربع عشرة سنة العديد من المقالات والكتب، تناول فيها بالبحث قضايا فلسفية وسياسية واقتصادية. (معركة الثوابت بين الإسلام والليبرالية، ص٨٤).

[٤] انظر: الليبرالية نشأتها ومجالاتها، ص١٢.

طريق القساوسة وبدون وساطة منهم عند الله([1]). ولاشك أن ذلك يأتي منسجماً مع التوجهات العلمية في القرن المنصرم بالذات.

"وقد تبنت الولايات المتحدة الأمريكية فكرة تعميم مفاهيم الليبرالية الدينية في زماننا هذا، وعدتها جزءً من حربها العالمية على الإسلام، والهدف ليس احترام العقائد بقدر ما هو ازدراء العقيدة الإسلامية، وتشجيع الخروج عليها والارتداد عنها، حتى صارت أمريكا حامية لكل الزنادقة والملحدين والمرتدين في العالم الإسلامي، لتتخذ منهم رأس حربة في حربها ضد الإسلام نفسه. وقد شهدت السنوات الأخيرة عدداً من الظواهر والمظاهر التي تترجم عن سوء توظيف مفاهيم الليبرالية الدينية التي تُعد الوجه الاعتقادي للمنظومة الليبرالية"([2])، ويمكن إجمال ذلك في التالي:

-فباسم الليبرالية الدينية والفكرية باركت الولايات المتحدة أحياناً، وصمتت أحياناً أخرى عن تطاول سفهاء الأعداء في الدنمارك وغيرها على شخص النبي ﷺ([3]).

-وباسم الليبرالية الدينية أقامت أمريكا الدنيا وأقعدتها لنصرة المرتد الأفغاني "عبد الرحمن عبد المنان"، الذي تنصر في مدينة بشاور في باكستان عام ١٩٩٠م على أيدي الجمعيات التنصيرية التي كانت تعمل هناك، في ذروة الجهاد الأفغاني ضد الروس([4]).

ثانياً: الليبرالية الاجتماعية

يركز أنصار الليبرالية على الترويج لليبرالية الاجتماعية التي يرغبون عبر التركيز عليها نتائج ملموسة نحو التغيير التغريبي المقصود، ولاسيما أن الحكومات في بلاد المسلمين لا تُصغي كثيراً لدعاة الليبرالية في مجال السياسة على وجه الخصوص.

وتركيز الليبراليين في بلاد المسلمين على التبشير بالليبرالية الاجتماعية يعكس اهتماماً غربياً أيضا، فالغرب كثَّف الحديث في الآونة الأخيرة على مفاهيم تلك الليبرالية الاجتماعية تحت شعار الانفتاح القيمي، مطالباً في الوقت نفسه بتهميش المنطلقات القيمية وتسفيهها في المجتمعات الإسلامية في محاولة لإقصائها وتحجيمها.

"ويرى الليبراليون في مجتمعاتنا أن الموضوعات المتعلقة بالأسرة والمرأة والأخلاق والتقاليد والروابط الاجتماعية، لابد أن يُرتقى بها إلى المستوى الموجود في الغرب، ويتجاهل هؤلاء أن الليبرالية بأنواعها بروتستانتية المنشأ، يهودية الهوى والهوية، وهي لذلك لا تصلح في بلادنا التي لم تعرف تسلطاً كنسياً، ولا حرماناً كهنوتياً، ولا تحكماً إقطاعياً، بل ولا كبتاً روحياً أو عاطفياً أو غير ذلك، مما يريد دعاة الليبرالية الاجتماعية التنفيس عنه بمبادئهم الساعية إلى إطلاق العنان

---

[1] انظر: الليبرالية نشأتها وتطورها، ص١٥.

[2] معركة الثوابت بين الإسلام والليبرالية، ص١٠٤.

[3] انظر: المرجع السابق، ص١٠٤.

[4] المرجع السابق، ص١٠٤.

لطلاق الأديان طلاقاً بائنا، لا يُرجعه محلل أو محرم"([1]). وهذه مشكلة كل أصحاب الأفكار المستوردة من الغرب، يأتون بالأفكار الغربية دون أن يبحثوا عن إمكانية تطبيقها في بلاد المسلمين.

"وترتكز الليبرالية الاجتماعية على أجنحةٍ ثلاثة، أولاها الشعارات المتعلقة بالمرأة، ومن اطلع على شعاراتهم يكتشف أنهم لا يقصدون سوى تدمير الأسرة، أما ثاني شعاراتهم فيتمثل بالمواطنة، التي يحاولون من خلالها استبدال مفهوم الأخوة الإسلامية، أما ثالث شعاراتهم فهي فكرة المجتمع المدني، التي يحاولون من خلالها استبدال مفهوم المجتمع الإسلامي"([2]).

٣- الليبرالية السياسية (الديمقراطية)

يخطئ كثير من الباحثين عندما يفرقون بين مصطلحي الديمقراطية والليبرالية السياسية، ويرجع ذلك إلى أن مصطلح الليبرالية مصطلح غير محدد التكوين، ينظر إليه الباحثون كلٌ من زاويته، والحقيقة أن مصطلح الديمقراطية لا يعني بحال سوى مصطلح الليبرالية السياسية، وعليه فالديمقراطية وجه من الأوجه المتعددة لليبرالية، "فالعلمانية الليبرالية هي أم الديمقراطية التي لا يمكن أن تنفصل عنها أبداً"([3]).

"والديمقراطية Democracy كلمة مشتقة من لفظتين يونانيتين Demos (الشعب) و Kratos (سلطة) ومعناها الحكم الذي تكون فيه السلطة للشعب. وتطلق علي نظام الحكم الذي يكون الشعب فيه رقيبا علي أعمال الحكومة بواسطة المجالس النيابية، ويكون لنواب الأمة سلطة إصدار القوانين"([4]).

وفي ظل الإقطاع الذي كان سائداً في أوروبا، لم يكن " للشعب " وجود إلا بوصفه قطعا آدمية لاصقة بالطين، لا كرامة لها ولا حقوق.

كان هناك قساوسة مستبدون بالحكم يحكمون بمقتضي " الحق الألهي المقدس " باعتبارهم " ظل الله في الأرض" فكلامهم أمر، وأمرهم مقدس، وما بدا لهم من أهواء فهي أوامر واجبة التنفيذ.

ويعاونهم في تثبيت سلطانهم وتوكيده في الأرض أمراء الإقطاعيات الواقعة في ملكهم، مقابل إطلاق يد هؤلاء الأمراء -الذين يسمون: النبلاء أو الإشراف- في إقطاعياتهم، يتصرفون فيها كيف شاءوا دون مراجعة ولا رقابة تضبط تصرفاتهم، لأن الذين يعيشون علي أرض الإقطاعية هم إما عبيد وإما في حكم العبيد([5]).

---

[1] الليبرالية نشأتها ومجالاتها، ص٥٢.

[2] معركة الثوابت بين الإسلام والليبرالية، ص١٢٠.

[3] انظر: المرجع السابق، ص١٤٩.

[4] مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب، ص١٤٨.

[5] انظر: المرجع السابق، ص١٥٠.

وفي ظل تلك الظروف تفجرت الثورة في البلاد الأوروبية، ووجدت الشعوب نفسها باحثةً عن سلطانها المهدور، والذي يتقاسمه رجال الدين مع الملوك، فوجدت عزاءها في الديمقراطية.
وإذا كانت أوروبا قد اختارت الديمقراطية كحل لمشاكلها، فقد كان من أبناء المسلمين مَن تبنى هذه المبادئ أيضاً، متغافلاً قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (المائدة: ٤٤).

وقد عانى المسلمون أيما معاناة من الشعارات البراقة للديمقراطية، فباسم مبادئ الديمقراطية احتلت العراق وتم إحراق اليابس والأخضر فيها، وباسم الديمقراطية تمت محاصرة شعب فلسطين بسبب فوز الإسلاميين الذين لا ترغب بهم الولايات المتحدة، وباسم الديمقراطية يتم التدخل في الشؤون الداخلية للشعوب، فيتم تغيير المناهج التعليمية لبلاد المسلمين، حتى تُطمس الهوية الذاتية للمسلمين.

رابعاً: الليبرالية الاقتصادية (الرأسمالية)

إذا كان الفرد وفقاً لحريته المطلقة هو من يشرع القوانين في الليبرالية السياسية، فإن الفرد وحريته المطلقة في الكسب والإنفاق والاستهلاك هو المغزى المقصود في الليبرالية الاقتصادية، فالكائن الإنساني لكونه مخلوقا أنانيا، ينبغي احترام أنانيته لأنها أساس آدميته، وبناء على هذا المنطلق نشأت الليبرالية الاقتصادية أو الرأسمالية التي هي عبارة عن مذهب اقتصادي يرى أن الدولة لا ينبغي لها أن تتولى وظائف صناعية ولا وظائف تجارية، وأنها لا يحق لها التدخل في العلاقات الاقتصادية التي تقوم بين الأفراد والطبقات والأمم([1]). ويمكن القول أنه لا دور مطلقاً للدولة في الليبرالية الاقتصادية، إذ لا يحق للدولة التدخل مطلقاً في تدبير الشؤون الاقتصادية، وإن كان لها دور فدور الرقيب لا أكثر ولا أقل، وإن كانت كثير من الدول الليبرالية بدأت تستغني عن هذا، بمعنى أنه أصبح للدولة دور ولو من بعيد في تسيير عجلة الاقتصاد.

والحقيقة أن الليبرالية الاقتصادية اصطدمت مع الواقع، لأنها جاءت على خلاف الفطرة التي فطر الله الناسَ عليها، فالإنسان في هذه الدنيا جزء من مجتمع، وليس حراً طليقاً لا علاقةَ له بالمحيط الذي يحيا فيه، ولهذا فإن تشريعات الإسلام جاءت دائماً لتراعي حاجيات الفرد وحاجيات المجتمع، ولأن الرأسمالية سمحت للفرد أن يتمادى في أنانيته، فقد حملت نهاية الحرب العالمية الثانية أنباء فشل الرأسمالية في كثير من البلدان التي آمنت بها، فتراجع الاقتصاد، وحدثت أزمات مالية وتجارية في كثير من هذه البلدان، وهذا ما جعل الرأسمالية تعيد ترتيب أوراقها، فبعد ان كان الليبراليون يرفضون تدخل الدولة في الاقتصاد، سمحوا لها بأن تتدخل، وأن تضخ أموالاً وأن تتملك أشياءً بجانب الأفراد، وكانت الولايات المتحدة أول من تبنى الليبرالية

---

[1] انظر: معركة الثوابت بين الإسلام والليبرالية، ص١٦٨.

بصورتها الجديدة، فكانت أول المستفيدين منها، فملكت اقتصاداً قوياً لسنوات، وهذا ما جعل كثيرون يتبنون أفكارها الاقتصادية، لكنْ شاء الله عزوجل أن يدمر هذا المثل، وهذه الفكرة، وما الأزمة الاقتصادية الأمريكية العالمية منا ببعيد.

موقف الإسلام من الليبرالية

الليبرالية بأنواعها مرفوضة في الإسلام رفضاً قاطعا، لأنها تتناقض مع المبادئ العامة للإسلام أولاً، وبجملة من الأحكام التفصيلية أيضاً.

فالليبرالية الدينية التي تعني الديمقراطية الغربية تتعارض بمبدأ حاكمية الله﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠ ﴾ (يوسف: ٤٠) والليبرالية الاقتصادية مرفوضة لأنها تعني الرأسمالية المستبدة والممتصة لدماء الفقراء والمعدمين، التي لأجلها وبسببها قامت الولايات المتحدة بالحروب ودمرت الشعوب، بالإضافة إلى كون الرأسمالية تُقدِّس الفرد وتطغى به على الجماعة، بل وفي سبيل مصلحة الفرد الأنانية تُنْتَهَك حرمة شعوب ودول، وتُرْتَسَم ملامح الحروب والصراعات المستقبلية، وقبل الحرب على العراق بقليل كتب أحد المفكرين الليبراليين يقول: "إن السياسة المستقبلية للكرة الأرضية، ستكون محكومة بالموارد التي تمتلكها الشعوب الفقيرة، فحيثما وُجدت الموارد فستشرئب الأعين، وستزداد النزاعات بالتالي"([1])

والليبرالية الاجتماعية ليست سوى انقلاب داخلي على الدين، إنها انقلاب على الزواج، وعلى نظام الطلاق، ونظام العلاقات الأسرية والعلاقة الراقية التي تربط بين الأب والابن وسائر أفراد الأسرة في الإسلام.

ثالثاً: القومية

القومية هي أيديولوجية وحركة اجتماعية سياسية نشأت مع مفهوم الأمة في عصر الثورات: الثورة الصناعية، الثورة البرجوازية، والثورة الليبرالية، في الفترة من أواخر القرن الثامن عشر([2]).

وهي فكرة تقوم على تشكيل رابطة بين الناس، إما على أساس اللغة أو العرق أو التاريخ أو الهموم والآمال المشتركة، "وقد اختلف الدعاة إليها في عناصرها، فمن قائل: أنها الوطن والنسب واللغة العربية ومن قائل: أنها اللغة فقط ومن قائل: أنها اللغة مع المشاركة في الآلام والآمال، ومن قائل غير ذلك، وأما الدين فليس من عناصرها عند أساطينهم والصرحاء منهم، وقد صرح كثير بأن الدين لا دخل له في القومية، وصرح بعضهم أنها تحترم الأديان كلها من الإسلام

---

[1] الحروب على الموارد... الجغرافيا الجديدة للنزاعات العالمية، مايكل كلير، ترجمة: عدنان حسن، ص٢٣٩، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، ٢٠٠٢م.

[2] انظر: معجم المصطلحات والشواهد والفلسفية، جلال الدين سعيد، ص٢٤٥، الطبعة الأولى، دار الجنوب للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٦٠م.

وغيره وهدفها كما يعلم من كلامهم هو التكتل والتجمع والتكاتف ضد الأعداء ولتحصيل المصالح المشتركة كما سلف"([1]).

نشأة القومية

إذا أردنا أن نرجع إلى تاريخ القومية القديم، فإننا نجد أكثر الناس غلواً في القومية والعنصرية – ولا يزالون إلى اليوم – هم اليهود، فربما يكون لليهود السبق في تعليم غيرهم من الأمم التعصب العرقي الذميم المغالى فيه جداً، فإن الأمم الأخرى – وإن كانت كل أمة تتعصب لقوميتها إلا أنها لم تبلغ حداً يفوق اليهود، وإنما أكثر الأمم قوميةً ظهرت تبعاً لليهود، كما حدث للقومية النازية في ألمانيا أو الفاشية في إيطاليا، فهي قد ظهرت متأثرة بالفكر اليهودي([2]).

أما في أوروبا فإن القومية لم تكن معروفة فيها على الإطلاق، إنما كان الأصل في العالم –فيما يسميه المؤرخون في القرون الوسطى– هو الدين، "وكانت القاعدة في التعامل هي الدين، وكان الإنسان يسأل أكثر ما يسأل عن دينه، فهو إما مسلم وإما نصراني وإما يهودي وإما مجوسي... إلخ، أما العصبيات والعنصريات فلها اعتبار ثانٍ يأتي بعد الدين، وكان ذلك في أوروبا وفي الشرق وفي كل مكان حتى ظهرت الفكرة القومية"([3]).

فلما ظهرت هذه الفكرة بشكل وطني، وذلك بظهور الثورة الفرنسية، التي يزعم الغربيون أنها مفتاح الحرية ومشرق النور وفجر المساواة والعدالة والحضارة الحديثة، فعندما ظهرت الثورة الفرنسية لم يكن لها أي طابع ديني، وإنما كانت وطنية تقول: إن الناس جميعاً متساوون في الوطنية، فلا ينظر إلى أديانهم وعقائدهم ومللهم، هذه الفكرة كانت جديدة على الناس سواء في بلاد الغرب أو الشرق، لأن الناس إنما يتفاضلون بحسب الدين، وكل إنسان يرى أنه أفضل من غيره ديناً، ومهما كان المخالف له في الدين فإنه يحتقره([4]).

وعليه فقد كان ظهور مصطلح القومية ثورة على نفوذ الكنيسة، وانقلاب على تعاليمها التي كانت تجمع الأوروبيين كلهم في كنف دولة واحدة.

ويمكن القول أنه "في القرن التاسع عشر دخلت أوروبا عصر القوميات، ونتج عن الحركات القومية الأوروبية في هذا العصر ظاهرتان متناقضتان، الأولى تدعو إلى الانسلاخ من

---

[1] نقد القومية العربية في ضوء الإسلام والواقع، ابن باز، ص٩، الطبعة الثالثة عشر، دار وهبة للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

[2] انظر: القومية، سفر بن عبد الرحمن الحوالي، ص٧، الطبعة الأولى، دار الجيل للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

[3] انظر: المرجع السابق، ص١٠.

[4] انظر: المرجع السابق، ص١١.

الإمبراطوريات الكبرى، والثانية تدعو إلى ضم شتات الإمارات الصغيرة التي يُعتقد أنها تنتمي إلى أصول عرقية مشتركة"([1])

عوامل نشأة القومية في أوروبا

يمكن إجمال الأسباب التي أدت إلى ظهور القومية في أوروبا في التالي([2]):

١ - الرغبة في التمرد على الكنيسة، وكل ما ينجم عنها من تشريعات وأنظمة حياة، ولما كانت الكنيسة تُجمع الناس على أساس ديني، فقد كانت الثورة المضادة حاملة رايات القوميات إذن.

٢ - ظهور مذاهب سياسية وفلسفية ذات نزعات عنصرية، تُقسم البشر على أساس أجناسهم وأصولهم.

٣ - الإنسان بطبعه كائن اجتماعي يبحث دائماً عن روابط تجمعه من الآخرين، ولما فشل رابط الدين أن يجمع الأوروبيين، بحثوا عن روابط أخرى كانت القومية من أهمها.

نشأة القومية في بلاد المسلمين

مصطلح القومية مصطلح غريب تم إقحامه إقحاماً للعقلية العربية، "إذ يذكر المؤرخون أن القرن التاسع عشر لم يعرف "قضية عربية" في المحافل السياسية الدولية، وقليلاً ما كانت لفظة "عرب" ذاتها تُطلق في الكتب والوثائق على سكان الولايات العربية في الإمبراطورية العثمانية"([3]).

"وظلت القومية خافتة ضعيفة، ولكن الاحتكاك بالغرب وإرسالياته في الشرق في مجالاتٍ كثيرة، جعل الفكرة تنتشر بسرعة بين المسيحيين، وانتقلت بواسطتهم إلى المسلمين"([4]).

"وقد تمثلت بدايات الفكر القومي العربي في جمعيات وخلايا سرية في المشرق العربي، أسسها نفر من نصارى بلاد الشام، لعل من أقدمها الجمعية السورية، وجمعية حقوق الملة العربية، وجمعية رابطة الوطن العربي في باريس، وجمعية الوطن العربي، وجمعية العربية الفتاة في باريس، ثم ظهرت الدعوة القومية في حركة سياسية واضحة المعالم في المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس أيضاً"([5]).

---

[1] واقعنا المعاصر والغزو الفكري، ص١٣٥.

[2] انظر: الحل الإسلامي فريضة وضرورة.. سلسلة حتمية الحل الإسلامي، يوسف القرضاوي، ص٨٨، الطبعة السادسة، مكتبة وهبة، جمهورية مصر العربية، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

[3] الحلول المستوردة وكيف جنَت على أمتنا... سلسلة حتمية الحل الإسلامي، يوسف القرضاوي، ص١٤٣، الطبعة الخامسة، مكتبة وهبة للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

[4] انظر: المرجع السابق، ص١٤٤.

[5] الإسلاميون والقوميون جسور التلاقي وحواجز الخلاف، أحمد محمد كنعان، ص٥، الطبعة الثانية، مكتبة الشروق للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٩٩٩م.

ويعد المفكر ساطع الحصري([1])، من أوائل منظري القومية العربية، ومن أهم مفكريها وأشهر دعاتها، وله مؤلفات كثيرة تعد الأساس الذي تقوم عليه فكرة القومية العربية، ويأتي بعده في الأهمية ميشيل عفلق([2]).

ولقد قام القوميون العرب بجملة من الأفعال المشينة للإسلام، فقد قاموا بتزييف التاريخ ليوافق هواهم، فعملوا على تسمية الثقافة الإسلامية الثقافة العربية، والحضارة الإسلامية حضارة عربية، والفتوحات الإسلامية فتوحات عربية، وأبطال المسلمين أبطال العرب، حتى "أبو حنيفة" و"صلاح الدين" وأمثالهم كلهم من أعلام العرب، وهذا تحريف للواقع التاريخي لا يجوز بحال، ولون آخر من التحريف نراه في تسميتهم حكم العثمانيين استعماراً للبلاد العربية، وتسمية الأتراك أجانب، وهي مفاهيم دخيلة مزورة على تاريخ المنطقة، فلم يكن العرب ينظرون قط إلى الحكم العثماني وإلى الأتراك قط هذه النظرة([3]).

موقف الإسلام من القومية

لولا الإسلام لبقي العرب الأولون قبائل تائهة في صحراء الجزيرة، ولما سجل لهم التاريخ إلا سطوراً تافهة مهجورة من صحائفه، ومن الغريب أن يتم المناداة إلى عدم حبس الثقافة العربية في عمامة الشريعة الإسلامية، يقول الشيخ الغزالي معلقاً على هذا النداء: "وأين كانت الثقافة العربية قبل الإسلام، أَفي الحانات التي كان يسكر فيها امرؤ القيس؟ أم في أذناب الخيل التي كان يمتطيها عنترة بن شداد؟! لماذا كل هذه الضغائن على الإسلام؟"([4]).

"ومن المعلوم من دين الإسلام بالضرورة أن الدعوة إلى القومية العربية أو غيرها من القوميات، دعوة باطلة وخطأ عظيم، ومنكر ظاهر، وجاهلية وكيد سافر للإسلام وأهله، وذلك لوجوه"([5]):

أولاً: أن الدعوة إلى القومية العربية تفرق بين المسلمين، وتفصل المسلم العجمي عن أخيه العربي، وتفرق بين العرب أنفسهم ، لأنهم ليسوا كلهم يرتضونها، وإنما يرضاها منهم قوم دون قوم، وكل فكرة تقسم المسلمين وتجعلهم أحزابا فكرة باطلة، تخالف مقاصد الإسلام وما يرمي

---

[1] ساطع بن محمد هلال الحصري، أبو خلدون: كاتب باحث، صنف أكثر من ٥٠ كتابا عربيا منها" (مبادئ القراءة الخلدونية) و (دروس في أصول التدريس) و (العروبة أولا) و(الدفاع عن العروبة) و(مذكرات عن العراق) و (دراسات عن مقدمة ابن خلدون) جزآن، و (آراء في التاريخ والاجتماع) و (آراء في التربية والتعليم). (الأعلام للزركلي، جـ٣، ص٧٠).

[2] انظر: الإسلاميون والقوميون، ص٧.

[3] انظر: الحلول المستوردة، ص١٥٥.

[4] حقيقة القومية العربية، محمد الغزالي، ص٧، الطبعة الثانية، دار نهضة مصر للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٩٩٨م.

[5] نقد القومية العربية، ص٦.

إليه، وذلك لأنه يدعو إلى الاجتماع والوئام، والتواصي بالحق والتعاون على البر والتقوى، كما يدل على ذلك قوله سبحانه:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (آل عمران: ١٠٢ – ١٠٣).

ثانياً: "هذه الفكرة، أعني الدعوة إلى القومية العربية وردت إلينا من أعدائنا الغربيين، وكادوا بها المسلمين، ويقصدون من ورائها فصل بعضهم عن بعض، وتحطيم كيانهم، وتفريق شملهم، على قاعدتهم المشئومة (فرق تسد) وكم نالوا من الإسلام وأهله بهذه القاعدة النحيسة، مما يحزن القلوب ويدمي العيون"([1]).

ثالثاً: الإسلام نهى عن دعوى الجاهلية وحذر منها، وأبدى في ذلك وأعاد في نصوص كثيرة بل قد جاءت النصوص تنهى عن جميع أخلاق الجاهلية، وأعمالهم إلا ما أقره الإسلام من ذلك، ولا ريب أن الدعوة إلى القومية العربية من أمر الجاهلية، قال تعالى:﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ (الفتح: ٢٦) قال تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (الحجرات: ١٣).

رابعاً: الاشتراكية

وهي من أكثر المذاهب الوافدة لبلاد المسلمين خطورة، وخطورتها تكمن في أنها تتنكر لأسس الدين والعقيدة، وأنها لاقت قبولاً عند كثير من أبناء المسلمين.

والاشتراكية ارتبطت ارتباطا وثيقاً بالشيوعية، "وليست الشيوعية مذهبا اقتصاديا بحتا كما يتبادر إلى ذهن كثير من الناس حين يسمعون لفظة الشيوعية، وإن كان لها ولا شك مذهب اقتصادي محدد متميز، إنما هي تصور شامل للكون والحياة والإنسان لقضية الإلوهية كذلك، وعن هذا التصور الشامل ينبثق المذهب الاقتصادي . ثم إنها من جهة أخرى مذهب اقتصادي واجتماعي وسياسي وفكري مترابط متشابك لا يمكن فصل بعضه عن بعض .

ومن ثم فلا يمكن عزل المذهب الاقتصادي وحده بعيدا عن التصور الشامل الذي ينبثق عنه، أو بعيدا عن الأوضاع الاجتماعية والسياسية والفكرية المصاحبة له"([2]).

---

[1] نقد القومية العربية، ص٦.

[2] مذاهب فكرية معاصرة، ص٢١٥.

وتقوم الاشتراكية على فكرة امتلاك الشعوب لوسائل الإنتاج، بمعنى أن الشعب هو المالك الحقيقي لكل المقدرات المتواجدة في أي مكان، وعليه يجب نزع الأملاك الخاصة التي يتفرد بها الأثرياء لتغدو ملكاً للجماهير، ليغدو الناس متساويين من الناحية الاقتصادية، فلا يوجد أغنياء ولا يوجد فقراء، بل الناس متساوون وكلهم على نفس المستوى الاقتصادي.

وهي بالتالي تتناقض مع الفطرة التي فطر الناس عليها، من كون بعضهم أغنياء وبعضهم فقراء، بعضهم أذكياء أو أقوياء أو سوى ذلك، فالناس ليسوا متساوين، فالقدرات التي يمتلكها إنسان لا يمتلكها آخر، قال تعالى:﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الزخرف: ٣٢). والمقصود بالآية النبوة وسائر الفضائل الدنيوية الأخرى، ولاشك أن مستوى المعيشة داخل فيها.([1])

نشأة الاشتراكية

لم تظهر الاشتراكية في أوروبا دفعة واحدة، بل مرت بأطوار وأطوار حتى تم تتويجها بنظرية رسمية على يد مؤسسها كارل ماركس([2])، وكان ذلك متمثلاً بكتاب أسماه:"بيان الحزب الشيوعي".

وقد وجَّه ماركس نداءه في هذا الكتاب إلى العمال الفقراء المعدمين على كل الكرة الأرضية، طالباً منهم الاتحاد والتصدي للرأسمالية العالمية المستبدة كلٌ في وطنه وكلٌ في موقعه، وعليه فقد كانت دعوى ماركس عالمية أممية أيدلوجية، تربط بين كل مواطني العالم على رابطة تتجاوز رابطة الوطنية أو القومية، هي رابطة الانتماء لطبقة البوليتاريا([3]).

ومن ثم توالت كتابات ماركس الشارحة لنظريته في كتابات أخرى، وقد وجدت كتاباته صدى كبيراً في المجتمع الأوروبي، وذلك لأن المجتمعات الغربية كانت تعاني من تسلط ثلة من الإقطاعيين وتحكمهم في ثروات ومقدرات الشعوب هناك.

---

[1] انظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، المؤلف: د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، الطبعة الثانية، جـ٥، ص٧٨، دار الفكر المعاصر، سوريا، ١٤١٨هـ.

[2] مؤسس الشيوعية العلمية و فلسفة المادية الجدلية و المادية التاريخية و الاقتصاد السياسي العلمي، وهو يعتبر المفكر الأول الذي استطاع أن يصوغ نظرية اشتراكية متكاملة. (http://www.new hiwar/8FE17222-D5F3-4ECC-A4F4-F38D70).

[3] انظر: البيان الشيوعي، كارل ماركس، فريديريك إنجلز، ترجمة: مجموعة مترجمين، الطبعة الخامسة عشر، دار الطليعة الجديدة، سوريا، ١٩٨٥م.

لكن التطبيق العملي للنظرية لم يتحقق إلا في عهد لينين([1]) الذي قاد الثورة البلشفية في روسيا في العام ١٩١٧م منهياً بها حقبة الحكم القيصري هناك، وكان لهذه الثورة الأثر الكبير في انتشار الفكرة الاشتراكية إلى كافة الشعوب في العالم، والشعوب العربية بالتالي.

نشأة الاشتراكية في بلاد المسلمين

أكثر الذين تبنوا النظرية الاشتراكية كانوا من القوميين العرب، فبعد الفراغ الذي خلفه غياب دولة الخلافة الراشدة، حاول كثير من المنهزمين أن يملئوا الفراغ بمذاهب بعيدة تماماً عن الإسلام.

وعلى الرغم من التناقض الكبير بين دعوة القومية ودعوة الاشتراكية، من حيث أن القومية دعوة للتمسك بالحدود القومية كاللغة والأرض والعادات...إلخ، بينما الاشتراكية دعوة قائمة على تغافل هذه الحدود والتمسك بالحدود الاقتصادية الاجتماعية للفرد، فإنهما اتفقتا أيما اتفاق فيما بينهما، وهذا لا يؤكد سوى شيء واحد، هو أن دعاة الأفكار اللادينية لديهم الاستعداد للتمسك بأية قيمة أو أية فكرة طالما أنها تعادي الإسلام.

ويمكن القول أن الاشتراكية ظلَّت قولاً تنظيرياً في بلاد المسلمين، حتى تبناها الزعيم القومي جمال عبد الناصر في مصر، أو تبنى كثير من أفكارها، فدعا إلى تأميم وسائل الانتاج، وسلب من الأغنياء ثرواتهم وأمم قناة السويس، "وبهذا كانت مصر أول دولة عربية تتخذ الاشتراكية الثورية دستورا لسياستها الاقتصادية والاجتماعية، وفي خطها مشت البلاد الأخرى، ولولا تبني مصر للاشتراكية وتجنيدها أجهزتها وقواها للدعوة إليها، والتبشير بها، لظلت الاشتراكية ضعيفة إلى زمن غير قليل"([2]).

موقف الإسلام من الاشتراكية

تتناقض الاشتراكية تناقضاً تاماً مع الإسلام، وهناك فروق جوهرية بينها وبين الإسلام يمكن إجمالها في التالي:

١-من حيث المقصد

يتمثل مقصد النظام الاقتصادي الإسلامي في إشباع الحاجات الأصلية للإنسان، وتوفير حد الكفاية ليحيا الناس حياة طيبة رغدة وليعينهم على تعمير الأرض وعبادة الله عز وجل، وبذلك فهو يهدف إلي تحقيق الإشباع المادي والروحي للإنسان وأساس ذلك قول الله عز وجل : ﴿ هُوَ

---

١. لينين: قائد الحزب البلشفي والثورة البلشفية، وهو مفكر سياسي واقتصادي جُمِعت أعماله الفكرية في ثلاثين مجلداً تُرجمت للعربية، وهو إلى جوار ذلك قائد عسكري. (قصص عن لينين، اسكندر كونونوف، ترجمة: برهان الخطيب، ص٣، الطبعة الأولى، دار رادوغا، الاتحاد السوفيتي، ١٩٨٤م.).

[2] الحلول المستوردة، ص١٦٢.

أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ (هـود: ٦١)، وقوله كذلك :﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الذاريات: ٥٦).

أما مقاصد النظم الاقتصادية الوضعية هي تحقيق أقصى إشباع مادي ممكن وتكوين الثروات، بدون أي اعتبار إلي الإشباع الروحي([1])، وهذا ما يظهر في النظام الاشتراكي أكثر ما يكون، "لأنه نظام قائم على الفلسفة المادية، ولا دخل للجوانب الروحية فيه إطلاقاً"([2]).

٢- من حيث المنهج

يقوم النظام الاقتصادي الإسلامي على كون الكون بأسره بكل ما فيه من موارد إنتاج وثروات، هو ملكٌ لله، وأن الإنسان مستخلفٌ فيه، وهو مسؤول عنه يوم القيامة، بينما يقوم النظام الاشتراكي على أن موارد الانتاج ملكٌ للدولة([3]).

٣-من حيث التشريع

مصدر التشريع وسن القوانين في النظام الاشتراكي هما المفكران المخترعان الأولان ماركس وإنجلز، ومن ثم اجتهادات القيادات الفكرية والسياسية للحزب الشيوعي مثل لينين وستالين، بينما يضبط النظام الاقتصادي الإسلامي مجموعة من القواعد والأصول والأسس المستنبطة من مصادر الشريعة الإسلامية: القرآن والسنة واجتهاد الفقهاء الثقاة، كما أنه لا يتعارض مع مقاصد الشريعة الإسلامية بل يعمل على تحقيقها وهي حفظ الدين والعقل والنفس والعرض والمال وتتسم قواعد الاقتصاد الإسلامي بالثبات والعالمية والواقعية، وتأتي المرونة في التفاصيل والإجراءات والأساليب والأدوات والوسائل([4]).

---

[1] انظر: الفروق الأساسية بين النظام الاقتصادي الإسلامي والنظم الاقتصادية الوضعية، حسين شحاتة، ص٣، الطبعة الأولى، دار نهضة مصر، جمهورية مصر العربية، ١٩٩٠م.

[2] الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، ص١٤٥.

[3] انظر: المرجع السابق، ص١٤٦.

[4] انظر: الأفكار المستوردة وكيف جنت على أمتنا للقرضاوي، ص٥٠، و نظام الإسلام الحكم والدولة، محمد المبارك، ص٥٥، الطبعة الرابعة، دار الفكر، سوريا، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

المبحث الثاني:الأساليب الغربية العدائية المستجدة

وفيه المطالب الآتية:

المطلب الأول:مؤسسات المجتمع المدني

المطلب الثاني:عملاء الداخل وأجراء الغرب

المطلب الثالث: محاربة الحركات الإسلامية

المطلب الرابع: إشاعة الاتهامات والافتراءات والمصطلحات الموهمة

المطلب الأول:مؤسسات المجتمع المدني

من ضمن الأساليب المستجدة التي استحدثها الغرب في الآونة الأخيرة لزعزعة القيم والأفكار الإسلامية في بلاد المسلمين ما يسمى بمؤسسات المجتمع المدني، وهي مؤسسات يتم تمويلها من الغرب على وجه العموم ومن الولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص بهدف تقويض كثير من الأفكار الإسلامية التي لم تفلح الوسائل الغربية التقليدية في النيل منها.

ويعرفها أصحابها على أنها "عبارة عن شبكات غير حكومية تتشكل من أفراد المجتمع المدني لتحقيق أهداف ترسم مسبقاً، لتنمية المجتمع ورفع مستوى معيشة الشعب، وكذلك تعمل على رفع الحيف الذي يطال بعض الشرائح والفئات من المجتمع وضمان حقوق الإنسان"([1]). أو هي "مجموعة من التنظيمات التطوعية الحرة التي تملأ المجال العام بين الأفراد والدولة، وهدفها هو تقديم خدمات للمواطنين أو تحقيق مصالحهم أو ممارسة أنشطة إنسانية مختلفة، مثل: النقابات المهنية والعمالية والجمعيات التعاونية والأهلية ومراكز البحوث والجمعيات الثقافية ومراكز حقوق الإنسان"([2])

وواضح من التعريف أن هذه المؤسسات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بجملة من القضايا الأساسية التي تخص الإنسان، مثل حقوق الإنسان، العدالة وعدم الظلم، ومستوى المعيشة.

وكل هذه القضايا هي بمثابة شعارات براقة ترفعها مؤسسات المجتمع المدني في قلب العالم العربي والإسلامي، وهي عندما ترفع مثل هذه الشعارات تعلم أنها ستجد لها صدى وقبولا، لأنها تتناغم مع مشكلات الإنسان العربي والمسلم، لكن الإشكالية تكمن في أن هذه الشعارات تستلهم من القيم الغربية أصولها وقواعدها ووسائلها، وتتنكر للإسلام، بل وتحارب كثير من مفاهيمه في كثير من الأحيان.

نشأة مؤسسات المجتمع المدني في الغرب

مؤسسات المجتمع المدني جاءت كرد فعل طبيعي على انحراف مسار الديمقراطية في البلاد الغربية، فإذا كانت الديمقراطية قد جاءت في الغرب بعد صراع طويل بين الشعب من جهة، وبين الكنيسة والسلطة الحاكمة من جهة أخرى، بهدف استعادة الشعب لحقه في أخذ القرارات المتعلقة به، السياسية منها والاقتصادية والاجتماعية، فقد حدث هناك ما جعل الديمقراطية تبدو وكأنها محاولة تجميلية لأنظمة الظلم والاستبداد القديم.

---

[1] منظمات المجتمع المدني النشأة الآليات وأدوات العمل وتحقيق الأهداف، محمد الفاتح عبد الوهاب العتيبي، ص٧، الطبعة الأولى، منشورات ملتقى المرأة للتدريب والبحوث، اليمن، ١٩٩٩م.

[2] المرجع السابق، ص١٢.

فهناك ومن خلال نظام الانتخابات القائم على الدعاية، بدا واضحاً وجلياً أن الذين يملكون القدرة على تكاليف الانتخابات هم أبناء الطبقة العليا من المجتمع والذين يملكون المال بدورهم، ويستطيعون من خلال هذا المال أن يقوموا بالدعاية باهظة الثمن، ليتسلموا مناصب الحكم، ليسنوا القوانين التي تحلو لهم، بعيداً عن مصالح الشعب.

" وكان الشعب مستبعداً في الستينات والسبعينات من عملية التخطيط والتنمية وصناعة القرار في الغالبية العظمى من دول العالم، وكان يتم الاقتصار والاعتماد على خبرات الحكومات وإرادة النخبة الحاكمة، فكان التخطيط التنموي يتم من أعلى إلى أسفل ودون مشاركة حقيقية للقاعدة الجماهيرية العريضة، مما نتج عنه ضعف المردود والعائد التنموي إلى حد كبير"([1]).

وبناءً عليه فقد تشكلت جمعيات ومؤسسات طوعية في كافة مجالات الحياة هناك، الصحية والاجتماعية والثقافية...إلخ، لتبدو هذه المؤسسات وكأنها سلطة خامسة لها دور في تحديد مسار الدولة على كافة الأصعدة الحياتية، فمن خلال هذه المؤسسات كان يتم التأثير في الرأي العام الغربي، الذي لا يعني الساسة هناك شيء أكثر منه.

نشأة مؤسسات المجتمع المدني في بلاد المسلمين

يمكن القول أن مؤسسات المجتمع المدني بدأت بالظهور في البلاد العربية والإسلامية في بداية تسعينيات القرن الماضي، وذلك بعد سقوط دولة الاتحاد السوفيتي.

فالولايات المتحدة الأمريكية التي وجدت في العالم الإسلامي عدوها القادم بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، صقلتها التجربة وعلمتها أن هناك وسائل سوى الوسائل العسكرية من الممكن أن تكون أكثر فاعلية في الشعوب المعادية لها.

يقول أحد المفكرين الغربيين: "من غير المحتمل أن تُدمر القوة العسكرية المحضة مصادر الإرهاب الإسلامي، مهما بلغت درجة صقلها، وقدرتها على السَّحق، وتكلفتها الباهظة، لأنه في الواقع إن الإرهابيين يتغذون على حروبنا ضدهم، إذ تأتي أسلحتنا لتكون عاملاً من عوامل الكره والسخط لدى المواطنين، فيجد المواطنون المسحوقون في الإرهابيين أبطالاً ينتقمون لهم، والحقيقة أنه يمكن هزيمة الإسلاميين الإرهابيين من الداخل، عن طريق مؤسسات المجتمع المدني، والثقافة التي من الممكن أن تزرعها هناك"([2]).

وعليه فإن مؤسسات المجتمع المدني هي صورة معدلة أو مطورة للتغريب، أو هي إحدى وسائله المستجدة المتلائمة مع تطورات الزمان.

---

[1] منظمات المجتمع المدني النشأة الأهداف، ص١٤.

[2] جسدي سلاحا... انتحار أم استشهاد، كريستوفر رويتر، ترجمة: فاطمة نصر، ص٢٧٣(بتصرف)، الطبعة الثانية، منشورات جمعية سطور، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٧م.

فكل الأهداف التي كان يأمل بها الغرب من التغريب متشابهة مع أهداف مؤسسات المجتمع المدني، وكل الوسائل التي استخدمت هناك استخدمت هنا.

أفكار مؤسسات المجتمع المدني

جاء في البند الثاني من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان:"لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في هذا الإعلان، دون أي تمييز، كالتمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو أي رأي آخر، أو الأصل الوطني أو الاجتماعي أو الثروة أو الميلاد أو أي وضع آخر، دون أية تفرقة بين الرجال والنساء. وفضلا عما تقدم فلن يكون هناك أي تمييز أساسه الوضع السياسي أو القانوني أو الدولي لبلد أو البقعة التي ينتمي إليها الفرد سواء كان هذا البلد أو تلك البقعة مستقلا أو تحت الوصاية أو غير متمتع بالحكم الذاتي أو كانت سيادته خاضعة لأي قيد من القيود"([1]).

وكما هو واضح، فإن معظم الأفكار التي تنادي بها مؤسسات المجتمع المدني تندرج في هذا البند، وهي كالتالي:

أولاً: المرأة

وهي من أهم القضايا التي يتم التركيز عليها في مؤسسات المجتمع المدني، ويتم ذلك بالإشارة إلى أن المرأة مظلومة في المجتمعات العربية، وأنها تعاني من جبروت الرجل، وتخضع لقراراته، لدرجة أنها لا تملك حرية اختيار ملبسها أو زواجها، تقول نوال سعداوي([2]): "موضوع المرأة في مجتمعاتنا العربية يركز على المظهر ويهمل المضمون، يتجاهل الأصول ويركز على الفروع، مثل ارتداء الجلباب أو النقاب"([3]) وتقول أيضاً: "في مصر لم تكف المرأة عن النضال من أجل التخلص من أغلال الدين، الدين الذي يحرم المرأة حقوقها وينحاز إلى الرجل"([4])، "فالدين خادم

---

[1] الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، هيئة الأمم المتحدة، ص٥، الطبعة الأولى، دار قرطاس للنشر، سوريا، ١٩٩٩م.

[2] نوال سعداوي: طبيبة، ناقدة وكاتبة وروائية مصرية ومدافعة عن حقوق الإنسان وحقوق المرأة بشكل خاص، ولنوال السعداوي جملة من الأفكار الغربية التي تتعارض مع الدين والعرف، وهذا ما جعلها مثاراً لانتقادات الأحزاب والحركات والمفكرين المحافظين في مصر. (المرأة والغربة، ص٢٠٠).

[3] المرأة والغربة، نوال سعداوي، ص١٠، الطبعة الأولى، دار المعارف للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٩٩٨م.

[4] المرأة والدين والأخلاق، نوال السعداوي، هبة رؤوف عزت، ص١٠٧، الطبعة الأولى، دار الفكر المعاصر، بيروت،١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

السياسة، وهناك تحالف بين الأديان جميعاً ضد المرأة، والدين حليف الرجعية، ويجب فصله عن حياة النساء ليتحقق التقدم"([1]).

والحقيقة أن تشريعات الإسلام تدحض مثل هذه الافتراءات، فقد جاء الإسلام وكل أمم الأرض تمتهن المرأة وتبخسها حقها، إلى أن جاء الإسلام ليقرر لها حقوقها كاملة لينقذها من ذلك الوضع المأساوي الشائن إلى آفاق سامية على الصعد كافة، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال التالي:

-المساواة في أصل النشأة

قرر الإسلام بشكل قاطع وحدة أصل النوع البشري وذلك في عدة آيات:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾ (الحجرات: ٣٢) ([2])

-المساواة في المصير

كما قرر أن البشر جميعا صائرون إلى الله الذي خلقهم أول مرة وكل واحد منهم ذكرا كان أم أنثى سيلقى هناك جزاء عمله في هذه الدنيا، إن خيرا فخير وإن شرا فشر،﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (آل عمران:١٩٥) ([3])

– المساواة في أهلية الخطاب الشرعي

فخطاب الله إلى البشر ورسالته إلى الناس متجهة إلى المرأة والرجل على حد سواء، وشخصية المرأة تجاه الرجل مستقلة تماما: فهي مطالبة بالإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر ومخاطبة بكافة التكاليف الشرعية دون وساطة أحد أو وصايته، وهي تتحمل المسؤولية الكاملة في كل ذلك .قال تعلى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٣٥﴾ ﴾ (الأحزاب: ٣٥)([4])

---

[1] المرأة والدين والأخلاق ، ص٢٤٩.

[2] انظر: فتاوى معاصرة، جـ٢، ص٢٤٥.

[3] انظر: المرجع السابق، جـ٢، ص٢٤٥.

[4] انظر: المرجع السابق، جـ٢، ص٢٤٦.

-المساواة أمام القضاء

والمرأة كذلك لها حصانتها القانونية ولها حق التقاضي ورفع الظلم إن وقع عليها، فكثيرات هن النساء اللاتي جئن إلى رسول الله ﷺ يشتكين من الظلم الواقع عليهن من بعض أقاربهن فأنصفهن رسول الله ﷺ ورفع عنهن ذلك الظلم، فمنهن تلك المرأة[1] التي منعها أخوها عن الزواج ممن ترضى فجاءت تشكوه إلى الرسول فنزل قوله تعالى ([2]):﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾ (البقرة: ٢٣٢)([3]).

ثانياً: التمييز العنصري

وهذه من ضمن الإسقاطات الغربية التي يحاول الغرب أن يرمي بها المسلمين، فقضايا التمييز العنصري بسبب اللون أو العرق هي ميراث أوروبي وليس إسلامي، فالمسلمون لم يعرفوا عبر تاريخهم أمثال هذه التفرقة العنصرية، "لقد ألغى النبي ﷺ كل ألوان التمييز العنصري، وداس عليه بقدميه، وذلك قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، في حين الولايات المتحدة الأمريكية، لا زالت تفرق بين مواطنيها بحسب ألوانهم!!"([4])، فقد ثبت عنه أنه قال: "اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة"([5]).

وقد جاء التطبيق العملي للصحابة رضوان الله عليهم منسجماً مع هذا التوجيه، فالمتأمل في حياة الصحابة يجد أن بلالاً قد ارتقى إلى مكانة السادة بعد أن عانى كثيراً في ربقة الجاهلية([6]).

وقد جاءت الأحكام الشرعية لتقضي على ظاهرة العبيد والإماء في المجتمع الإسلامي، لكنه اعتمد مبدأ التدرج في ذلك، فكثير من الكفارات تقوم أساساً في الأغلب على تحرير الرقاب، فالذي يقتل خطأً كفارته تحرير رقبة، والذي يجامع زوجته في رمضان كفارته تحرير رقبة، ناهيك

---

[1] هي أخت الصحابي الجليل معقل بن يسار، ففي الحديث: عن معقل بن يسار أنها نزلت فيه قال: كنت زوجتُ أختا لي من رجل فطلقها، حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها، فقلت له: زوجتك وأفرشتك وأكرمتك فطلقتها ثم جئت تخطبها؟ لا والله لا تعود إليها أبدا، قال: وكان رجلا لا بأس به وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فأنزل الله عز وجل هذه الآية فقلت: الآن أفعل يا رسول الله، فزوجتها إياه.(أسباب النزول للواحدي، ص٥٠).

[2] انظر: سنن الترمذي، كتاب الطلاق، باب فسخ الزواج على عوض، حديث رقم: ٥٦٦. قال الألباني: صحيح.

[3] انظر: فتاوى معاصرة، جـ٢، ص٢٤٦.

[4] ١٧٢. مشكلة السكان... التاريخ والآثار والنتائج، سمير قسيما، ص١٣، الطبعة الأولى، دار زكريا للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٩٥م.

[5] صحيح البخاري، كتاب، صب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام، حديث رقم:٩٣.

[6] انظر: سيرة ابن هشام، جـ٥، ص٢٠٠.

عن التشريعات الأخرى التي جاءت مشجعة على عقود المكاتبة التي يستطيع العبيد من خلالها أن ينالوا الحرية، والأحاديث الأخرى التي تحفظ للعبيد حقوقهم وآدميتهم.

ثالثاً: التعليم

لم يعد أمراً سرياً أن تنقل إلينا وسائل الإعلام البيانات التي توجهها الولايات المتحدة الأميركية للدول العربية والإسلامية متهمة برامجها التعليمية بالإرهاب، متهمةً إياها بأنها هي التي تقوم بتخريج جيل من الشباب الإرهابي، لذلك دعت الولايات المتحدة تلك الدول إلى السعي لتغيير مناهجها التعليمية والعمل على تنقيتها من الأسباب المؤدية إلى الإرهاب.

وكما هو معلوم فإن مصطلح الإرهاب من ضمن المصطلحات الفضفاضة التي يستثمرها الغرب وفق مصالحه وأهدافه، وعليه فإن المناهج التعليمية التي يفضلها الغرب، هي تلك المناهج التي لا تتحدث كثيراً عن الجهاد، ولا عن عقائد أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ولا تلقي بالاً إلى العلاقة مع اليهود الذين احتلوا بلاد المسلمين، بل تشير إلى أنهم جيراننا الذين تربطنا معهم علاقات سلام وود مشترك، وقد كشفت وسائل الإعلام مؤخراً أن دولة الكيان الصهيوني قد دفعت مبلغ ٣٠٠مليون دولار لزوجة الرئيس المصري السابق من أجل تغيير مناهج التعليم في مصر، "ويقوم الآن جهاز رقابى كبير في مصر بالتحقيق فيما يعرف "فضيحة تغيير مناهج التعليم" التي كلفت بها سوزان مبارك خبراء إسرائيليين مقابل ٣٠٠ مليون دولار، ويتضمن ملف التحقيق تسجيلات صوتية للجلسات السرية التي دارت بين سوزان مبارك والخبراء الإسرائيليين المتخصصين فى تغيير مناهج الدين والتاريخ.

وكشفت هذه التسجيلات عن تعهد سوزان مبارك للخبراء الإسرائيليين بالضغط على كل من وزير التربية والتعليم ومفتى الديار المصرية ووزير الأوقاف لتنفيذ خطة تغيير المناهج، على أن تتم طباعة الكتب الجديدة بدون وجود الأحاديث والآيات القرآنية والدروس التاريخية التي تهاجم إسرائيل"([1]).

رابعاً: الحرية

ونقصد بها الحريات التي يدعو لها الغرب، أو يحاول فرضها على بلاد المسلمين فرضا، وهي تشمل جميع مناحي الحياة، فعلى الصعيد السياسي يتم الدعوة إلى الديمقراطية بالمفهوم الغربي، وعلى الصعيد الاقتصادي تتم الدعوة إلى عولمة السوق، ومن ثم تُعقد الاتفاقيات التي توفر للشركات العملاقة العابرة للقارات أن تستغل خيرات المسلمين، أما على الصعيد الاجتماعي فتتم الدعوى إلى الحرية المطلقة: حرية المرأة، وحرية العقيدة، والحرية المطلقة أو السافرة في السلوك.

---

[1] جريدة روزا اليوسف، مقالة: حتى التعليم، مهدي زكريا، عدد ٢٠١١/١٢/١٤.

وهي في غمرة دعاويها هذه تفترض أن الإسلام يقف عائقاً أمام حرية الإنسان على كافة الأصعدة، وكأنها تتغافل أنه ما من دين ولا من قانون إلا وهو محكومٌ بقانون: افعل ولا تفعل، وأن الإسلام مثله مثل كل الشرائع له دائرة المباح ودائرة الممنوع، وأنه يقوم في تشريعاته على أن الإنسان له غرائزه وشهواته، وأن هذه الغرائز والشهوات لها طريقان دائماً، طريق الحلال وطريق الحرام، وعليه فالإسلام ينظم هذه الرغبات ولا يكبحها، فالإسلام كما أنه يرفض التحلل من كل القيم الدينية والإنسانية، يرفض الكبت أيضاً([1]).

والمشكلة هنا أن كثير من الممارسات التي يمارسها المسلمون في بلادهم هي ممارسات ناجمة عن العادات والتقاليد، ويستثمر الغرب هذه الممارسات أيما استثمار، إذ تنقل محطاته الإعلامية هذه الممارسات على أنها وليدة الدين الإسلامي، وأن الإسلام هو من يكبح حريات الناس.

والحقيقة أن الإسلام على العكس من ذلك تماماً، فلو تأملنا الأحكام الشرعية التي تضبط تصرفات الناس لوجدناها تندرج تحت خمسة أقسام، هي المباح والمندوب والمكروه والحرام والواجب، ويُلاحَظ هنا أن الإنسان يملك الحرية الكاملة في التصرف في الأقسام الثلاثة الأولى، بينما لا يملك الحرية في القسمين الأخيرين وهما الواجب والحرام، بمعنى أن الإنسان يملك الحرية في أكثر من ستين بالمائة من أفعاله وقراراته وتصرفاته، وهذه نسبة معقولة إلى حد بعيد.

والمسلمون قانعون بها، ويرفضون الحرية بمفهومها الغربي التي تؤدي في النهاية إلى الانفلات والتحلل، بل وإلى الكبت في أحيان أخرى، ففي التشريعات الغربية يُحاصَر الآباء في تصرفاتهم، فيغدون غير قادرين على توجيه الأبناء، إذ يمنعهم القانون من التدخل في تصرفات الأبناء، بل ويعاقبهم بالحرمان من أبنائهم إن لزم الأمر.

المطلب الثاني:عملاء الداخل وأجراء الغرب

كانت المصيبة التي ابتلي بها المسلمون ببعض أبنائهم أكبر من أية مصيبة أخرى، إذ كان الاستعمار دائماً ما يُجابَه بصمود أبناء المسلمين أمامه، والتحدي له، فكل المحاولات التي كان المستعمر يحاول أن يمررها في بلاد المسلمين كانت تجد لها من أبناء الأمة المخلصين من يكشف عورتها وسوءتها، ويبين مدى خطورتها ومراميها المستقبلية، حتى أفلح المستعمر في تمرير سياساته عبر بعضٍ من أبناء المسلمين، الذين كانوا ينتمون للغرب قناعةً وإيماناً، وينتمون للمسلمين لساناً وهوية.

هؤلاء هم الذين تَنَبَّأ بهم النبي ﷺ، فعن حذيفة بن اليمان، قال: "كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في

---

[1] انظر: مدخل إلى القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، ص٥٥، الطبعة الأولى، دار القلم، الكويت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير شر؟ قال:"نعم"، فقلت: هل بعد ذلك الشر من خير؟ قال:"نعم، وفيه دخن"، قلت: وما دخنه ؟ قال:"قوم يستنون بغير سنتي، ويهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر فقلت: هل بعد ذلك الخير من شر؟ قال:"نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، فقلت: يا رسول الله، صفهم لنا ؟ قال:"نعم، قوم من جلدتنا، يتكلمون بألسنتنا، قلت: يا رسول الله، فما ترى إذا أدركني ذلك ؟ قال:"تلزم جماعة المسلمين وإمامهم"، فقلت: فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض على أصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك"([1])

وهذا الذي ابتليت به الأمة الإسلامية اليوم، رجالٌ من أبناء جلدتنا يتكلمون بألسنتنا، بلغتنا العربية، لكنَّ قلوبهم تدور مع الغرب حيثما دار.

نشأة عملاء الداخل في بلاد المسلمين

يمكن القول أن بدايات نشأة عملاء الداخل في بلاد المسلمين تعود إلى أكثر من قرن ونصف في عمر الزمان، إلى نهايات القرن التاسع عشر بالتحديد، ففي ذلك الوقت كانت أوروبا قد وصلت إلى مراحل متقدمة في جانب النهضة الحضارية، فحاول بعض ولاة أمر المسلمين أن يستفيدوا من تجربة أوروبا النهضوية، فأرسلوا البعثات الخارجية إلى هناك، وذلك للاستفادة من الخبرات الغربية، فأرسل محمد علي باشا والي مصر البعثات إلى فرنسا بالتحديد، وكذا فعلت تركيا عندما أرسل سليم باشا البعثات إلى هناك([2]).

لكن هذه البعثات لم تأتِ بما أريد لها، لأن الرجال الذين تم ابتعاثهم إلى هناك تأثروا إلى حدٍ بعيد بالحياة الأوروبية، ظهر ذلك في آرائهم ومواقفهم وتصريحاتهم إزاء القضايا التي تناولوها عندما عادوا.

كانت آراؤهم تنتهج العقلية الغربية في التفكير والنظرة، بعيدة أيما بعد عن الإسلام وطبيعة نظرته إلى الأشياء.

"فقد كان هؤلاء المبعوثون الذين أُرسِل أكثرهم إلى فرنسا يقرؤون الكتب الفرنسية، ويشاهدون الحياة الفرنسية في أحفل العصور بالصراع الفكري الذي يعقب الثورات، وكانت فرنسا تعيش في أعقاب الثورة الفرنسية وما صاحبها وما تلاها من قلق فكري وروحي لم يبلغ نهاية مداه، وقد احتل هؤلاء المبعوثون من بعد مكان الصدارة والقيادة في مختلف الميادين"([3]).

---

[1] صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: تفاضل أهل الإيمان فيه، حديث رقم:٨٨.

[2] انظر: الإسلام والحضارة الغربية، ص١٥.

[3] المرجع السابق، ص١٨.

"وَتَأَثُّرُ أعضاء هذه البعثات بما شاهدوه في المجتمع الأوروبي واضح فيما كتبوه أثناء اقامتهم في أوروبا أو بعد عودتهم منها. ونستطيع أن نلمس ذلك على سبيل المثال في عضوين من الجيل الأول لهؤلاء المبعوثين، أحدهما مصري أقام في باريس وهو رفاعة الطهطاوي([1])، والآخر تونسي أقام في باريس أيضاً هو خير الله التونسي[2]"([3]).

وسائل الغربيين في زراعة العملاء

أولاً: إغداق الأموال

لقد سلك الغرب أساليب كثيرة لتمكين هؤلاء العملاء في بلاد المسلمين، "ومن ذلك ما كان يلاقيه التعليم اللا ديني من تشجيع كبير، وإغداق المرتبات الكبيرة على الخريجين من الجامعات الأوروبية، في الوقت الذي كان يلاقي فيه التعليم الديني تضييقاً خانقاً، فقد كان الطالب يتخرج من جامعاته لكي يجد مرتبات قليلة لا تكاد تسد رمقه، وفوق ذلك كان خريج هذه المدارس يلاقي تهكم وسخرية، والنتيجة الطبيعية أن ينفر الطلاب من الدروس والعلوم الإسلامية ويتجهوا إلى مدارس لا تعني بأمر الإسلام"([4]).

وهذه الطريقة هي الطريقة المتبعة الآن، حيث يتم إغداق الأموال على مؤسسات المجتمع المدني، بل وتُخصص لهذه المؤسسات أجزاء من الموازنة العامة للدول الغربية، في اللحظة التي تعاني فيها المؤسسات الإسلامية على الصعيد المالي، بل ويتم تضييق الخناق عليها.

أولاً: إغداق المناصب

وهذا يبدو جلياً في المناصب التي تبوءها تلامذة الفكر الغربي، سواء على صعيد الحكومات أو على صعيد المؤسسات الفاعلة كالجرائد والصحف والمجلات.

ومن ثم المناصب المعنوية، فلطفي السيد هو أستاذ الجيل، وقاسم أمين رجل العصر والانفتاح، وسعد زغلول الزعيم الوطني الكبير، الذي لا يقدح في شخصيته ولا في زعامته أنه كان يفطر في رمضان، فأمثال هؤلاء هم الذين يُفترض أن يكونوا المُثل العليا للجماهير المسلمة، "حالهم حال أحمد بن بيلا في الجزائر الذي جاء ليسرق الثورة الإسلامية، ويحولها إلي ثورة اشتراكية بعيدة

---

[1] رفاعة الطهطاوي: رفاعة رافع بن بدوي بن علي الطهطاوي ولد في طهطا، وقصد القاهرة سنة ١٢٢٣ هـ فتعلم في الأزهر. وأرسلته الحكومة المصرية إماما للصلاة والوعظ مع بعثة من الشبان أوفدتهم إلى أورية لتلقي العلوم الحديثة، فدرس الفرنسية وثقف الجغرافية والتاريخ. ولما عاد إلى مصر ولي رئاسة الترجمة في المدرسة الطبية، وأنشأ جريدة (الوقائع المصرية) وألف وترجم عن الفرنسية كتبا كثيرة. (الأعلام للزركلي، جـ٢، ص٢٩)

[2] خير الله التونسي: خير الله محمد سلمان الحسني التونسي، ولد في تونس، وهو سليل لعائلة اشتهرت بالشواغل الثقافية والفكرية، أحد الذين درسوا في السوربون وعاد بأفكار مستحدثة.(المورد، ص١٨٠)

[3] المرجع السابق، ص١٨.

[4] الإسلام في مواجهة الفكر الغربي، ص٣٣٢.

عن الإسلام مناوئه له، والذي دعا المرأة الجزائرية إلي خلع الحجاب بحجة عجيبة حين قال: إن المرأة الجزائرية قد امتنعت عن خلع الحجاب في الماضي لأن فرنسا هي التي كانت تدعوها إلي ذلك! أما اليوم فإني أطالب المرأة الجزائرية بخلع الحجاب من أجل الجزائر! أحمد بيلا يوم أن دعا تلك الدعوة كان " بطلاً " أضفيت عليه البطولة المصطنعة بخطفه من الطائرة وهو متوجه من فرنسا إلي الجزائر.. حتي إذا نضجت اللعبة.. لعبة " البطولة " أطلق سراحه ليقوم بعمله ضد الإسلام"([1]). ونزار قباني هو كبير الشعراء المعاصرين، هو المثال الأوفى لكل النشء، ولا يضيره أبداً أن يرى "أن حل قضايا العرب بأجمعهم يكمن في حلٍ واحد، وأن هذا الحل يكمن في أن يحل العرب العقد المتعلقة بالجنس، فمشكلة العقلية العربية تكمن في عدم تصالحها مع الكبت الجنسي الذي تعانيه منذ أماد سحيقة" ([2]).

أعمال عملاء الخارج

لقد قام أذناب الاستعمار بجملة من الأعمال التي كان هدفها نزع المسلمين من دينهم، ويمكن إجمال هذه الأعمال في التالي([3]):

-تفريغ التعليم من القيم الإسلامية، وقد قاد هذه الحملة دنلوب الإنجليزي، ولطفي السيد وسعد زغول.

-الدعوة إلى نبذ اللغة العربية، والاستعاضة عنها باللغة العامية، وقاد هذه الحملة لطفي السيد.

-تحريف التاريخ الإسلامي، وإثارة الشبهات حوله، وقاد هذه الحملة جورجي زيدان.

-مهاجمة الإسلام والدولة العثمانية.

-تمزيق الرابطة العقائدية التي تربط المسلمين ببعضهم البعض، والدعوة إلى الوطنية أو القومية.

-الدعوة إلى تحديد النسل، والإشارة إلى خطر الانفجار السكاني في بلاد المسلمين، في اللحظة التي تقوم برامج الدعاية في الغرب إلى تشجيع المواطن الغربي على الإنجاب.

المطلب الثالث: محاربة الحركات الإسلامية

كان الاستعمار حريصاً عندما غادر بلاد المسلمين أن يضمن بقاء البلاد العربية والإسلامية على ما هي عليه من تخلف وتردي وتبعية، ولهذا لم يجد وسيلة خيراً من إبقاء هذه البلاد مُكبَّلَة بجملة من الزعماء والحكام المنفذين للسياسة الغربية.

---

[1] واقعنا المعاصر، ص٢١٤.

[2] الأعمال الشعرية والنثرية والسياسية الكاملة، نزار قباني، ج٨، ص٧١٣، الطبعة الأولى، دار الهدى للنشر والتوزيع، سوريا، ١٤٢٠هـ-٢٠٠١م.

[3] انظر: الإسلام في مواجهة الفكر الغربي، ص٣٣٧.

وإزاء هذا الواقع البائس تصدى جملة من علماء الأمة العاملين لمشاكل الأمة المتواجدة، فظهرت دعوة الأخوان المسلمين في مصر بقيادة الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله في العام ١٩٢٨م، والجماعة الإسلامية بباكستان بقيادة الإمام المودودي رحمه الله في العام ١٩٤١م.

وقد تلاقت الجماعتان من حيث الهدف، إذ كان الهدف لهما إعادة بعث الإسلام في جميع مناحي الحياة، يقول الإمام حسن البنا: " للإسلام معنى واسع غير ذلك المعنى الضيق الذي يفهمه الناس، فإنا نعتقد أن الإسلام معنى شامل ينظم شؤون الحياة جميعا، و يفتي في كل شأن منها، ويضع له نظاما محكما دقيقا، و لا يقف مكتوفا أمام المشكلات الحيوية و النظم التي لا بد منها لإصلاح الناس. وفهمْ بعض الناس خطأ أن الإسلام مقصور على ضروب من العبادات أو أوضاع من الروحانية، و حصروا أنفسهم و أفهامهم في هذه الدوائر الضيقة من دوائر الفهم المحصور، ولكنا نفهم الإسلام على غير هذا الوجه فهما فسيحا واسعا ينتظم شؤون الدنيا والآخرة، ولسنا ندعي هذا ادعاء أو نتوسع فيه من أنفسنا، وإنما هو ما فهمناه من كتاب الله وسيرة المسلمين الأولين" ([1]).

ومن هاتين الحركتين تفرعت كثير من الحركات الإسلامية المعاصرة، سواءً من حيث استلهام الأفكار والرؤى، أو من خلال الانشقاق عنها، ومن ثم تبني أفكار جديدة خاصة بهذه الحركات.

ولأن الغرب يخشى من الإسلام، ومن كل محاولات بعثه من جديد إلى الحياة، لهذا فقد كانت الحركات الإسلامية هدفاً مباشراً للغرب، فسعى الغرب إلى محاصرتها ومحاربتها، مستخدماً وسائلَ عدة لتحقيق ذلك، ويمكن إجمال هذه الوسائل في النقاط التالية:

أولاً: دور الحكام العرب

تاريخ الحركة الإسلامية المعاصرة مملوء بأحداث الصراع مع الأنظمة الحاكمة، بل يمكن القول أن حجم السهام التي وُجهت للحركة الإسلامية من قِبَل الأنظمة الحاكمة أكثر من أي سهام أخرى.

ودعوة الأخوان المسلمين شاهدة على ذلك، فمن محاربة الملك فاروق للحركة الإسلامية، التي انتهت بمقتل الإمام الشهيد حسن البنا على يد رجال الملك فاروق، ومروراً بحقبة الرئيس المصري الأسبق جمال عبد الناصر التي كُللت بمحاربة رموز الحركة الإسلامية، واستشهاد سيد قطب ورفاقه على يد النظام المصري في ذلك الوقت.

أما في سوريا فلم تكن الحكومة السورية بزعامة حافظ الأسد أحسن حالاً من الحكومة المصرية، ومذبحة حماة خير شاهد على ذلك.

---

[1] رسائل الإمام حسن البنا، ص١٨.

ولم تقتصر الحرب التي قادها الحكام العرب ضد الحركات الإسلامية على السجون والمعتقلات، أو القتل والتعذيب، بل شملت ميادين عديدة، من أهمها التشويه الإعلامي، والتشكيك في نوايا الحركات الإسلامية وبواعثها وقدرتها على التعامل مع القضايا المعاصرة.

يقول الرئيس التونسي الأسبق الحبيب بورقيبة: "إنه سيعمل على تغيير عقلية التونسيين الذين يتبعون رجلاً أميا، لم يكن يتلو من كتاب ولا يخط بيمينه- يعني محمداً ﷺ- وَيتركون إتباع رجل تخرج في السوروبون([1]) -يقصد نفسه الحبيب بورقيبة قبحه الله-"([2])

ولعل دور الأنظمة العربية في محاربة الحركات الإسلامية بدا أكثر وضوحاً بعد هجمات سبتمبر التي تعرضت لها الولايات المتحدة الأمريكية في عقر دارها، إذ استعانت الولايات المتحدة بالزعامات العربية من أجل تحقيق مآربها، فتحولت بلاد المسلمين التابعة لهذه الأنظمة إلى مطارات لقوات الغزو الأمريكي، حدث ذلك عندما أقدمت أمريكا على غزو العراق وأفغانستان، بل وتجاوزت هذه الأنظمة الحدود عندما وقعت اتفاقية فيما بينها أسمتها: "الاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب"، وجاء في طيات هذه الاتفاقية ما يؤكد تآمر هذه الحكومات ضد الحركات الإسلامية للحيلولة دون إقدام حركات المقاومة بعملياتها ضد العدوان الغربي على بلاد المسلمين، جاء في البند الثالث من هذه الاتفاقية:

"١-يجب الحيلولة دون اتخاذ أراضي الدول الموقعة على الاتفاقية مسرحا لتخطيط أو تنظيم أو تنفيذ الجرائم الإرهابية أو الشروع أو الاشتراك فيها بأية صورة من الصور، بما في ذلك العمل على منع تسلل العناصر الإرهابية إليها أو إقامتها على أراضيها فرادى أو جماعات أو استقبالها أو إيوائها أو تدريبها أو تسليحها أو تمويلها أو تقديم أية تسهيلات لها.

٢- التعاون والتنسيق بين الدول المتعاقدة، وخاصة المتجاورة منها، التي تعانى من الجرائم الإرهابية بصورة متشابهة أو مشتركة.

٣- تطوير وتعزيز الأنظمة المتصلة بالكشف عن نقل واستيراد وتصدير وتخزين واستخدام الأسلحة والذخائر والمتفجرات وغيرها من وسائل الاعتداء والقتل والدمار. وإجراءات مراقبتها عبر الجمارك والحدود لمنع انتقالها من دولة متعاقدة إلى أخرى، أو إلى غيرها من الدول إلا لأغراض مشروعة على نحو ثابت.

٤- تطوير وتعزيز الأنظمة المتصلة بإجراءات المراقبة وتأمين الحدود والمنافذ البرية والبحرية والجوية لمنع حالات التسلل منها"([1]).

---

[1] السوربون: كبرى الجامعات الفرنسية.

[2] التطرف العلماني في مواجهة الإسلام... نموذج تركيا وتونس، يوسف القرضاوي، الطبعة الثالثة، ص١٢١-١٢٢، دار الشروق، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٨م.

وهذه الاتفاقية تأتي منصاعة للأوامر الغربية، أو للرؤية الغربية في إدارة الأزمات في الشرق الأوسط كما يقول الغرب، ففي تقرير الإستراتيجية الأمريكية المتعلق بحرب الولايات المتحدة الأمريكية على الإرهاب –كما يزعمون– جاء ما يلي: " إن أولوياتنا تكمن في تمزيق وتحطيم المنظمات الإرهابية التي هي في أصقاع متعددة من العالم، إن كل هذا من شانه أن يكون على مراحل مؤثرة في إعاقة قدرات الإرهابيين للتخطيط والعمل.

سوف نستمد دعم وتشجيع شركائنا الاقليميين في أن يتخذوا ويقوموا بجهود للتعاون والتنسيق لعزل الارهابيين"([2])

ولهذا يقوم الغرب بدعم الحكومات العربية والإسلامية ضد الحركات الإسلامية، يقول هنتنجتون: "قادة الغرب يدركون أن العمليات الديمقراطية في المجتمعات العربية غالباً ما تأتي بحكومات غير صديقة، ولهذا يحاولون التأثير على تلك الانتخابات، كما أنهم يفقدون حماسهم كذلك لتنمية الديمقراطية في تلك المجتمعات"([3])

ثانياً: حروب الغرب المباشرة

وبحجة محاربة الإرهاب، شَنَّ الغرب هجوماً عنيفاً على بلاد المسلمين عموماً، وعلى الحركات الإسلامية على وجه الخصوص، خاصةً بعد هجمات أيلول على الولايات المتحدة الأمريكية.

ومما لاشك فيه أن الغرب استعمل في هذه الحروب أعنف الوسائل وأكثرها وحشيةً ودمويةً، بل وأكثرها اقتراناً بالإرهاب، فحسب القانون الأمريكي فإن الإرهاب :"هو الاستخدام المتعمد للقوة أو التهديد باستخدامها بهدف تحقيق أهداف سياسية أو دينية أو أيدلوجية من خلال التهديد أو الإكراه أو الإخافة"([4])

وعند تطبيق هذا التعريف على الولايات المتحدة فإننا نجد أنها أكبر دولة إرهابية في العالم، حيث أنها لم تترك جانباً من جوانب التعريف إلا وكان لها فيه حظ ونصيب، فهي من استخدمت القوة في تخويف الشعوب والبلاد الإسلامية، وهي مَن استغلت هذه القوة لتهديد هذه الدول إن لزم

---

[1] الإرهاب مظاهره وأشكاله وفقا للاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب، محمد الحسيني مصلحي، ص٣٣، الطبعة الأولى، دار ميريت لمكتبة الأسرة، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٢م.

[2] الإستراتيجية الأمنية الدولية للولايات المتحدة الأمريكية، منشورات الخارجية الأمريكية، ٢٠٠٢م.

[3] صدام الحضارات لهنتنجتون، ص٣١٨.

[4] الصدمة... الحادي عشر من أيلول، نعوم تشومسكي، ص ١٣٠، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، سوريا، ٢٠٠٢م.

الأمر، لتحقيق أهدافها السياسية والأيدلوجية والدينية، يقول نعوم تشومسكي([1]) معلقاً على هذا التعريف: "وحسب هذا التعريف تكون الولايات المتحدة الأمريكية دولة إرهابية وحروبها حروباً إرهابية"([2]).

والحقيقة أن الولايات المتحدة استغلت أحداث سبتمبر أيما استغلال، فبواسطة الدعاية الإعلامية التي تمتلكها الولايات المتحدة على صعيد العالم بأسره، تم التنديد بالحركات الإسلامية، وتشويه صورتها، وتصويرها على أنها حركات هدَّامة تهدد الاستقرار العالمي، وقد قامت الولايات المتحدة بسلسلة من الإجراءات لمحاربة هذه الحركات منها الإجراءات الآتية:

١-تجفيف منابع المال للحركات الإسلامية، وملاحقة الأنشطة الاقتصادية التي يقوم بها رجال الأعمال الذين ينتمون أو يُشتبه أنهم ينتمون للحركات الإسلامية، يقول السيد ياسين([3]): "وقد شهدت جمهورية مصر العربية بالفعل ملاحقة أرباب المال الإخواني، وتم إغلاق جملة من مكاتب العقارات التي يديرها أفراد ينتمون إلى التيارات الإسلامية"([4]).

٢-ملاحقة أبناء الحركات الإسلامية أمنياً، وذلك عبر توقيع جملة من الاتفاقيات الأمنية مع حكومات الدول العربية والإسلامية المتآمرة مع الغرب، وفي غمرة هذه الملاحقات اختلط الحابل بالنابل، إذ طالت هذه الملاحقات كل المنتمين للحركات الإسلامية، الذين يؤمنون بالقوة للتعبير عن آرائهم وقناعاتهم وتوجهاتهم، والذين يؤمنون بالتغيير التدريجي عبر وسائل المشاركة

---

[1] أفرام نعوم تشومسكي (Avram Noam Chomsky) (و. ٧ ديسمبر ١٩٢٨ فيلادلفيا، بنسلفانيا) هو أستاذ جامعي مدى الحياة في اللغويات في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا. وقد أسهم في إشعال شرارة الثورة الإدراكية في علم النفس من خلال مراجعته للسلوك الفعلي لـ ب.ف. سكينر، والذي تحدى المقاربة السلوكية لدراسة العقل واللغة والتي كانت سائدة في الخمسينات. بالإضافة إلى عمله في اللغويات، فتشومسكي معروف على نطاق واسع كناشط سياسي، وبانتقاده للسياسة الخارجية للولايات المتحدة والحكومات الأخرى. ويصف تشومسكي نفسه بأنه اشتراكي تحرري، وكمتعاطف مع التضامنية اللاسلطوية (وهو عضو في نقابة عمال العالم الصناعيين) وكثيراً ما يُعتبر منظراً رئيسياً للجناح اليساري في السياسة الأمريكية. (الصدمة... الحادي عشر من أيلول، نعوم تشومسكي، ص٢، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، سوريا، ٢٠٠٢م.).

[2] الصدمة، ١٣٠.

[3] السيد ياسين كاتب مصري مهتم بالعلاقات الدولية، له جملة من المؤلفات السياسية والقانونية، منها :السياسة الجنائية المعاصرة، والخطاب القومي المعاصر.(الحرب الكونية الثالثة... عاصفة سبتمبر والسلام العالمي، السيد ياسين، ص٥، الطبعة الثانية، دار ميريت لمكتبة الأسرة، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٣م.).

[4] الحرب الكونية الثالثة... عاصفة سبتمبر والسلام العالمي، السيد ياسين، ص٣٨١، الطبعة الثانية، دار ميريت لمكتبة الأسرة، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٣م.

السياسية بالبرلمانات والمجالس التشريعية، يقول محمود عبد الله[1]: "فحركة مثل حركة الإخوان المسلمين في مصر، يُثبت تاريخها القريب والبعيد أنها ضد العنف، وضد استعمال القوة لفرض قناعاتها، وعلى الرغم من ذلك فإنها كانت أكثر الحركات تعرضاً للتنكيل والأذى والتعذيب، وهذا لا يؤكد سوى شيء واحد، هو أن الإدارة الأمريكية وعملاءها من الحكام العرب يشنون حربهم ليس ضد جماعة أو فئة معينة، بل ضد كل إنسان يؤمن بالإسلام كحل لمشاكل العرب والمسلمين المعاصرين"[2].

المطلب الرابع: إشاعة الاتهامات والافتراءات والمصطلحات الموهمة

لقد قامت وسائل الإعلام الغربية على زيادة اهتمامها بالإسلام والمسلمين منذ ظهور الحركات الإسلامية بقيادة العلماء المسلمين داعيةً إلى التحرر من النفوذ الغربي، وازدادت حدة هذا الاتهام وهذا الهجوم، إذ كان الكلام عن هذه الحركات يتسم بالهجوم ووصمها بالتعصب والدعوة إلى كره الأجنبي، وَتَنَاوُلْ قضايا محدودة في الإسلام كمسألة علاقة الإسلام بالحضارة الغربية، وموضوع المرأة، ووضع الأقليات غير المسلمة في البلاد الإسلامية.

ولم يتوقف اهتمام الإعلام الغربي بالإسلام وقضايا المسلمين، بل كان الإعلام الغربي يحارب على جبهتين: الشيوعية والإسلام، وكان يقرن بينهما دائما، حتى سقطت الشيوعية فوجد الإعلام الغربي فراغاً كبيراً مما جعله يتجه إلى ملئه بالعداء المضاعف للإسلام.

والحقيقة أن نظرة الغرب في الوقت الراهن هي امتداد للرؤية الغربية القديمة التي تنظر للإسلام نظرة ملؤها الريبة والشك، أو هي نتاج طبيعي لدراسات المستشرقين التي كان ينقصها الحياد العلمي في أغلب الأحيان، ويمكن إجمال بعض هذه الافتراءات في الآتي:

أولاً: الإسلام دين العنف

وهذه أولى الشبهات وأكثرها تداولاً في الإعلام الغربي، فهم يزعمون أن الإسلام دين يتسم بالعنف والرغبة في القتال وإقصاء الآخر، يقول هنتنجتون: "الإسلام كان ديناً للسيف منذ البداية، وهو دين دائم التمجيد للقتال، ويُذكر عن محمد دائماً أنه كان مقاتلاً عنيفا وهذا لا يُذكر عن المسيح إطلاقاً! تعاليم الإسلام تنادي بقتال غير المؤمنين"[3].

وهذا الكلام لا يختلف كثيراً في مضمونه عن الادعاء الدائم أن الإسلام دين انتشر بالسيف، وهذه تهمة قديمة جديدة، وهي ركيزة من ركائز منهج المستشرفين في كتاباتهم عن الإسلام،

---

[1] محمود عبد الله: دكتوراة في الفقه المقارن، جامعة طنطا، له العديد من الأبحاث الشرعية والسياسية. (نحن والإرهاب محمود عبد الله، ص٣، الطبعة الأولى، دار نهضة مصر للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٨م).

[2] نحن والإرهاب، محمود عبد الله، ص٥٥.

[3] صدام الحضارات لهنتنجتون، ص٤٢٧.

حاولوا من خلالها إثارة الشبهات حول انتشار الإسلام ضمن حملة التشويه التي يشنونها على الإسلام.

"وخطورة هذه الشبهة تكمن في أنها تركز وبحسم على تفريغ الإسلام من محتواه الحقيقي الذي أراده رب العزة جل جلاله، وتركز على صبغ الإسلام بالصبغة السياسية التي تجعل منه وسيلة للهيمنة والتسلط والاستبداد والقمع، وهم بهذا يشيرون إلى أن الدولة الإسلامية قامت على أساس سياسي وليس على أساس ديني، نظراً للأبعاد اللادينية التي اتخذها الاستشراق الغربي على وجه العموم"([1]).

والحقيقة أن المستشرقين لم يجدوا ما يقولونه حول المعجزة الربانية في انتشار الإسلام في فترة وجيزة لم يشهدها ولن يشهدها تاريخ البشرية إلا أن يقولوا: إن الإسلام انتشر بالسيف، ويكفي تكذيب هؤلاء – تعريف الإسلام – نفسه شرعاً، إذ أنه: "الانقياد والخضوع لأوامر الله واجتناب نواهيه عن رضا واختيار، فشرط الإسلام الذي لا يصح إلا به الرضى فكيف يجتمع إكراهٌ مع الرضى"([2]).

وقضية أن الإسلام انتشر بالسيف، عبارة يهدف الغربيون من ورائها إلى وصم الإسلام بالبعد عن حرية الفكر، وعن الرحمة والإنسانية، وهذه التهمة من أكبر التهم البعيدة عن الحقيقة التي حاول الجهلة والمتعصبون الحاقدون إلصاقها بالإسلام، وهذه التهمة الباطلة سرعان ما تذوب أمام شمس الحقيقة، ونور العقل، ومنهج العلم، بتمحيصها ودراستها على ضوء أمرين اثنين، هما:

الأمر الأول: شريعة الإسلام وموقفها من غير المسلمين.

الأمر الثاني : موقف المسلمين العملي وسلوكهم مع غير المسلمين .

أما بالنسبة للشريعة الإسلامية مع غير المسلمين، فموقفها صريح وواضح جداً ففي القرآن الكريم: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾(البقرة:٢٥٦) ، ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ﴾(الكهف:٢٩)

والتاريخ الإسلامي شاهد على ذلك، فالواقع الثابت في أخبار الدعوة الإسلامية أن المسلمين كانوا هم ضحايا القسر والتعذيب قبل أن يقدروا على دفع الأذى من مشركي قريش في مكة ، فهجروا ديارهم، وهاجروا إلى الحبشة، ولم يعمد المسلمون – قط – إلى القوة إلا لمحاربة القوة التي تصدهم عن الإقناع، فإذا رصدت لهم الدولة القوية جنودها حاربوها؛ لأن القوة لا تحارب

[1] مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، كتاب صادر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، جـ١، ص٣٥٥، الطبعة الأولى، تونس، ١٩٨٥م.

[2] الاستشراق والدراسات الإسلامية، عبد القاهر داوود عبد الله، ص٣٤، الطبعة الأولى، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن، ١٤٢١هـ–٢٠٠١م.

بالحجة والبينة، وإذا كفوا عنهم لم يتعرضوا لها بسوء ؛ لذلك سالموا الحبشة ولم يحاربوها، وحاربوا الفرس، لأن كسرى أرسل إلى عامله في اليمن يأمره بتأديب النبي ﷺ أو ضرب عنقه، وإرسال رأسه إليه، وحاربوا الروم؛ لأنهم أرسلوا طلائعهم إلى تبوك وعادت السرية بغير قتال..ولم يفاتح النبي ﷺ أحداً بالعداء ، إنما كتب إلى الملوك والأمراء يبلغهم دعوته بالحسنى([1]).

"ولما استقر النبي ﷺ بالمدينة وأسس حكومته النبوية بها ، بعد ثلاثة عشر عاماً من الدعوة إلى الله وتحمل الأذى والعذاب في سبيل ذلك تخللتها ثلاث هجرات جماعية كبيرة . هاجت ثائرة قريش وحقدوا على النبي ﷺ لما أحرزه من استقرار ونجاح لهذه الدولة الوليدة، دون ظلم أو استبداد أو سفك للدماء . ولذلك فقد كان ﷺ مقصوداً بالقتل ، إذ ليس معقولاً أن تنام أعينهم على هذا التقدم والنمو ، ومصالحهم قائمة على الزعامة الدينية في جزيرة العرب ، وهذه الدولة الجديدة قائمة على أساس ديني ربما يكون سبباً في زوال هذه الزعامة الدينية الوثنية الموروثة. وإذا كان الإسلام ديناً بلغت الميول السلمية فيه مداها في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾(الزخرف:٨٩)"([2]).

إلا أن الميول السلمية لا تتسع لمنع القائمين بهذا الدين الجديد من الدفاع عن أنفسهم وعن دينهم الذي أنزله الله للإنسانية كافة، في عالم يضيع فيه الحق والعدل إن لم يكن لهما قوة تحميهما، فكان لا مناص من السماح للمسلمين بحماية أنفسهم ودينهم بالسلاح الذي يشهره خصومهم في وجوههم ، ولذلك كان التعبير بقوله تعالى:﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾(الحج:٣٩-٤٠)

أما بالنسبة لموقف المسلمين العملي وسلوكهم خلال فتوحاتهم، فإن تاريخهم بريء من أية حادثة فيها ضغط – أو اضطهاد- على إنسان لإجباره على اعتناق الإسلام، و ما كانت الفتوح واستخدام السيف إلا لإزالة أنظمة من الحكم من أكاسرة وقياصرة وملوك وقفوا في وجه الدعوة للإسلام، فاستخدم المسلمون القوة، لإزالة هذه العقبات، لتأمين حرية نشر الإسلام، وليس لإجبار الناس على اعتناقه، بل لإيصاله إليهم وتركهم بعد معرفتهم بالإسلام أحراراً في أن يعتنقوه أو

---

[1] انظر: سيرة ابن هشام، جـ٣، ص٥٥، والمستشرقون والإسلام، هاشم زكريا، ص٤٦، الطبعة الأولى، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م.

[2] شبهة انتشار الإسلام بالسيف عرض ونقد، فهد عبد القادر عبد الله الهتار، ص٦٣، رسالة دكتوراة مخطوطة، كلية التربية، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، ١٤٣٢هـ.

يبقوا على ديانتهم، وأكبر شاهد على صحة ما نقول، وجود مئات الألوف من اليهود والنصارى في بلاد المسلمين، مع حريتهم في إقامة عبادتهم ومعابدهم وصلبانهم وأعيادهم منذ أربعة عشر قرناً وحتى اليوم، وأعظم وثيقة تاريخية تثبت ذلك العهد الذي أعطاه عمر بن الخطابﷺ لأهل القدس (العهدة العمرية)، والتي جاء فيها :

"بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة خمس عشرة "([1]).

وخطورة المسألة تكمن في أن الغرب يملك بيديه وسائل الإعلام العالمية، فيملك المقدرة على تشويه صورة الإسلام، خاصةً وأن معظم شبكات الإعلام العالمية تستقي معلوماتها من محطات تُضمر الحقد الدفين على الإسلام والمسلمين، "والعناصر اليهودية والمسيحية المتعصبة المؤيدة لإسرائيل هم الذين يقودون تلك الحملة الخاسرة، ويحركون خيوطها ويتحكمون في مسارها من خلال وسائل الإعلام المتعددة التي أمسكوا بزمامها منذ وقت طويل ولا سيما إذا علمنا أن:

قناة CBS والتي يتبعها ٢٠٠ محطة يديرها وليم بالي وهو يهودي.

وقناة NBC والتي يتبعها ١٨٧ محطة يديرها فريد سلفرمان وهو يهودي.

وقناة INC والتي يتبعها ١٢٧ محطة يديرها ليونارد جلودستون وهو يهودي"([2]).

---

[1] تاريخ الأمم والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جـ٢، ص٤٤٩، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ.

[2] أسرار هجوم الغرب على الإسلام، عادل بن علي الشدي، ص١٥، الطبعة الأولى، دار الوطن للنشر والتوزيع، الرياض، ٢٠٠٨م.

ثانياً: الأقليات الدينية في المجتمع الإسلامي

والغرب يهدف من هذا النوع من الافتراءات إقناع أتباعه أن الإسلام دين إقصائي لا يقبل الآخر، ومن ناحية ثانية يهدف الغرب إلى تمزيق العالم الإسلامي، فتتم إثارة مشكلة الأقباط في مصر بين الحين والآخر، ومشكلة الأكراد في تركيا والعراق أيضاً، ويتم ذلك دائماً بصورة تشوه الصورة الحقيقية للإسلام فيما يتعلق بالأقليات القاطنة في المجتمع الإسلامي، فتتم الإشارة إلى أن الإسلام يتعامل مع قاطني المجتمع الإسلامي من الديانات الأخرى على أنهم أهل ذمة، ويتم التركيز جهلاً أو تجاهلاً على أن هؤلاء بمثابة مواطنين من الدرجة الثانية في الدولة الإسلامية، ومن ثم يتم الافتراء على الحركات الإسلامية بأنها لو وصلت إلى سدة الحكم فستظلم هؤلاء أيما ظلم، ويتناسى هؤلاء أن التاريخ شاهد على أن أهل الكتاب لم يحظوا بمعاملة مثل المعاملة التي نالوها في العهود التي كان فيها للإسلام سيادة وعزة.

وقد عمل المسلمون تاريخياً على استمالة الأمم والشعوب التي اختلطوا بها إلى الإسلام، وذلك بما آتاهم الله من حجة ظاهرة وخلق قويم ودين ميسر تقبله الفطر ولا تستغلق عن فهم مبادئه العقول.

ولم يعمد المسلمون طوال تاريخهم الحضاري العظيم إلى إجبار الشعوب أو الأفراد الذين تحت ولايتهم، وذلك تطبيقاً لمجموعة من المبادئ الإسلامية التي رسخت فيهم هذا السلوك، ومن هذه المبادئ أن المسلمين يؤمنون بحتمية الاختلاف وطبيعته، قال تعالى ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (المائدة: ٤٨) قال ابن كثير : "هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث اللّه به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام المتفقة في التوحيد"([1]).

كما أن المسلمين يؤمنون أن مهمتهم الدعوة إلى الله لا فرض الإسلام على الناس، وهذا مما أدركوه مبكراً ومنذ بداية الدعوة الإسلامية، فهم يعلمون أن هداية الجميع من المحال، وأن أكثر الناس لا يؤمنون، وأن واجب الدعاة الدأب في دعوتهم وطلب أسباب هدايتهم. فإنما مهمتهم هي البلاغ فحسب، والله يتولى حساب المعرضين في الآخرة، قال الله مخاطباً نبيه: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ ﴾ (النحل: ٨٢) وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ

[1] تفسير القرآن العظيم، جـ٢، ص٦٧.

بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ (آل عمران: ٢٠) قال القرطبي: " فإن تولوا أي أعرضوا عن النظر والاستدلال والإيمان؛ فإنما عليك البلاغ، أي ليس عليك إلا التبليغ، وأما الهداية فإلينا"([1]).

ويكفي للتدليل على تسامح الإسلام مع الأقليات غير المسلمة هذه الشهادة التي يشهدها أحد أكبر الكتاب الغربيين المعاصرين: "لقد كان أهل الذمة المسيحيون، والزرادشتيون، واليهود، والصابئون يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيرًا في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا أحرارًا في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم، ولم يفرض عليهم أكثر من ارتداء زي ذي لون خاص وأداء ضريبة عن كل شخص تختلف باختلاف دخله، وتتراوح بين دينار وأربعة دنانير. ولم تكن هذه الضريبة تفرض إلا على غير المسلمين القادرين على حمل السلاح، ويعفى منها الرهبان، والنساء، والذكور الذين هم دون البلوغ، والأَرِقَّاء، والشيوخ، والعَجَزة، والعُمي، والشديدو الفقر، وكان الذميون يعفون في نظير ذلك من الخدمة العسكرية، أو إن شئت فقل لا يُقبلون فيها، ولا تفرض عليهم الزكاة البالغ قدرها ٢,٥ % من الدخل السنوي، وكان لهم على الحكومة أن تحميهم، ولم تكن تُقبل شهادتهم في المحاكم الإسلامية، ولكنهم كانوا يتمتعون بحكم ذاتي يخضعون فيه لزعمائهم، وقضاتهم وقوانينهم"([2])

وباختصار يمكن القول إن كثيراً من الدوائر والأقسام الأكاديمية التي تعنى بالدراسات الشرقية والإسلامية في الغرب ليست إلا امتدادا للدوائر الاستشراقية القديمة، التي أسهمت في تمهيد السبيل أمام القوى الغربية الإمبريالية لغزو الشرق الإسلامي واستعماره، "إن العديد ممن يُطلق عليهم في الغرب اليوم "خبراء الدراسات الشرقية والإسلامية" ليسوا إلا ذراع من أذرع تشويه صورة الإسلام والشرق في سبيل تحقيق المصالح السياسية والثقافية والاقتصادية للقوى الإمبريالية المعاصرة"([3])

ولقد ظهرت في الحقبة المعاصرة وسائل الإعلام الجماهيرية لتضيف إلى المشكلة بعداً جديداً يتمثل في إسهامها الخطير في نقل الصورة النمطية المشَوَّهَة للإسلام والعرب في التراث الغربي من دوائر الدراسات الاستشراقية والسياسية والأكاديمية إلى الدائرة الأوسع والأرحب وهي الدائرة الشعبية، لقد تمكنت وسائل الإعلام الجماهيرية في الغرب بما تمتلكه من قدرة على الانتشار وقوة الجذب والتأثير من أن تجعل الصورة النمطية المشوهة عن الإسلام والعرب ضمن اهتمامات الفرد الغربي، حتى أصبحت وخصوصاً في وقت الأزمات حديث المجالس والمنتديات الشعبية،

---

[1] الجامع لأحكام القرآن، جـ١٠، ص١٦١.

[2] قصة الحضارة جـ ١٣، ص١٣١.

[3] صورة الإسلام في العالم الغربي، ص٦٢.

"ومن هنا تنبع الخطورة الجسيمة للدور الذي تقوم به وسائل الإعلام الغربية الجماهيرية في ترسيخ الصورة النمطية للإسلام والعرب في العقل الغربي"([1])

---

[1] المرجع السابق، ص٦٢.

الفصل الثالث: آثار ومستقبل خوف الغرب من الإسلام

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: آثار خوف الغرب من الإسلام.

المبحث الثاني: مستقبل خوف الغرب من الإسلام

المطلب الأول: منع الإسلام من الانتشار والتمدد

إذا كان بإمكاننا أن نقول أن الغرب بات أكثر خوفاً وقلقاً من الإسلام بعد تنامي قوته، وظهوره كقوة مرشحة لأن تحتل مكانها المفترض على الخارطة العالمية، فإننا نستطيع القول أيضاً أن هذا الخوف ليس وليد اللحظة الراهنة، ولا العِقد الأخير، بل هو خوف يمتد في عمق الزمان، ليبدأ منذ بدأت الدعوة الإسلامية قبل أربعة عشر قرناً.

فمنذ بداية العقد الثاني من القرن السابع الميلادي ظهرت على مسرح التاريخ في جزيرة العرب دولة عربية واحدة تدين بالإسلام: عقيدة وشريعة، وكانت تحمل في ذاتها طاقة حضارية إنسانية عظيمة بقيادة الرسول الخاتم الأعظم ﷺ، ولم يمض ربع قرن على ظهور الإسلام حتى كانت الجيوش الإسلامية تطرق أبواب العراق والشام ومصر مهددة بالزوال الجزئي أو الكلي لأعظم الدول المعاصرة لها، ومنطلقة إلى ما ورائها من بلدان، مبشرة بعصر جديد من النور، "وقد طرق الإسلام أبواب أوروبا من الشرق بمحاولته فتح القسطنطينية، ومن الجنوب بدخوله صقلية وجنوب إيطاليا، ومن الغرب بدخوله الأندلس والتوغل في بلاد الغال –فرنسا اليوم–، ثم كر الإسلام ليدق أبواب أوروبا الشرقية، ثم الوسطى زمن السلطان محمد الفاتح([1]) وخلفائه من بعده، وبسط العثمانيون رواقهم على شرق أوروبا وغرب آسيا، وتلا ذلك حرب ضارية لغزو الأراضي الإسلامية تمثلت في الحروب الصليبية من غرب أوروبا، وظهور حركة ضدها تقاومها من الشرق المسلم"[(٢)].

وكان الإسلام دائماً يدخل البلاد المفتوحة، ليبهر العقول ويأسر الألباب، بطريقته في التعامل مع أهل البلاد المفتوحة، وبتأثيره الثقافي والنفسي في هذه الشعوب، وهذا ما يعرفه الغرب اليوم فيخشاه أيما خشية.

وعليه فالغرب اليوم لا يخاف من الحركات الإسلامية فقط، بل يخشى من الإسلام كدين لديه المقدرة لأن يقدم جملة من الأجوبة للمواطن الغربي تعجز الكنيسة وتعجز كل النظريات الاقتصادية والاجتماعية أن تجيب عنها، يقول هنتنجتون: "مشكلة الغرب ليس مع الأصولية الإسلامية بل مع الإسلام"([3]) ويحدد مبررات هذه الإشكالية عندما يقول: "لا آدم سميث ولا توماس جيرفسون، سيفي بالاحتياجات النفسية والعاطفية والأخلاقية للمهاجرين الجدد–داخل

---

[1] محمد الفاتح: هو سابع سلاطين الدولة العثمانية، هو من قضى نهائيًا على الإمبراطورية البيزنطية بعد أن استمرّت أحد عشر قرنًا ونيفًا، ويعتبر الكثير من المؤرخين هذا الحدث خاتمة العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة. (المصوّر في التاريخ).

١ تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، محمد المقداد، ص ١، الطبعة الأولى، منشورات عالم المعرفة (١٦٧)، الكويت، ١٩٩٢م.

[3] صدام الحضارات لهنتنجنتون، ص٣٥٢.

أمريكا- ولا المسيح يفي بها وإن كانت فرصته أكبر، فعلى المدى الطويل محمد سينتصر"([1]) "فالمسيحية تنتشر أساساً بالتحول، بينما الإسلام ينتشر عن طريق التحول والتناسل"([2]).

وهنتنجتون يقصد بذلك أن الإسلام يتميز عن الديانة النصرانية بأنه ينتشر عن طريق الدعوة، ولا يكتفي بذلك، لأنه يحض ذويه على التناسل والتكاثر، والخطورة هنا أن هذا في النهاية يؤدي إلى انتشار سلمي للإسلام في الغرب، بمعنى أن الغرب من الممكن أن يفقد ديانته الرئيسة – النصرانية- إذا استمر الحال على ما هو عليه، سيخسرها لصالح الإسلام.

لكنْ تجدر الإشارة إلى أن لخوف الغرب من الإسلام مبررات وأسباب متعددة، تحدثنا عنها في الفصل السابق، لكن يبقى خوف الغرب من انتشار الإسلام السلمي هناك هو الخوف الأكبر، لأنه عبارة عن انقلاب تدريجي على الحضارة الغربية ومن خلال بيتها الداخلي، فقد نشرت صحيفة "صنداي تايمز([3])" في أن تحقيقا أجرته خلص إلى أن خُمْسَ سكان دول الاتحاد الأوروبي ستصبح مسلمة بحلول العام:٢٠٥٠م، وقالت في لهجة تحريضية إن صانعي السياسة في الغرب أخفقوا في مواجهة تحديات ما وصفته بالقنبلة الديموغرافية الإسلامية في الغرب([4])، والصحف الغربية كثيرا ما تنشر عن تزايد أعداد المسلمين وخطورتها على المجتمعات الغربية المسيحية.

وقد أعلن بابا الفاتيكان رسميا أن الإسلام بات هو الديانة الأكثر انتشارا في العالم، وأنه تجاوز النصرانية بأكثر من ثلاثة ملايين شخص منذ ما يقرب من عام تقريبا، وأرجع الفاتيكان ذلك لاعتناق عدد كبير من الغربيين للإسلام، رغم حملة التشويه التي تشن عليه في الغرب، والأموال الطائلة التي تنفق على حملات التنصير، وقال الفاتيكان في بيان: إن عدد المسلمين في العالم تجاوز ملياراً وثلاثة ملايين واثنين وعشرين ألف مسلم في العالم، ليتجاوز بذلك عدد النصارى بأكثر من ثلاثة ملايين([5]).

وبناءً على هذه الإحصائيات وغيرها، أحس الغرب بخطر الإسلام على المجتمع الغربي، فعمد إلى جملة من الخطوات للحد من انتشار الإسلام، متناقضاً مع كثير من قناعاته وادعاءاته بأنه غرب الحرية والعصرية والانفتاح، فحاول الكثير من القيادات السياسيَّة الغربيَّة استثمار

---

[1] صدام الحضارات، ص١٠٨.

[2] المرجع نفسه، ص١٠٨.

[3] صحيفة إنجليزية.

[4] انظر: الكراهية والعنصرية ضد الإسلام في الغرب، برنامج: شاهد على العصر، تاريخ الحلقة:١٨/٠٨/٢٠١٠م.-http://www.aljazeera.net/NR/exeres/8FE17222-D5F3-4ECC A4F4-F38D70

[5] انظر: جريدة القبس الكويتية، رقم العدد:١٣٨٦٥، الصفحة الخامسة، ١٢صفر ١٤٣٣هـ-٦يناير ٢٠١٢م.

ضربة سبتمبر لمصلحتهم السياسيَّة، فسنوا جملة من القوانين التي يحسبون أنهم يفلحون في حظر الإسلام أو تقليل انتشاره، ومن هذه القوانين:

أولاً: عدم الاعتراف بالإسلام كدين رسمي.

وهذه من ضمن الطوام الكبرى التي يعاني منها المسلمون في بعض الدول الغربية مثل دولة بحجم ألمانيا، حيث لازال الدين الإسلامي هناك غير معترف به كدين رسمي كما الحال مع المسيحية أو اليهودية، والغريب أن العديد من مؤسسات المجتمع المدني هناك قامت بإعداد برامج للتصويت إن كان الألمان يقبلون بالاعتراف بالإسلام كدين رسمي أم لا([1]).

ثانياً: حظر النقاب

قامت كثير من الدول الغربية بمنع الفتيات المسلمات من ارتداء النقاب، وذلك في محاولة إلى زرع قناعة في عقل المواطن الغربي مفادها: أنَّ هؤلاء المسلمين مختلفون عنا، فاحذروهم.

وعلى الرغم من أن ارتداء النقاب لا يتجاوز كونه حرية شخصية حسب المفهوم الغربي للحرية، إلا أن الغرب تناقض من نفسه عندما منع المسلمات من استخدام أدنى حقوقهن، في اللحظة التي تتكفل الحكومات هناك وتدافع عن الحقوق الشخصية للشواذ.

والعجيب أنَّ أعداء النقاب ليس لهم وجهة واضحة في أسباب حربهم للنقاب، وحظرهم له، بل نجدهم مختلفين في ذكر التفسيرات والأسباب للمطالبة بحظره، فتارة يقولون: إنَّ هذه المظاهر تجلب التفرقة بين أطياف المجتمع، وتارة يقولون: إنَّ ذلك كبت لحريَّة المرأة وتقييد لحريتها، وانتقاص من كرامتها، وهضم لحقها، وتارة يقولون: نخشى أن تكون هذه المنتقبة عامل إرهاب وتخويف للآخرين، وقد تكون من جماعات إرهابيَّة تريد أن تنفِّذ عمليَّة إرهابيَّة ضد المنشآت الغربيَّة([2]).

ثالثاً: حظر المآذن

وبناءً على استفتاء شعبي في سويسرا تم حظر الأذان هناك، والحقيقة أن الحكومة السويسرية أقدمت على هذا الفعل بعد تنامي الإسلام هناك، ودخول كثير من السويسريين في الإسلام، إذ

---

[1] انظر رابط التصويت: http://www.tagesschau.de/inland/wulffrede112.html. وموقع الجزيرة للأخبار: –http://www.aljazeera.net

[2] انظر: قوانين حظر النقاب... قراءة في الخلفيات الفكرية والسياسية، خباب مروان الحمد، ص٢٠، الطبعة الأولى، دار الرشيد للنشر والتوزيع، بغداد، ٢٠٠٨م.

كان الأذان سبباً لكثير من السويسريين للبحث عنه من باب الثقافة ومعرفة الآخر، فانتهى بهم الحال كمسلمين([1]).

المطلب الثاني: الحضارات بين التصادم والحوار.

من أشد المواضيع التي طفت على الساحة الثقافية في آخر الألفية المنصرمة موضوع العلاقة ما بين الحضارات، ولعله بات قدراً مقدوراً مذ غابت شمس الدولة الإسلامية أن تنبت المصطلحات والمواضيع الخلافية خارج أروقة الفعل الإسلامي، فمصطلح صراع أو حوار الحضارات، شأنه شأن غيره من المصطلحات كان دور المسلمين فيه دور المتلقي لا الفاعل، حتى وإن زخرت المكتبة الإسلامية بالمؤلفات والمقالات والأفكار والرؤى التي تناولت هذا الموضوع، فالدور الفاعل لا يتأتى إلا بفعل مؤسساتي –هو الدولة– يترجم ما تتضح به حضارة ما من أفكار وقناعات من خلال أفعال وتصرفات.

وإلا فكل المواقف الإسلامية من هذا الموضوع– التي تؤمن بنظرية صراع الحضارات أو تلك التي تؤمن بالحوار منها– لا تنفك من أن تؤكد وجهات نظر تخلو من الفعل الحضاري المفترض.

يؤكد ذلك أن أغلب الذين تحدثوا عن الحضارة الإسلامية ودورها، في الأغلب نزحت نفوسهم لأن يجتروا التاريخ الإسلامي حيثما حلوا وذهبوا.

كل الذين يؤمنون بنظرية صراع الحضارات تحدثوا عن الفتوحات الإسلامية لبلاد المخالفين، فأوغلوا بالحديث عن السيف .

وعلى الطرف النقيض، فإن كل الذين تحدثوا عن حوار الحضارات اجتروا نصوص المعاملة الحسنة التي تعامل بها المسلمون مع مخالفيهم من الحضارات والديانات.

ولكي يتم تناول الموضوع تناولاً سليماً، فمما لا بد منه أن يتم تعريف الحضارة بداية، لكي يتم الحديث عن مستلزمات الموضوع بعد ذلك.

الحضارة لغةً: هي كما وردت في لسان العرب: " الإقامة في الحضر... والحضر والحضرة والحاضرة: خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف"([2]).

وعليه فالحضارة بهذا المعنى هي عكس البداوة.

---

[1] انظر: تفاعل المسلمين مع حظر الأذان في سويسرا، برنامج: الشريعة والحياة في قناة الجزيرة، تاريخ الحلقة: ٢٠٠٩/١٢/٢٤م. http://www.aljazeera.net/NR/exeres/8E783617-12C8-4B60-97B0-FA889A9F4FE2

[2] لسان العرب، ابن منظور، ط٢، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٥م.

لكن مصطلح الحضارة شأنه شأن كثير من المصطلحات ارتقى ليغدو له معنى مغاير، وإذا كان مصطلح الحضارة يصف حالة معيشية معينة، فإنه بات لزاماً أن يتطور هذا المصطلح وفقاً لتطورات الحالات المعيشية الإنسانية.

ولعل التعريف الذي أورده ول ديورانت فيه مقاربة كبيرة من الصحة، فالحضارة حسب تعريفه: "نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون"([1]) إلا أن أهم ما يعيب هذا التعريف أنه يغفل جانب الدين.

عموماً يمكن القول بأن مصطلح الحضارة بمعناه الاصطلاحي جاء من خارج الأروقة العربية، جاء من خلال التطورات المعيشة للحياة الأوروبية، حيث كانت البداية هناك في القرن الثامن عشر: في مصطلح Civlizatiion، بمعنى مدني أو حضاري..، ويلاحظ أنه في تلك الحقبة كان مصطلح الحضارة يزداد تمييزاً وحصرا، إذ تم استثناء أهل الأرياف والقرى بعد أن كان أهل البادية هم المستثنون فقط.

وازداد حصر المصطلح بعد ذلك، حين أصبح مصطلح الحضارة أو الحضاري يطلق ويراد به خصائص الأمم المختلفة أو هواياها المتفردة التي تميزها عن سواها، يقول دويستوفسكي([2]): "إن لكل شعب تصوره الخاص للخير والشر، إن لكل شعب خيره الخاص به، وشره الخاص به"([3])، وبالتالي فقد أضحى للمصطلح معناه الذي يبعد ليس بالنذر اليسير عن معناه اللغوي، أضحى له معناه الذي يشمل البعد المادي للأمم وكذا الثقافي.

فمجموع مدنية أمة ما مع ثقافتها الخاصة ونظرتها للحياة هو حضارتها، وأصبح يطلق هذا المصطلح بغض النظر عن حجم أو مستوى الثقافة أو المدنية التي تتميز بها الأمم على سلم ترتيب الأمم، وهذا ما جعل هنتجنتون يعتبر الحضارة الأفريقية على الرغم من حجم تخلفها من ضمن الحضارات الثمانية التي قسّم بها العالم([4]).

---

[1] قصة الحضارة، نشأة حضارة الشرق الأدنى، ول ديورانت، ترجمة زكي نجيب محمود، جـ١، صـ٣، دار الجيل، ١٩٨٨.

[2] دويستوفسكي: واحد من أكبر الكتاب الروس ومن أفضل الكتاب العالميين، وأعماله كان لها أثر عميق ودائم على أدب القرن العشرين. (الأعمال الكاملة لدويستوفسكي).

[3] الشياطين، دويستوفسكي، ترجمة سامي الدروبي، جـ١، صـ٤١٩، ٤٢١، دار ابن رشد، ١٩٨٥.

[4] انظر: صدام الحضارات.. إعادة صنع النظام العالمي، صامويل هنتجنتون، ترجمة طلعت الشايب، ص٧٨، ط٢، ١٩٩٩م.

وهنا تجدر الإشارة أننا عندما نستخدم مصطلح الحضارة فإننا نقصد به المصطلح العرفي لا اللغوي، لأن الحقيقة العرفية تُقدَم على الحقيقة اللغوية كما هو معروف عند أهل الأصول.

الحضارات الإنسانية

يصعب الوقوف على تقسيم معين للحضارات في التاريخ الإنساني، إذ يتوقف هذا التقسيم وفقاً لطبيعة الدراسة التي تتناول الموضوع، لأيدلوجية الدراسة إن جاز التعبير.

فمن الناحية القومية يتم الحديث عن حضارة فرعونية أو هندية أو عربية...إلخ، ومن الناحية الدينية يتم اختزال ذلك إلى الحديث عن الأديان، فعلى الصعيد الديني يتم التقسيم إلى إسلام وغرب، أو إسلام ويهودية ومسيحية، وعليه فإننا نقصد بقولنا: الحضارة الإسلامية، أي الحضارة التي تجمع وجمعت أهل القبلة كلهم، بخلاف الحضارات التي ضمت في داخلها كل العقائد والأفكار الأخرى.

صدام الحضارات

كان على البشرية أن تمر بمرحلة جديدة على كافة الأصعدة، وذلك بعد أن انتهت الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي سابقاَ، حيث طغى على السطح العالمي قوة منفردة ووحيدة، هي القوة الأمريكية، وهذا التفرد أكسب الأمريكيين أو بعض الأمريكيين إن صح التعبير إحساساً بالاستعلاء، إذ بعد أن استمر السجال الأمريكي السوفيتي آمادا طويلة كان الأمريكيون يعرفون أنفسهم من خلال تعريفهم عدوهم، فالحضارة الغربية عموماً، والأمريكية خصوصاً لا تجد نفسها إلا من خلال تعريف أعدائها، بمعنى أنهم يعرفون العدو ومن ثم يقولون نحن في الطرف المقابل.

وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي بحث الأمريكان عن عدو جديد يعرفون بهم أنفسهم، ويشحنون مواطنيهم من خلال الإشارة إليه والتخويف منه، وهم بذلك يهدفون إلى السيطرة على العالم.

يقول جيمي كارتر: "يكافح بعض قادتنا علناً لإنشاء إمبراطورية أمريكية تهيمن على العالم أجمع"([1]).

فبعد انهيار الاتحاد السوفيتي كثر التساؤل الأمريكي، من نحن؟ وماذا نريد؟ ومن ثم: هل يكفينا أن نهتم بأنفسنا؟ بسياستنا الداخلية؟ بالرفاهية، والنجاح الاقتصادي، أم نحن بحاجة إلى الآخرين؟! بحاجة إلى سياسة خارجية نضمن من خلالها تفردنا بالتفوق الموجود؟([1])

---

[1] قيمنا المهددة.. أزمة أمريكا الأخلاقية، جيمي كارتر، ترجمة حسام الدين خضور، ص١٥، ط١، سبر إيجنسي للنشر، ٢٠٠٥م.

وعليه فقد كتب وزير الخارجية الأمريكي الأسبق كسينجر كتابه: "هل الولايات المتحدة بحاجة إلى سياسة خارجية؟" وكتب فوكاياما كتابه الشهير: "نهاية التاريخ" يبرهن فيه انتهاء الصراعات الأيدلوجية البشرية، وانتصار قيم الديمقراطية الغربية إلى الأبد.

ومن ثم فقد جاء كتاب صدام الحضارات لهنتنجتون، وقد حظي هذا الكتاب بما لم يحظ به كتاب سواه، من تحليلات وتعليقات، بين قبول ورفض لفكرته الكلية، أو بعض الأفكار الجزئية، وبغض النظر عن صحة أو بطلان نظرية صدام الحضارات التي صاغها الكاتب الأمريكي، فإننا نستطيع القول أن هذا الكتاب كان له أثر كبير، وكبير جداً في حلبة النقاش السياسية والفكرية العالمية.

وقد وجدت نظرية صدام الحضارات قبولاً عند كثيرين من سائر الأطراف المتضادة أو المتنازعة، فكما كان من الغربيين مَن أكد هذه النظرية وباركها، كان من المسلمين من رأى أن العلاقة مع الغرب ليس لها سوى خاتمة التصادم لا الحوار، وهؤلاء هم القائلون بهجومية الحرب في الإسلام[٢].

أما الغربيون الذين يؤمنون بصدام الحضارات فهم سلسلة متصلة من المنظرين الغربيين الذين يرون أن الإسلام دين دموي يبث في أبنائه الرغبة في القتال وإقصاء الآخر[٣]، منطلقين من منطلقات دينية نصرانية حاقدة في الأغلب، يقول هنتنجتون: "الإسلام هو الحضارة الوحيدة التي جعلت بقاء الغرب موضع شك مرتين"([٤]) ومن ثم يخلص إلى قوله: "إن ألوف السنين من التاريخ الإنساني تؤكد أن الدين هو أعمق اختلاف قد يوجد بين البشر"([٥]).

ونظرية صراع الحضارات عند الغربيين جاءت كرد فعل على نظرية نهاية التاريخ التي يُعتبر فوكاياما أكبر المنظرين لها، فنظرية نهاية التاريخ تتلخص في أن البشرية عندما تبلغ أرقى طور لها، فإنها ستنتهي إلى الليبرالية الغربية كنظام سياسي واجتماعي واقتصادي، بمعنى أن كل

---

[١] انظر: قيمنا المهددة.. أزمة أمريكا الأخلاقية، ص٥٣.

[٢] ارجع: ص١٥٨-١٦٢.

[٣] يُعتبر الحزب الجمهوري في الولايات المتحدة أبرز المؤيدين لنظرية صدام الحضارات، وهو لا يخفي ذلك في أدبياته ولا خطاباته ولا ممارساته، أما الحزب الديمقراطي، فأنصاره منقسمون نظرياً، أما من الناحية العملية فلا فارق بين الحزبين.(انظر: الكراهية والعنصرية ضد الإسلام في الغرب، برنامج: شاهد على العصر، تاريخ الحلقة: ١٨/٠٨/٢٠١٠م.

(http://www.aljazeera.net/NR/exeres/8FE17222-D5F3-4ECC-A4F4-F38D70) .

[٤] صدام الحضارات، ص٣٣٩.

[٥] المرجع السابق، ص٤١١.

دول العالم التي لا تتبنى هذه القيم -وبالتأكيد بلاد العالم الإسلامي من هذه الدول- سينتهي بها الحال إلى تبني الليبرالية كعقيدة في الحياة، وعليه ستنتهي الحروب بين البشر، وستنتهي النزاعات، لأن العالم كله سيدين بهذه العقيدة.

واستعجالاً لتحقيق ذلك في ربوع العالم، قامت برامج العولمة الثقافية ودعمتها الولايات المتحدة الأمريكية.

وجاءت نظرية صدام الحضارات كرد فعل على هذه النظرية، إذ تنص النظرية على خلاف ذلك، بل وتؤكد أن المرحلة القادمة ستكون مرحلة صدام بين الحضارات، أو بين الحضارات التي تدين بقيم الليبرالية الغربية، والحضارات التي لا تدين بها([1]).

وعلى الصعيد الإسلامي، انقسم المسلمون إلى طرفين، طرف يؤمن بنظرية صدام الحضارات وهم القائلون بهجومية الحرب في الإسلام، وآخر يؤمن بإمكانية الحوار، وهم القائلون بدفاعية الحرب في الإسلام[2].

وعند التدقيق يبدو جلياً أن المؤمنين بنظرية صراع الحضارات، هم الذين يتبنون أن الأصل في علاقة الإسلام بالآخر هي القتال، بمعنى أن الحرب في الإسلام هجومية وليست دفاعية، وهؤلاء يستشهدون بجملة من الآيات والأحاديث التي تؤكد هذه الوجهة، مثل:

-قوله تعالى:﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ (البقرة: ١٩٣). والآية واضحة في استمرارية القتال ما دامت الفتنة موجودة، "فالله تعالى أمر بقتالهم ثم بين العلة التي بها أوجب قتالهم، فقال :"حتى لا تكون فتنة" ويخلص الدين الذي هو دين الله من سائر الأديان، وإنما يحصل هذا المقصود إذا زال الكفر بالكلية"([3]).

-آية السيف التي نسخت نحو مائة وأربع عشرة آية، وهي توجب قتال المشركين المسالمين والمعادين منهم، والذين احتجوا بآية السيف اختلفوا حول تعيينها، لكن أكثرهم قال بأنها آية:﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ (التوبة: ٥) بمعنى "إن تابوا وأقاموا الصلاة، أي تابوا عن الشرك الذي هو سبب القتل وحققوا التوبة بفعل ما هو من

---

[1] انظر، صدام الحضارات... محاولة للفهم...أبعاد وأسباب ومآلات العدوان الأمريكي على الأمة الإسلامية، عبد الرازق مقري، ص٨، الطبعة الأولى، دار الكلمة، جمهورية مصر العربية، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

[2] ارجع: ص١٥٨-١٦٢.

[3] التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي الشافعي، جـ١٥، صـ١٣١، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م.

أعظم أركان الإسلام وهو إقامة الصلاة .. اتركوهم وشأنهم فلا تأسروهم ولا تحصروهم ولا تقتلوهم"([1]).

-قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٦ ﴾ (التوبة: ٣٦).

-مجموعة من الأحاديث التي يثبت ظاهرها وجوب مبادأة المخالفين بالجهاد، مثل حديث ابن عمر رضي الله عنه عن النبيﷺ: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله"([2]).

حوار الحضارات

ومما لا شك فيه فإن الذي ادعاه هنتنجتون لا يخلُ من تجنٍ كبير على الإسلام والمسلمين، فالإسلام يؤمن بالحوار، وفلسفته قائمة على احترام الآخر وعدم الاعتداء على خصوصياته، واستدل القائلون بهذا القول بالأدلة التالية:

١ -الإسلام لا يكره أحداً على الإسلام، بل هو الديانة الوحيدة التي يثبت التاريخ أنها احترمت عقائد الآخرين، ويأتي هذا منسجماً مع قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ٢٥٦ ﴾ (البقرة: ٢٥٦)

٢ -القول بأن الإسلام انتشر بالسيف بالمعنى الدموي الإكراهي يتنافى مع الواقع التاريخي، حيث يمكن القول هنا أن أكبر دولة إسلامية وهي اندونيسيا لم يدخلها الإسلام إلا عبر القوافل التجارية.

٣ -إذا كان القرآن يأمر المسلمين بدعوة المسلمين بالحسنى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ فإنه يأمر المسلمين بمخاطبة أهل الكتاب بالتي هي أحسن ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ ﴾

٤ -الإسلام يحترم كافة الديانات الموجودة على البسيطة، يثبت ذلك من اعتباره كفار قريش الذين يعبدون الأصنام أصحاب ديانة: ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦ ﴾ (الكافرون: ٦) يقول القرضاوي: "إننا نجد في القرآن سورة اشتملت على غاية في الاعتزاز وغاية في التسامح معا

---

[1] فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الإمام الشوكاني، تحقيق عبد الرحمن أبو عميرة، جـ٢، صـ ٣٥٧، الطبعة الأولى، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، مصر، ١٩٩٤م.

[2] صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب: فإن تابوا وأقاموا الصلاة، رقم ٢٥.

في سياق واحد، وهي سورة الكافرون، فقد نزلت لسبب معروف، وهو المساومات الشركية من قريش للنبي ﷺ"([1]).

٥- طريقة القرآن الكريم في مخاطبة المخالفين لا يمكن أن تضاهيها طريقة من ناحية الأدب، وإلا فهذي هي آيات القرآن عندما تتحدث عن أقوام الأنبياء- وهم أقوام على الشرك- تتحدث عنهم بصفة الإخاء، قال تعالى:﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴿٥٠﴾ ﴾ (هود: ٥٠) ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴿٦١﴾ ﴾ (هود: ٦١) .

والذين يؤمنون بنظرية حوار الحضارات[2] من المسلمين يتبنون الحكم الشرعي القائل: بأن أصل علاقة المسلمين بغيرهم هي السلم لا القتال، بمعنى أن الحرب في الإسلام دفاعية وليست هجومية، وهؤلاء يستدلون بجملة من النصوص التي تؤكد ذلك، منها:

-قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ (البقرة: ١٩٠) "فشرع الله قتال من قاتلنا، ومفهومه عدم قتال من لم يقاتلنا، ونهي الاعتداء ومنه قتال من سالم"([3]).

- قوله تعالى:﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ ﴾(النساء:٩٠).

-﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (الممتحنة: ٨).

عموماً يخبرنا التاريخ أن التأثير والتأثر سمة بارزة من سمات الحضارات، كان ذلك عبر الغزو والهجرة أو أي سبيل آخر.

وبالقدر الذي تسمو به حضارة معينة على الصعيد الحضاري، فإن قوة تأثيرها تزداد وتزداد، ولعل الغزو الخارجي كان هو أكثر لغات التواصل انتشاراً عبر التاريخ، فعندما تغزو دولة أخرى، فإنها في الأغلب تنقل معها ثقافتها ومدنيتها إلى هذه الدولة المغلوبة، لكن هذا لا يمنع من أن تتأثر الدول الغالبة بالدول المغلوبة.

وهنا تجدر الإشارة إلى نقطة غاية في الأهمية، أن قوة التأثير لحضارة معينة يتوقف على مدى سموها الفكري والثقافي وليس المادي العسكري، فلو حدث وكانت القوة المادية للدول

---

[1] خطابنا الإسلامي في عصر العولمة، يوسف القرضاوي، ص١٠٢، وانظر: أسباب النزول، الإمام السيوطي، تحقيق: حامد أحمد الطاهر، ص٨٧، دار الفجر للتراث، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٢م-١٤٣٢هـ.

[2] وهم القائلون بدفاعية الحرب في الإسلام. انظر: ص٨٥.

[3] فقه الجهاد للقرضاوي، ص٤٠٥.

الغالبة أكبر من القوة المادية للدول المغلوبة، فإن هذا لا يضمن أن يكون دائرة تأثير الدول الغالبة أكبر، الذي يحدد ذلك هو مدى رقيها الحضاري، وليس قدرتها العسكرية، ومثال ذلك التتار لمّا هاجموا أرض الخلافة الإسلامية، إذ كانت القوة المادية لهم تفوق قوة المسلمين، إلا إن الحضارة الإسلامية استطاعت أن تستوعب الهجمة التتارية، ومن ثم فرضت ثقافتها على جحافل المغول المهاجمة بعد ذلك([1]).

لكن وفي هذا العصر الذي أضحى فيه الكون قرية كونية واحدة، فإن سبل التأثير والتأثر قد غدا لها شكلها المختلف، لعل الإعلام هو القدرة الأبرز للتأثير في الآخر، وهذا ما يجعل الدول تتبارى في هذا السبق، كل منها يحاول أن يبرز مزاياه وإيجابياته للآخرين.

وهنا تجدر الإشارة أن جزءً من هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية اليوم، يتوقف على الإعلام، أو القدرة الإعلامية لهذه الدول، فالعالم اليوم –وخاصة دول العالم الثالث– يرى ما تراه العين الأمريكية، وفق قناعاتها وتحليلاتها ورؤاها، ومرد ذلك يرجع إلى أن " الكرة الأرضية بأسرها لا ترى الأخبار في معظم الأحيان إلا عبر ثلاث وكالات غربية للصحافة هي رويتر وفرانس برس وأسوشيتدبرس"([2]).

عموماً فإن الصراع المادي العسكري كان هو الأصل الذي يتم التواصل الحضاري عبره بين الدول، أما اليوم، وفي عصر أسلحة الدمار الشامل، فإن البشرية توصلت إلى تفاعل وتواصل حضاري جد مختلف، ولعل الحرب الباردة هي خير مثال على ذلك.

كان التنافس هناك ثقافياً أكثر منه أي شيء آخر، إذ لا سبيل سوى ذلك، فدولة مثل الاتحاد السوفيتي لديها القدرة لتدمير الكرة الأرضية أكثر من مرة، وعلى الطرف النقيض كانت الولايات المتحدة بكل قدراتها المماثلة، ولهذا كان للعداء المستفحل بين الدولتين أن يبحث عن شكل واقعي كان هو الحرب الباردة.

لم يعد ممكناً أن تتحدد العلائق بين الدول بقوة السلاح، ولهذا نجد كاتباً مثل هنتجنتون عندما يتحدث عن صدام الحضارات، فيرشح الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية للقيام بدور معاند ومعارض للحضارة الغربية، فإنه عندما يتحدث عن هذا الخطر الصيني والإسلامي، لا يتطرق كثيراً للخطر المادي والعسكري، بل يرى التحدي القادم من الحضارة الإسلامية مثلاً، يتمثل بالخطر الديمغرافي، في الازدياد المضطرد لتعداد سكانه بخلاف الحضارات الأخرى.

---

[1] انظر: التتار في التاريخ الإسلمي، محمود شلبي، ص١٥٨، الطبعة الأولى، دار وهبة للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٩٨٥م.

[2] حفارو القبور.. الحضارة التي تحفر للإنسانية قبرها، روجيه غارودي، ترجمة عزة صبحي، ص٧٨،الطبعة الثالثة، دار الشروق، ٢٠٠٠م.

وعليه فإن السجال الحضاري ارتقى الآن كما ارتقت البشرية إلى مرحلة يكون الركون فيها إلى القوة المادية مدعاة إلى الانتحار الكوني، السجال الحضاري يكمن في طرح الأفكار والرؤى أمام الناس ليقبلوها أو يرفضوها، وبالقدر الذي تلاقي به هذه الأفكار قبولاً من المخالفين فإنه يتحقق النصر الحضاري.

وعليه فإن أي حضارة معينة لديها الرغبة في القيام بدور في هذا السجال، عليها أن تُعَرِف نفسها، أن تعرف مبادئها وقناعاتها، وتترجم ذلك بممارسات فاعلة ومنسجمة مع هذا التعريف، وينطبق هذا القول على المسلمين تمام الانطباق، فإذا أراد المسلمون أن ينبعثوا من جديد، فعليهم أن يعيدوا صياغة أنفسهم صياغة واقعية ومنسجمة مع هذا الدور الذي أولاه رب العالمين إليهم، عليهم أن يجيبوا على الأسئلة الكونية المتجددة كل يوم، وقبل هذا وذاك، عليهم أن يسألوا أنفسهم، ما هو الشيء، وما هي الطريقة التي يستطيع المسلمون من خلالها أن يبرهنوا أنهم خير امة أخرجت للناس؟ ربما يكمن شيء من الإجابة فيما قاله الشيخ محمد الغزالي: " إن عظمة أجدادنا لا تكمن في أنهم فتحوا دولتي الفرس والروم، بقدر ما تكمن في أنهم ملأوا فراغ الكون ببهاء فكري مشرق ومنير"([١]).

[١] الحق المر، محمد الغزالي، ص٧٨، ج٣، ط٢، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٠م.

المبحث الثاني: مستقبل خوف الغرب من الإسلام

المطلب الأول: مستقبل العلاقة بين الإسلام والغرب

إن السفر في عمق الزمان سفرٌ يتنافى مع القدرات البشرية، وإذا كان السفر إلى الماضي لا يخلو من وعورة، فإن السفر إلى المستقبل غير مأمون الخاتمة.

ذلك إذا ما لم يكن هذا السفر محفوظٌ بوحيٌ من السماء، يحدد له خطاه، ويرسم له معالم الدروب المنتظرة.

وفيما يتعلق بالعلاقة المستقبلية بين الغرب والإسلام، فإن الإسلام وضع فيها بياناً شافياً ووافياً، والمتأمل في آي القرآن والأحاديث النبوية، يلاحظ أن الفقه الذي اصطُلِح على تسميته بفقه العلاقات الدولية، جاءت أحكام الإسلام فيه أحكاماً تفصيلية لا عامة([1]).

والأهم من ذلك كله أن الله عزوجل حدد الخاتمة التتويجية للعلاقة مع الغربيين وغيرهم من أهل الكتاب والمشركين، قال تعالى: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾ ﴾ المجادلة: ٢١.

هذه هي الخاتمة، لكنْ تبقى المسافة الفاصلة بين اللحظة الراهنة، وبين اللحظة التي تتحقق فيها هذه الخاتمة، ممتلئة بالغيبيات التي يصعب تحديد كنهها، والحديث عن مستقبل العلاقة بين الإسلام والغرب، يدور بين نقطة بدء نحياها الآن، وبين خاتمة متمثلة بوعد إلهي.

وعليه فإن طبيعة العلاقة المستقبلية بين الإسلام والغرب، لا نعني بها إلا تلك المسافة الزمنية التي تفصل بين واقعنا اليوم، وبين اللحظة التي تحمل فيها خبر الانتصار لدولة الخلافة الراشدة، ففي الحديث: "تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًا، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبرياً، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة"([2]) ودلالة الحديث واضحة، بأن الإسلام سينتصر في النهاية.

والحقيقة أن هذه العلاقة تتوقف على جملة من العوامل والظروف، منها أحوال المسلمين الدينية والسياسية والعسكرية...إلخ، وأحوال الغربيين: أحوال القوى السياسية التي ستحكم هناك، وسترسم طبيعة العلاقات بين الغرب وما سواه.

وعليه فإنه يمكن استشراف العلاقة بين الإسلام والغرب وفق احتمالين اثنين: احتمالية انتصار المقتنعين بفكرة الصدام، من طرف أو آخر، أو المقتنعين بفكرة الحوار بين الحضارات.

---

[1] انظر: العلاقات الدولية في الإسلام، محمد أبو زهرة، ص١٠، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، جمهورية مصر العربية، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

[2] مسند الإمام أحمد، جـ٤، ص٢٣١.

أولاً: العلاقة التصادمية

وهي العلاقة المتوقع حدوثها في حال استمر الغرب على سياسته الحالية، المتمثلة بإقصاء الآخر، والاستهتار به، وتأجيج النظرة النمطية المتعالية للمسلمين بالذات، "فصورة الإسلام والمسلمين في الوجدان الغربي سلبية بوجه عام منذ الحروب الصليبية التي بلغت جهود التنفير من الإسلام ذروتها، وكان ذلك التنفير جزءاً من حملة التعبئة المضادة التي استهدفت استنفار شعوب أوروبا وتحريضها للانضمام إلى الجيوش التي اتجهت نحو القدس لتخليص مهد المسيح من أيدي المسلمين البرابرة والأشرار"([1]).

هذه العلاقة التصادمية مآلها الحرب والقتال، "وعلى الرغم من أن الحرب من أبغض الأشياء إلى النفس المؤمنة، ذلك أن قوام الحرب قتل النفس البشرية، والمؤمن لا تُسوغ له نفسه أن يهدم ما بناه الله، لكن هذا الأمر المكروه قد يكون من مقتضيات ومتطلبات الرحمة الإنسانية، فإن ترك الطغيان يتحكم في الضعفاء لا يعد من الرحمة في شيء، والرحمة الحقيقية توجب دفع الطغيان"([2]).

وكما أسلفنا فإن الإسلام يفرق بين نوعين من أهل الكتاب، فهناك المحاربون وهناك المسالمون، ومستقبل العلاقة مع التصادميين هؤلاء تُحدده الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، التي جاءت مندِّدة بهم وبأضرابهم، ويمكن إجمال ذلك في التالي:

القرآن الكريم:

هناك جملة من الآيات القرآنية التي ترسم بوضوح وجلاء علاقة المسلمين بالمحاربين الكتابيين منها:

١-قوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩ ﴾ التوبة: ٢٩,

٢- قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣ ﴾ (البقرة: ١٩٣).

٣- قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ ﴾ البقرة: ١٩٠

[1] الإسلام والغرب: شقاق أم وفاق، نصر بن محمد الصنقري، ص٥٥، الطبعة الأولى، دار الصدى للنشر، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠١٠م.

[2] العلاقات الدولية في الإسلام، ص١٠٣.

٤-قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ النساء: ,٧٥

٥-قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ الأنفال: ٦٠

٦-قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ النساء: ٧٥

السنة النبوية:

هناك مجموعة من الأحاديث النبوية التي تحدد بوضوح وجلاء العلاقة مع أهل الكتاب المحاربين، منها:

١-عن عبد الله بن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر فيقول: يا عبد الله هذا يهودي ورائي فاقتله([1]).

٢-قال ﷺ: "تصالحون الروم صلحاً آمناً، ، وتغزون أنتم وهم عدواً واحداً،، فَتسلمون وتغنمون، ثُمَّ تَنزلون بِمَرْجٍ ذِي تلول ، فيقوم رجل من الروم، فَيرفع الصليب ويقول: أَلَا غَلَبَ الصَّلِيبُ، فَيَقُومُ إِلَيْهِ رَجُلٌ من المسلمين فيقتله، فعند ذلك تغدر الرُّومُ وتكون الملاحم ، فَيجتمعون إليكم، فَيَأتونكم فِي ثَمَانِينَ غَايَةً، مَعَ كُلِّ غَايَةٍ عَشْرَةُ آلَافٍ"([2]).

٣-عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص ﷺقَالَ: "بينما نحن جلوس حول رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نكتب اذ سئل رَسُول اللَّه: أي المدينتين تفتح أولاً أقَسطَنطينية أو رومية؟ فقَال رَسُول اللَّه مدينة هرقل تفتح أولاً يعني قُسْطَنْطِينِيَّة"([3])

٣- قال رسول الله ﷺ: "لا تزال طائفةٌ من أمتي قائمةً بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم، أو خالفهم حتى يأتي أمر الله، وهم ظاهرون على الناس"[4]

---

[1] صحيح البخاري، كتاب الجهاد في سبيل الله، باب: قتال يهود، حديث رقم:٢٩٢٦.

[2] مسند الإمام أحمد، حديث رقم: ١٦٨٢٦، وصححه الألباني.

[3] مسند الإمام أحمد، حديث رقم: ٦٦٤٥، وصححه الألباني.

٤ صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب: قوله ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم، حديث رقم ١٠٣٧.

٤-عن ابن عمرﷺ أن رسول الله ﷺ قال: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله([1]).

٥- قال ﷺ: "جاهدوا المشركين بألسنتكم، وأنفسكم، وأموالكم، وأيديكم"([2]).

٦-قال عليه السلام: "والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم، حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها"([3]).

٧-قال عليه السلام: "كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم، وإمامكم منكم"([4])

٨-قال عليه السلام: "الخيل معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة"([5])

وخطورة هذا المنحى واضحة وجلية، إذ أضحى التصادم بين الحضارات غير مأمون العاقبة، لأن الصراعات العسكرية التي شهدها التاريخ، كانت معارك بدائية الأدوات، أما اليوم وفي عصر القنابل النووية والذرية، فيبدو الأمر خطيراً جداً، إذ تبدو الكرة الأرضية بأسرها معرضة لخطر الزوال حال حدوث هذه المعارك.

والسؤال الذي يطرح نفسه: كيف سيكون مشهد العلاقة بين الشرق والغرب، هل ستستمر الحدود الدموية التي رسمتها الأطماع التاريخية بين شطري العالم، أم سينصت الإنسان لصوت العقل ويدرك أن عصر الحروب المعمد بالدم ينبغي أن ينتهي ويحل محله عصر الحوار والتفاهم؟!([6]).

"ومن المؤسف أن فلاسفة الموت الغربيين، يجدون في الأخبار كل يوم ما يذكي نظريتهم عن صدام الحضارات، حيث يؤكدون أن الإسلام والحوار سخافة لا وجود لها في التأريخ وعلى الإنسان أن يمضي في خياره المجنون إلى المواجهة بالدم"([7])، وهذا ما يبدو واضحاً في كثير من

---

[1] صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب: فإن تابوا وأقامو الصلاة، حديث رقم:٢٥.

٢ سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب: كراهية ترك الغزو، حديث رقم ٢٥٠٤، صححه الألباني في صحيح الجامع، برقم ٣٠٩٠.

[3] صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: نزول عيسى ابن مريم عليهما السلام، حديث رقم: ٣٤٤٨.

[4] صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: نزول عيسى ابن مريم عليهما السلام، حديث رقم ٣٤٤٩.

[5] صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة، حديث رقم ٣٤٤٩.

[6] انظر: الإسلام والغرب: شقاق أم وفاق، ص٥٣.

[7] الإسلام والغرب: شقاق أم وفاق، ص٥٢.

من الممارسات الغربية اليوم، مثل الرسومات المسيئة، والحرب على الحجاب ومطاردة المنتقبات، وانتشار ثقافة كراهية المسلمين في الغرب والاعتداء عليهم.

ثانياً: العلاقة التفاهمية

وهي العلاقة التي يمكن أن تربط العلاقة بين الغرب والإسلام، في حال تنازل الغرب عن عنجهيته الطاغية في تعامله مع المسلمين، وتخلى عن نظرته إلى بلاد المسلمين على أنها مصدر للمواد الخام، وسوق نهِم لمنتجاته الصناعية.

والحقيقة أن الأصوات الغربية المنادية بضرورة الحوار مع الشرق، أصوات لها قيمتها الفكرية والأكاديمية، لكن ليس لها النفوذ الكافي في أنظمة الحكم هناك، وبالتالي لا تأخذ النصيب الكافي على شاشات الإعلام.

وهذه الأصوات المنادية بالحوار[1] تعتمد على قناعة مفادها: "أن الثقافات الإنسانية جهد إنساني مشترك، وحصيلة تلاقح وتفاعل مع الآخر، ويشترك فيها العنصر الخارجي والداخلي أكثر مما تكون ناجمة عن عبقرية خالصة أو تدّعي لنفسها مكانة متميزة فوق سائر الثقافات الإنسانية، والحضارة الغربية مثلها مثل باقي الحضارات الإنسانية تدين للآخر زماناً ومكاناً. والغيرة عليها والحفاظ على ديمومتها لا يكون بالحديث عن الحقد والكره وحتمية الصراع"([2]).

وعليه فإن هذه الرؤية لا تتسم بالاستعلاء، بل تتصف بالموضوعية والحيادية، يبدو ذلك جلياً في نظرتها للحضارة الغربية وفي نظرتها لما سواها من الحضارات، فهي ترى أن "طغيان وهيمنة الثقافة الغربية ليس أبدياً، وأن الحضارة القوية التي تستحق البقاء هي التي تحاور ولا تهيمن، وأن الحضارة الراكدة هي الحضارة التي لا تحاور، بل تستقبل كجهاز استقبال ليس إلاّ، ولكنّ القوة زائلة، ويُستبعَد أن تخلّف الحضارة الغربية مع عظم مكتسباتها وتعاليها في العراق وأفغانستان ما تركته الحضارة الإسلامية في الأندلس من آثار تشهد على سموها ورفعتها، وعليه فإن تعميق الحوار الحضاري والبحث عن أبعاد جديدة في عالم منقسم على نفسه لا يكون إلاّ بالتفاعل الثقافي بدلاً من الهيمنة الثقافية، والاعتراف بمبدأ التعددية بدلاً من الهيمنة التي تضع في حسابها إسقاط وإلغاء كل الهويّات الأخرى، والكفّ عن العقلية التي لا ترى في الشرق إلا عالماً متخلفاً عليه تأمين مواد أولية وأسواق استهلاكية لعالم غربي يمتلك القوة والمعرفة ويتمتع بدرجات عالية من الرفاهية"([3]).

---

[1] مثل الكاتب والمفكر نعوم تشومسكي الذي سبقت ترجمته (انظر: ص١٤٣ من البحث)

[2] الحضارة بين الحوار والصراع في عصر العولمة، محمود حسينات، ص٨، دار الفكر، سوريا، ٢٠٠٨م.

[3] الحضارة بين الحوار والصراع في عصر العولمة، ص٩.

وعليه وفي حال أصبحت هذه الرؤية هي الرؤية الرسمية التي ينظر فيها الغرب للشرق، فإن هذه الرؤية تحمل معها إمكانية علاقة تصالحية بين الغرب والإسلام، وفي هذه الحالة فإن العلاقة بين الإسلام والغرب، ستكون نقطة الانطلاق لها كل النصوص الشرعية التي تحدد العلاقة مع المسالمين من أهل الكتاب، والتي يمكن التمثيل عليها في الآتي:

القرآن الكريم:

١–قال تعالى:﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الممتحنة: ٨،٩).

٢–قال تعالى:﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾(البقرة:١٩٠)

٣– قال تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ ﴾ (النساء:٩٠).

٤–قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ البقرة: ٢٠٨,

٥–قال تعالى:﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ ﴾ النساء: ٩٠

السنة النبوية:

١–قال النبي ﷺ: "اتركوا الحبشة ما تركوكم..."([1]).

٢– كان سهل بن حنيفﷺ وقيس بن سعدﷺ قاعدين بالقادسية، فمروا عليهما بجنازة، فقاما، فقيل لهما: إنها من أهل الأرض أي من أهل الذمة فقالا إن النبي ﷺ مرت به جنازة فقام فقيل له: إنها جنازة يهودي! فقال: أليست نفساً؟!([2]).

٣– كان رسول الله ﷺإذا بعث أميرا على جيش، أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً، فقال: اغزو بسم الله وفي سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا([3]).

---

[1] سنن أبي داوود، كتاب التفسير، باب: ذكر الحبشة، حديث رقم: ١٧٠١.

[2] صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب: نسخ القيام للجنازة، حديث رقم: ٩٦١.

[3] سنن الترمذي، كتاب الجهاد، باب: النهي عن المثلة، حديث رقم: ١٤٠٣. صححه الألباني.

٤- عن ابن عمر ﵄، قال وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان([1]).

والمتأمل في الحالة السائدة في العالم اليوم، لا يستطيع أن يركن إلى التفاؤل، لأن الغرب لازال محافظاً على عنجهيته، يبدو ذلك في وسائل الإعلام التي تبث أشياءً تبعث على تأجيج حالة الصراع بين الطرفين، ناهيك عن السياسة الغربية التي تُثبت كل يوم عن رغباتها الشريرة، وأطماعها في العالم الإسلامي، وعليه فإن المستقبل الذي يلوح في الأفق، يبدو قاتم الأجواء، قال تعالى:﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ ﴾ البقرة: ٢١٧.

المطلب الثاني: مواجهة مخطط الغرب في التخويف من الإسلام

أولاً: واجب الدعاة والعلماء

الإسلام هو الشريعة الخاتمة التي ارتضاها الله عزوجل للبشرية، فكل شرائع الأنبياء السابقة كانت خاصة بأقوام معينين، لظروف خاصة ومؤقتة تتعلق بهم، بينما رسالة الإسلام جاءت للعالم بأسره ولكل الأزمان، قال تعالى:﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ (الإسراء: ١٠٥) قال ابن كثير رحمه الله: "إلا مُبَشِّرًا لمن أطاعك من المؤمنين، وَنَذِيرًا لمن عصاك من الكافرين كافة"([2]) وفي الحديث: "أُعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي...، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة"([3]).

ولأن محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء، فإن الله عزوجل تكفل بمَن يحفظ لهذه الأمة دينها من شبهات الحاقدين والمبتدعين ومن الأعداء الكافرين، وهؤلاء هم العلماء الذين قال النبيﷺ مبشراً بهم: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها"([4]) وقالﷺ أيضاً: "-، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين"([5]).

يقول الشيخ يوسف القرضاوي معلقاً على هذين الحديثين: "الله عزوجل يريد أن يرسل رسالة إلى أتباع هذه الدنيا مفادها أن هذا الدين لن يموت، وأن الله يقيض لهذه الأمة كل فترة زمنية من يجدد فهمها وأفكارها نحو هذا الدين ، وأن الله عز وجل لن يدع هذه الأمة تتيه بعد وفاة رسولها ﷺ، فقد قرر عز وجل أن يرسل لهذه الأمة من يوقظها من سبات ، ويجمعها من شتات،

---

[1] صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب: قتل الصبيان في الحرب، حديث رقم: ٣٠١٥.

[2] تفسير القرآن العظيم، جـ٥، ص١٢٧.

[3] صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب التيمم، حديث رقم: ٣٣٥.

[4] صحيح أبو داوود، كتاب الملاحم، حديث رقم: ٣٧٤٠، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم: ٥٩٩.

[5] مشكاة المصابيح، محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، كتاب العلم، حديث رقم: ٢٤٨، الطبعة الأولى، دار المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

وينصرها من هزيمة، ويحررها من طغيان، وبالتالي فإن هذا الحديث الجليل يقف ضد موجة اليأس والانهزام والقنوط؛ التي يبثها المثبطون والمعوقون؛ الذين يوحون إلى الناس بأن الإسلام في إدبار والكفر في إقبال وأنه لا فائدة و لا أمل في التمكين للمسلمين في الأرض، كما مكَّن الله الرعيل الأول من أتباع محمدﷺ ([1]).

والتاريخ الإسلامي يثبت أن العلماء كان لهم دور كبير في الحياة الإسلامية، فما من حقبة تاريخية للأمة الإسلامية إلا وكان لعلماء الإسلام أكبر الأثر فيها، سواءً على صعيد توعية الجماهير، أو على صعيد النصح للحكام وأولي الأمر، وهذا يأتي منسجماً مع فهم العلماء لدورهم المفترض تجاه قضايا الأمة، فعن جرير بن عبد الله ﷺ أنه قال: "بايعت النبي ﷺ على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم"([2]).

والتاريخ شاهد على مواقف العلماء الربانيين تجاه قضايا عصرهم، واليوم هناك قضايا عصرية للمسلمين الأصل بأن يتخذ العلماء إزاءها موقفاً.

"فلقد عهد الإسلام إلى العلماء بتقويم أود الأمراء، وكان قديماً في الدول الإسلامية الفاضلة بمثابة المجالس النيابية في هذا العصر، يسيطرون على الأمة، ويسددون خطوات الملك، ويرفعون أصواتهم عند طغيان الدولة، ويهيبون بالخليفة فمن بعده إلى الصواب"([3]).

فإذا كانت هذه الأمة تُبتلي اليوم، وتحارب من كافة النواحي، فالأصل أن يتخذ العلماء مواقف على حجم هذه الابتلاءات والرزايا، على كافة الصعد وعلى جميع النواحي، ويمكن إجمال جملة من هذه المواقف في التالي:

١- بث الوعي في عقول الجماهير

والهدف من ذلك إظهار حجم الأخطار والمؤامرات الخارجية التي تتعرض لها الأمة، ففي اللحظة التي تتعرض فيها الأمة الإسلامية لهذا الكم الهائل من الإساءات، نجد أن كثير من أبناء المسلمين يهيمون بقضايا ليست لها علاقة بتاتاً بقضايا الأمة المصيرية.

ويُساعد على ذلك جملة من الأسباب، لعل من أهمها وسائل الإعلام العربي من محطات إذاعية وتلفزيونية تغرق بتافهات الأمور، من مسلسلات وأغاني وبرامج سفور، وتتناسى الهموم الإسلامية العامة، يقول الشيخ ابن باز –رحمه الله– : "أما عن مجابهة الغزو المتمثل بالإذاعات والكتب والصحف والأقلام التي ابتليت بها المجتمعات الإسلامية في هذا العصر وأخذت تشغل أكثر

---

[1] انظر: من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا، يوسف القرضاوي، ص١٣، الطبعة الأولى، دار الشروق للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

[2] صحيح البخاري، كتاب: النصيحة، باب: فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم: ٥٧.

[3] لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم، ص٧٦.

أوقات المرء المسلم والمرأة المسلمة رغم ما تشتمل عليه في أكثر الأحيان من السم الزعاف والدعاية المضللة فهي من أهم الواجبات لحماية الإسلام"([1]).

فإذا كان تلامذة التغريب يدأبون على طرح قضاياهم، ويجدون في وسائل العصر الحديثة مجالاً لأن يسوقوا بضاعتهم الفاسدة، فما الذي يمنع العلماء والدعاة أن يطوروا آلياتهم، وأن يستفيدوا من الوسائل العصرية لتحقيق ذلك، والمتأمل في الواقع الإعلامي للعالم العربي اليوم، يجد أن هناك محطات تلفزيونية وإذاعية ذات طابع ديني، لكن يجد أن عدد المحطات اللادينية أكثر، يجد أن هناك مجلات وجرائد إسلامية، لكن يجد أن تعداد المجلات والجرائد اللادينية أكثر.

وواجب العلماء أن ينهضوا بهذا الدور، مستفيدين من مكانتهم في نفوس الناس، فإذا كان اللادينيون قد وجدوا في مؤسسات المجتمع المدني مصادر للتمويل، لتمويل برامجهم الداعية لنبذ الدين، فلن يُعدم العلماء والدعاة مَن يمول مشاريع الفكر الإسلامي المستنير، من أبناء الأمة المخلصين.

ومن خلال هذه الوسائل العصرية يستطيع الدعاة نقل الصورة الحقيقية للدين، ويستطيعون مجابهة الأفكار الهدامة التي تهدف إلى تضييع هوية الأمة.

٢- الاهتمام بالمشاكل الواقعية المعاصرة

وإذا كنا نقول بأنه يجب على العلماء أن يبثوا الوعي في الجماهير، فإن هذا لا يتأتى إلا إذا سَلَّط العلماء الضوء على القضايا العصرية الواقعية التي تؤرق الأمة وتشغل بالها.

والحقيقة أن هناك كثير من القضايا المتراكمة، التي تدمي الأمة، وينجم عنها الواقع المأزوم الذي تحياه الأمة، مثل: قضايا التعليم والبحث العلمي، والقضايا الاقتصادية كالبطالة والفقر وضعف مستوى التنمية، وتردي الأحوال السياسية بما يُصاحب ذلك من استبداد وخنق للحريات، ناهيك عن تبصير الأمة بأسباب ترديها وانحدارها إلى ما آلت إليه من أوضاع، وتبيان حجم الهجمة الشرسة التي تتعرض لها الأمة اليوم من قبل أعداء الإسلام والدين.

والمتأمل في واقع الدعوة الإسلامية اليوم يجد أن المؤلفات والمسموعات التي تتناول القضايا الخلافية التي تفرق الأمة حجمها كبير إذا ما قورنت بحجم مثيلتها من المؤلفات والمسموعات التي تتناول القضايا التي تشغل بال المسلمين اليوم، يقول الشيخ محمد الغزالي: "والمطلوب من الدعاة الراشدين أن يدركوا الأمة من الداخل، ويوقفوا حركة التمزيق الفكري والروحي الوافدة من الخارج، وذلك يفرض علينا إحياء الإخاء الديني، وتنشيط عواطف الحب في الله، واختصار

---

[1] مجموعة فتاوى ومقالات وفتاوى لابن باز، ابن باز، جـ١، ص٣٩٢، الطبعة الثانية، دار المكتب الإسلامي، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

المسافات أو ردم الفجوات التي تفصل بين المنتسبين إلى الإسلام"([1]) وهذه من ضمن الإشكاليات الحقيقية، إذ يدأب كثير من العلماء أو الدعاة على طرح قضايا خلافية يتم اجترارها من التاريخ، وطرحها وعرضها على الناس وكأنها قضايا الساعة.

فالناظر في مؤلفات العلماء في القرن المنصرم، قد يجد أن المؤلفات التي خُصِصَّت من أجل قضية بحجم قضية فلسطين مثلا، أقل عدداً من المؤلفات التي تناولت مسائل الفرق كالأشاعرة والماتريدية والمعتزلة، والخطورة هنا، أن الانشغال بمثل هذه القضايا والتركيز عليها بصورة مبالغ فيها، يصيب المنتسبين للدعوة الإسلامية بحالة من العزلة، العزلة عن قضايا الأمة، وهذا يكون مؤداه انعزال من الجماهير وبالتالي إعراض أو تطرف في الاتجاه المضاد.

ولو انشغل الدعاة بقضايا الأمة الواقعية، وسلطوا الضوء عليها وفق رؤية مستنيرة، وتحدثوا عن مشاكل الناس المتعلقة بدينهم ودنياهم، لوجدوا إقبالاً أكبر من الناس، والأهم لنجم عن اهتمامهم تأثيرات إيجابية أكبر على الأمة على كافة النواحي والأصعدة، يقول الشيخ الغزالي: "فلنتأمل في ذاتنا نحن المسلمين، إننا نزيد على ألف مليون من البشر، ونسكن أرضاً تمتد بين المحيطين الأطلسي والهادي، وتحتوي على معاقل الممرات العالمية، ونملك ثلث ثروات العالم السائلة والجامدة، وهذه إمكانات تجعل منا أمةً طليعة لا أمةً ذنبا، وقد كان سلفنا أقل عددا، وأفقر مالاً ويحيا على أرضٍ قفرة معزولة عن الحضارات الإنسانية الكبرى، فكيف نجح وساد على حين أفقنا وتخلفنا"([2]).

٣- الفهم الصحيح للدين

واجب العلماء أن يصححوا كثير من المفاهيم الخاطئة والسائدة للدين، خاصةً إن نتج عن تطرف الفرق اللادينية، تطرفٌ في الاتجاه المضاد، فإذا كان هؤلاء أمعنوا في التحلل من الدين والتنكر له، فقد نشأت ناشئة محسوبة على الإسلاميين صفتها الغلو وسمتها التشدد، وقد قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴿١٤٣﴾ ﴾ (البقرة: ١٤٣).

هذه الفئة وكأنها جاءت كرد فعل على تغوُّل الحكومات العلمانية الظالمة، التي جابهت الدعاة والمصلحين بالظلم والاستبداد، وسامتهم بالأذى والعذاب.

وهنا تظهر استثنائية الإمام الشهيد حسن البنا، عندما جعل الفهم مقدماً على الإخلاص في أركان البيعة العشرة لدعوة الإخوان المسلمين، يقول الإمام الشهيد:" أيها الإخوان الصادقون: أركان بيعتنا عشر فاحفظوها: الفهم و الإخلاص و العمل و الجهاد و التضحية و الطاعة و الثبات و

---

[1] هموم داعية، محمد الغزالي، ص١٧، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٩٥م.

[2] المرجع السابق، ص١٠.

التجرد و الأخوَّة و الثقة"([1]) ومن ثم يضيف: "إنما أريد بالفهم : أن توقن بأن فكرتنا إسلامية صميمة و أن تفهم الإسلام كما نفهمه"([2]).

والفهم بداهةً مقدم على الإخلاص، لأن الفهم السيئ للفكرة قد يسيء إليها حتى وإن كان المنتمي إليها من أشد المخلصين، وفي التاريخ نماذج تؤكد ذلك، فالخوارج الذين خرجوا على المسلمين بالسيف، فاستباحوا دماءهم بعد أن كفروهم، كان يتصفون بالتدين الشديد، كانوا أهل صوم وقيام، وأهل تعبد وتهجد، وعلى الرغم من ذلك، فقد حذر النبي ﷺ منهم، ففي الحديث "أن رجل كث اللحية، مشرف الوجنتين، غائر العينين، ناتئ الجبين، محلوق الرأس، جاء للنبيﷺ فقال: اتق الله يا محمد ! قال: فقال رسول الله ﷺ: "فمن يطع الله إن عصيته ؟ ! أيأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني ؟ !". قال: ثم أدبر الرجل، فاستأذن رجل من القوم في قتله فقال رسول الله ﷺ: "إن من ضئضئ هذا قومًا يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد"([3]).

فالواجب على العلماء بث الفكر الإسلامي الصحيح، النقي والمبرأ من الشوائب، شوائب التطرف والتنطع في الدين.

٤- رد الشبهات

إذ لم يخلُ عصر من شبهات يُرمى بها الإسلام، ومن علماء يذبون عن بيضته، وذلك من ضمن الواجبات المناطة بالعلماء، والمتأمل في سيَّر العلماء السابقين، يجد أن الأعلام الشامخة منهم لم تنل مكانتها في نفوس الناس، إلا بعد مواقف لهم مشهورة ضد الشبه التي يطلقها أعداء الإسلام عبر العصور.

فشيخ الإسلام ابن تيمية تصدى لشبهات عصره المتعلقة بأسماء الله وصفاته العلى، وهذا ما كلفه الدخول إلى السجن لأن المناخ الحاكم كان في ذلك الوقت أشعري الهوى، كما أن سجنه وإبعاده لم يمنعه أن يتصدى للرفض والتشيع وشبهاته، فكتب كتابه الماتع منهاج السنة النبوية في الرد على الشيعة والقدرية رداً على أحد علماء الشيعة.

وكذا العز بن عبد السلام كان له دورٌ كبير في إثارة الحماسة لدى جيوش المسلمين ضد التتار والمغول.

واليوم يُصيب الإسلام ما يصيبه من مصائب وبلاوى، إذ تُحتل بلاد المسلمين، ويُساء النظر إلى الإسلام، وتُشوه صورته، دون أن يستثير ذلك إلا نزر يسير من علماء الأمة.

---

[1] الرسائل، ص٢٥٣.

[2] المرجع السابق، ص٢٥٣.

[3] صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب إثم من رفع رأسه قبل الإمام، حديث رقم: ٦٩٣.

ومن أبرز الشبهات التي يُرمى بها الإسلام في عصرنا، هي وسمه بأنه دين العنف، وأنه دين لا يتصف بالتسامح، ففي رحابه تُظلم الأقليات غير المسلمة، وتتعرض المرأة للظلم وللإجحاف[1].

والمتأمل في كتابات العلماء المعاصرين يستشعر أن جمعاً كبيراً من علمائنا وكأنهم لا يحيون واقعنا ولا يعيشون معاناتنا، لأن كتاباتهم غالباً ما تجنح نحو مشاكل ونزاعات ولى وانتهى زمانها، فحجم الكتابات عن الشيعة لا يقارن بحجمها عن اليهود، وحجم الكتابات عن المعتزلة والخوارج والماتوريدية أكبر بكثير من الكتابات عن القضايا المعاصرة مثل التغريب ووسائله المعاصرة، وإن جاءت هذه الكتابات فإنها في الأغلب تكون كتابات بعيدة نسبياً عن الواقع الحقيقي لهذه الوسائل.

٥- نصح الحكام

ودين الإسلام قائم على النصح، قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴿١١٠﴾ ﴾ (آل عمران: ١١٠).

والعلاقة التي يرسمها الإسلام بين العلماء والحكام قائمة على السمع والطاعة من قبل العلماء والإصغاء للنصيحة من ناحية الحكام، لأن العلماء يملكون من القدرات والإمكانات ما يؤهلهم لأن يروا أشياء قد يعجز الحكام والسياسيون عن رؤيتها، لكن هناك جملة من الشروط يجب مراعاتها عند إسداء النصيحة يمكن الإشارة إليها في الآتي:

- الإخلاص لله تعالى فيها ، وابتغاء الخير للإسلام والمسلمين.
- أن تكون النصيحة سراً إلا إذا كان المنصوح مجاهراً بالفسق أو البدعة يدعو الناس إليها أو تقتدي به الناس في بدعته أو فسقه فيمكن أن ينصح علناً من باب تحذير.
- أن يسلك الناصح أفضل الوسائل التي يرجى معها استجابة المنصوح، دون استثارة الحكام أو تأجيج دوافع الغل والعصبية عندهم.

ثانياً: واجب الحكومات المسلمة

عند الحديث عن واجب الحكومات المسلمة تجاه التصدي للمخططات الغربية التي تبتغي النيل من الإسلام، فإن هذا يضطرنا إلى النظر في طبيعة الحكم الإسلامي الذي يرتضيه الله عزوجل،

[1] انظر: ص١٤٨-١٥٠.

وهو نظام الخلافة الإسلامية، التي عرفها الإمام الماوردي –رحمه الله–([1]) على أنها "موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا"([2]).

وعليه فهناك واجبات منوطة بالحاكم المسلم أو الحكومة المسلمة، فعلى الخليفة واجبات شرعية كثيرة كغيره من المسلمين، ولكن هناك واجبات خاصة به بمقتضى ما تكلفه من قيامه بهذا الأمر، وخلاصتها الحفاظ على الدين وحراسته، وتحقيق مصالح المسلمين الشرعية والدنيوية ودرء المفاسد عنهم، ويمكن إجمال واجبات الخليفة وبالتالي واجبات الحكومة في القضايا المتعلقة بمطلبنا هنا بالتالي([3]):

– حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة.

– تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة؛ حتى لا تظفر الأعداء بغرة ينتهكون فيها محرماً.

– جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة.

– استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوِّض إليهم من الأعمال ويكله إليهم من الأموال.

– أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال؛ لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعوِّل على التفويض تشاغلاً بلذة أو عبادة، فقد يخون الأمين ويغش الناصح.

وهذه الواجبات التي أناطها الشرع بالحاكم، وحمله مسؤولية أدائها، قد تختلف وسائلها من عصر إلى عصر، ومن زمان إلى زمان، لكن تبقى الغاية منها ثابتة، وهي الحفاظ على الإسلام، والتصدي لكل الحاقدين الراغبين في إزالته من الوجود.

فهناك جملة من الواجبات التي لا يمكن الاستغناء عنها في هذا العصر، ويمكن إجمالها في التالي:

---

[1] علي بن محمد حبيب، أبو الحسن الماوردي: أقضى قضاة عصره، من العلماء الباحثين، أصحاب التصانيف الكثيرة النافعة، ولد في البصرة، وانتقل إلى بغداد. وولي القضاء في بلدان كثيرة، ثم جعل " أقضى القضاة " في أيام القائم بأمر الله العباسي. وكان يميل إلى مذهب الاعتزال، وله المكانة الرفيعة عند الخلفاء، وربما توسط بينهم وبين الملوك وكبار الأمراء في ما يصلح به خللا أو يزيل خلافا. (الأعلام للزركلي، ج٤، ص٣٢٨).

[2] الأحكام السلطانية، علي بن محمد بن حبيب الماوردي، ص٢٤، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٤١٥هـ– ١٩٩٥م.

[3] انظر: المرجع السابق، ص١٧–١٨. وغياث الأمم عند التياث الظلم الغياثي، أبو المعالي الجويني، ص٣٧، تحقيق: مصطفى حلمي وفؤاد عبد المنعم أحمد، الطبعة الثالثة، دار نهضة مصر، جمهورية مصر العربية، ١٤٠٩هـ–١٩٨٩م. ونظام الحكم في الإسلام، تقي الدين النبهاني وعبد القديم زلوم، ص١٩، الطبعة السادسة، منشورات حزب التحرير، ١٤٢٢هـ–٢٠٠٢م.

١- إعداد المسلمين على كافة الأصعدة

وهذا يندرج تحت قوله تعالى:﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (الأنفال: ٦٠).

والجزء الأول من الآية واضح في دلالته على ضرورة تكفل الخليفة وبالتالي الدولة بالإعداد على الصعيد العسكري، لتصبح الدولة الإسلامية مرهوبة الجانب، يُعمل لها ألف حساب، وهذه من ضمن الواجبات التي قصَّرت بها الحكومات العربية والإسلامية اليوم أيما تقصير، وعانى المسلمون بسبب هذا التقصير معاناة كبيرة، فالواجب أن تتحصن الدولة الإسلامية بكل أنواع القوى المعاصرة، وأن تتدرع بشتى السبل والوسائل المادية التي تحفظ لها هيبتها وتمنحها قوة ردع أمام قوى الاستكبار.

والجزء الثاني من الآية لا يقل أهمية، لأن لفظ الآية "وأعدوا" لفظ عام يشمل جميع أنواع الإعداد على كافة الأصعدة، وإذا كانت الآية تقول﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ فإن القوة المتمثلة تعني في عصرنا وسائل أخرى، والأهم من ذلك أن الآية استخدمت واو العطف التي تقتضي المغايرة عند أهل الأصول([1])، وعليه فالقوة المطلوب إعدادها لا تتوقف على الجانب العسكري المادي فقط، بل تتناول كل الجوانب الأخرى التي تكفل أن يحيا المسلمون في ظل دولة لها إسهاماتها على الصعيد المعنوي أو الحضاري أيضاً، فلابد أن تهتم الدولة بقضايا الحياة الأخرى، مثل البحث العلمي ووسائل التكنولوجيا المعاصرة، لأن المتتبع لأحوال الدول في واقعنا المعاصر، يكتشف أن القوة اليوم أصبحت لا تقتصر على قوة القنبلة والصاروخ فقط، بل قوة الاقتصاد والثقافة أيضاً.

٢- توفير الحريات

المتتبع لحركة التاريخ يكتشف مباشرة أن القهر والاستبداد هو عدو التقدم والرقي لأي دولة أو حضارة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن الله لينصر الدولة الكافرة العادلة على الدولة المسلمة

[1] انظر: إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: لشيخ أحمد عزو عناية، جـ١، ص ٣٤٤، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

الظالمة"([1]) وهذا ما ينسجم تماماً مع قول ول ديورانت عندما قال: "والحضارة بمعنى رقي الأمم تبدأ حيثما يبدأ الأمن، تبدأ حيثما ينتهي الخوف"([2]).

وفي عهود الإسلام الأولى، عندما كانت الحريات واقعاً مجسداً، أفلح المسلمون في امتطاء ركب التقدم والرقي، وعندما تخلص الغرب من سيطرة القياصرة ومن استعبادهم للناس، أفلح الغرب أيضاً، واليوم في بلاد المسلمين لن يكون هناك نهضة حقيقية، ولن يستعيد المسلمون مكانتهم وقدرتهم إلا إذا مُنِح العلماء الربانيون المخلصون حرياتهم، وإذا فُتِحت الأبواب أمام إسهاماتهم الفكرية واجتهاداتهم، إذا فتحت أبواب الفضائيات ودور النشر أمامهم، وإذا لم توصد أمامهم كل سبل تبليغ دعوة الإسلام والإيمان.

فواقع العلماء الربانيين اليوم يندى له الجبين، إذ لا يقف الغرب أمام قدرتهم لنقل صورة الإسلام الصحيحة للغرب، بل تتكفل أنظمة القهر والاستبداد بإلحاق الأذى بهم، وتضييق الخناق عليهم.

٣- توفير سبل الدعوة إلى الله

اليوم تُنفق الحكومات الأموال الطائلة على برامج السفور، على الأفلام والمسلسلات وأدب الفراش، وكل ما من شأنه أن يسيء للإسلام ولثوابته، فماذا لو أنفقت هذه الأموال على برامج الغايات النبيلة، ماذا لو أنفقت على طلبة العلم، وعلى البرامج التي تخدم الأهداف النبيلة للأمة الإسلامية، إذ لا بد من برامج فكرية وتربوية تسعى إلى تحصين الشعوب العربية والإسلامية لمواجهة النزعة الاستعلائية التي تمكنت من الغرب وتأصلت في بنات أفكاره، لأن المخاطر المحدقة بالثقافة والحضارة والأرض العربية والإسلامية كبيرة، وما ينتظر الأنظمة العربية السياسية، والحركات الإسلامية في العالمين العربي والإسلامي، أكبر بكثير مما هو متوقع، كنتيجة لهذه النزعة الاستعلائية الغربية، إن هذا يجعل من مسألة مواجهة هذه الظاهرة ضرورة لا مناص منها، تستوجب التحسب الدقيق والمكثف لتحدياتها وانعكاساتها وتأثيراتها الآنية والمستقبلية أيضاً، ومبعث هذا التحسب يتأتى عن طبيعة القوى التي تقف وراءها ومعاداتها الصريحة والعلنية للأمة العربية والإسلامية([3]).

هذا على صعيد الدعاة المتواجدين في داخل الدول العربية والإسلامية، وهناك ساحة أخرى للدعوة تهملها الحكومات، ويقصر فيها الدعاة، هي ساحة الأقليات الإسلامية في الغرب، إذ

---

[1] مجموعة فتاوى شيخ الإسلام، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: أنور الباز وعامر الجزار، جـ٢٨، ص٦٣، الطبعة الثانية، دار الوفاء للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

[2] قصة الحضارة، جـ١، ص١٠.

[3] انظر: النزعة الاستعلائية في الفكر الغربي، محمد عواض هزايمة، ص١٢٦، الطبعة الأولى، دار الرسالة للنشر والتوزيع، سوريا، ٢٠١٠م.

يمكن استثمار هذه الساحة لمصلحة الدعوة الإسلامية، وفي نقل الصورة اللائقة للإسلام والمسلمين، والإشكالية هنا أن كثير من الأعمال التي يقوم بها المسلمون المتواجدون هناك، جهود فردية، لا تجد الداعم الحقيقي لها، ولا تجد من يتبنى رؤية دعوية استراتيجية لها([1]).

الخاتمة

وتشمل على أهم النتائج والتوصيات

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه جملة من النتائج والتوصيات التي توصل إليها الباحث وخلص إليها من خلال هذه الدراسة وهي على النحو التالي:.

أولاً: النتائج

١-يتعرض العالم الإسلامي إلى حملة غربية تستهدف القضاء على دوره الرسالي الذي ارتضاه رب العالمين للبشرية بصورة عامة، والمسلمين بصورة خاصة.

٢-الحملة الغربية ضد الإسلام والمسلمين ليست وليدة اللحظة الراهنة، بل هي امتداد للحملات الصليبية القديمة، ولجهود المستشرقين.

٣-الإسلام حدد علاقتنا بأهل الكتاب تحديداً تفصيلياً، وذلك عبر آي القرآن، والأحاديث النبوية، وسيرة السلف.

٤-أهل الكتاب ليسوا سواءً، فمنهم المحاربون الذين جاءت الأحكام الشرعية منددة بهم، وآمرة بقتالهم، وهناك المسالمون الذين جاءت الأحكام الشرعية آمرة بالإحسان إليهم.

٥-تقف جملة من الأسباب والدوافع وراء الحملة العدائية الغربية ضد الإسلام، من هذه الأسباب ما يعود إلى ذاتية الإسلام، ومنها ما يعود إلى البعد التاريخي، منها ما يعود إلى الغرب نفسه.

٦-يستخدم الغرب في حربه ضد الإسلام وسائل قديمة مثل التغريب والاستشراق والاستعمار.

٧-لم يكتفِ الغرب بأساليبه القديمة لمحاربة الإسلام، بل ضم إليها أساليب مُحدَثة كمؤسسات المجتمع المدني ووسائل الإعلام.

٨-يعاني الغرب من قدرة الإسلام على الانتشار السلمي في ربوعه، ولهذا يعمل جاهداً على نقل صورة مشوهة عن الإسلام ويطرحها أمام مواطنيه على أنها مسلمات.

٩-يخشى الغرب من الانفجار السكاني للمسلمين، في اللحظة التي يعاني هو فيها من خطر النضوب السكاني.

---

[1] انظر: الأقليات الإسلامية في أوروبا، سيد عبد المجيد بكر، ص٥٣، الطبعة الأولى، منشورات رابطة العالم الإسلامي، جمهورية مصر العربية، ١٩٩٥م.

١٠-للحكومات العربية دور كبير في محاربة الإسلام، وذلك من خلال التضييق على الثقات من أبناء العالم الإسلامي.

١١-ينظر الغرب إلى الإسلام على أنه الحضارة الأولى المرشحة لقيادة العالم في قادم العقود الزمنية.

١٢-يعمل الغرب على منع الإسلام من التمدد في رحابه، ويستخدم في ذلك جملة من الوسائل، منها إشاعة الافتراءات حول الإسلام، وحظر النقاب، وعدم الاعتراف بالإسلام كدين رسمي.

١٣-ينقسم الغرب حول نفسه إزاء التعامل مع المسلمين، فمن الغربيين من يؤمن بنظرية صراد الحضارات، ومنهم من يؤمن بنظرية الحوار منها، لكن السلوك العام لدى الغربيين ينذر أن الغرب يميل إلى الصدام مع اختلاف في الوسائل والأساليب.

١٤-يبدو مستقبل العلاقة بين الإسلام والغرب قاتماً، لأن الغرب لازال أسيراً للنظرة المستريبة والمتشككة من الإسلام.

التوصيات:

١-ضرورة البحث في المسائل المتعلقة بالتنازع الحضاري، فإذا كان الغرب يدرس الإسلام والمسلمين، فالأولى بالمسلمين أن يدرسوا الغرب، مواطن القوة والقصور التي تعتريه.

٢-الاهتمام بالأقليات المسلمة في الغرب، ومد يد العون لها فكرياً ومالياً، لأنها من الممكن أن تسهم بشكل كبير بنقل صورة لائقة عن الإسلام والمسلمين.

٣-الاهتمام بالأبحاث والدراسات التي تتعلق بالقضايا العصرية والمصيرية للأمة الإسلامية.

وأخيراً فهذا جهد المقل، فما كان فيه من خير فهو بتوفيق الله عزوجل، وما كان فيه من خلل أو زلل فهو من نفسي والشيطان، والله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم منه براء، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفهارس العامة

١_ فهرس الآيات القرآنية

٢_ فهرس الأحاديث النبوية

٣_ فهرس الأعلام المترجم لهم

٤_ فهرس المصادر والمراجع

أولاً: فهرس الآيات القرآنية([1])

الآية	السورة	الآية	رقم الصفحة
وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ	البقرة	١٢٠	٩
مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ	البقرة	١٠٥	٩
وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ	البقرة	١٠٩	١٠
ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ	البقرة	١٤٦	٤١
وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا	البقرة	١٤٣	٤١
لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ	آل عمران	٧٥	٩
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾	آل عمران	١٠٢	١٢٥
فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ	آل عمران	١٩٥	١٣٤
أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا	النساء	٨٢	٢٨
وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ	النساء	٣	٤٣
يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ	النساء	١١	٤٩
فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ	النساء	٩٠	٨٧
وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ	المائدة	٤٩	٢٩
يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ	المائدة	٤٢	٤٣
وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ	المائدة	٤٤	١١٥
ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ	الأنعام	٢٠	١١
قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ	الأنعام	١٦١	٢٨
قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ	الأنعام	١٦١	٢٨

[1] مرتبة حسب ورودها في القرآن

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ	الأعراف	١٥٨	٣٣
قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ	الأعراف	١٥	٣٥
وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ	الأعراف	١٠	٨٠
قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا	الأعراف	١٥٨	٣٥
يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ	الأعراف	١٥٧	٤١
فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ	التوبة	٥	٨٤
وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟	التوبة	٣٢	٦١
انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ الله	التوبة	٤١	٨٢
فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ	التوبة	٣٦	٨٤
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ	يونس	٥٧	٢٤
وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ	يونس	٩٩	٧٤
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ	يونس	٥٧	٢٨
وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ	هود	٦١	١٠١
إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ	يوسف	٤٠	١٢١
إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ	الحجر	٩	٢٨
فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ	النحل	٨٢	١٤٩
وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ	الإسراء	٧٠	٣١
وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ	الإسراء	٧٠	٣١
وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ	الإسراء	٣١	٧٨
وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ	الإسراء	١٠٥	١٧٢
وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن	الكهف	٢٩	١٤٦
وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ	الأنبياء	١٠٧	٣٥
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ	الحج	١١	٤١
أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ	الحج	٤٠	١٤٧

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ	الفرقان	١	١٠
وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ	الفرقان	٧	٣٤
غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ	الروم	٢–٣	٦
وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ	لقمان	١٤	٨١
يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ	الأحزاب	٧١	٥٤
إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ	الأحزاب	٣٥	١٣٤
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ	فاطر	١	٥٢
رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ	الصافات	١٠٠	٨٩
وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا	فصلت	١٠	٧٩
لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ	الشورى	١١	٤٢
إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ	الزخرف	٢٢	٤٢
إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ	الفتح	٢٦	١٢٦
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ	الحجرات	١٣	١٣٦–١٤٥
وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ	الذاريات	٥٦	١٣٩
وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ	الحديد	٢٧	٦٥
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ	الانشقاق	٦	٣٦

ثانيًا: فهرس الأحاديث النبوية

ثالثًا: فهرس الرواة المترجم لهم[1]

[1] مرتبة حسب الحروف الهجائية.

فهرس المصادر والمراجع

*القرآن الكريم

١. أَجْنِحَةُ المَكْرِ الثَّلَاثَةْ وَخوافيهَا، التبشير – الاستِشراق – الاستِعمار، عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني، الطبعة الثامنة، دار القلم، سوريا، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٢. أحكام الحرب في الإسلام وخصائصها الإنسانية، الطبعة الأولى، دار المكتب للنشر والتوزيع، سوريا، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٣. أحكام الذميين والمستأمنين، عبد الكريم زيدان، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٢م-١٤٠٢هـ.

٤. أحكام أهل الذمة، ابن القيم الجوزية، تحقيق: يوسف البكري وشاكر العاروري، دار رمادي للنشر، الطبعة الأولى، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٧م- ١٤١٨هـ.

٥. إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: لشيخ أحمد عزو عناية، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

٦. الإرهاب الغربي، روجيه جارودي، ترجمة: داليا الطوخي وناهد عبد الحميد وسامي مندور، الطبعة الأولى، دار الشروق للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

٧. الإرهاب مظاهره وأشكاله وفقا للاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب، محمد الحسيني مصلحي، الطبعة الأولى، دار ميريت لمكتبة الأسرة، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٢م.

٨. أسباب النزول، الإمام السيوطي، تحقيق: حامد أحمد الطاهر، دار الفجر للتراث، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٢م-١٤٣٢هـ.

٩. الإستراتيجية الأمنية الدولية للولايات المتحدة الأمريكية، منشورات الخارجية الأمريكية، ٢٠٠٢م.

١٠. الاستشراق والدراسات الإسلامية، عبد القاهر داوود عبد الله، الطبعة الأولى، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

١١. الاستعمار أحقاد وأطماع، محمد الغزالي، الطبعة الأولى، دار نهضة مصر للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٧م.

١٢. الاستعمار ودوافعه الدينية، منقذ بن محمود السحار، بحث مخطوط، موقع أهل الحديث.

١٣. أسرار هجوم الغرب على الإسلام، عادل بن علي الشدي، الطبعة الأولى، دار الوطن للنشر والتوزيع، الرياض، ٢٠٠٨م.

١٤. الإسلام في الألفية الثالثة ديانة في صعود، مراد هوفمان، ترجمة: عادل المعلم ويس إبراهيم، الطبعة الأولى، دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٠م.

١٥. الإسلام والحضارة الغربية، محمد محمد حسين، الطبعة الأولى، دار الفرقان، االمملكة العربية السعودية، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

١٦. الإسلام والليبرالية الغربية، منذر عطا الله، الطبعة الأولى، دار النذير للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٩٩م.

١٧. الإسلام والمستشرقون، عبد الجليل شلبي، الطبعة الأولى، مكتبة الشعب للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٦٢م.

١٨. الإسلام ومشكلات الحضارة، سيد قطب، الطبعة السابعة، دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

١٩. الإسلام ومشكلات الحضارة، سيد قطب، الطبعة السابعة، دار الشروق، بيروت-١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

٢٠. الإسلام يتحدى... مدخل علمي للإيمان، وحيد الدين خان، ترجمة: ظفر الإسلام خان، الطبعة الأولى، دار المختار للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٩٦٦م.

٢١. الإسلاميون والقوميون جسور التلاقي وحواجز الخلاف، أحمد محمد كنعان، الطبعة الثانية، مكتبة الشروق للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٩٩٩م.

٢٢. الدين...بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، محمد عبد الله دراز، الطبعة الولى، دار القلم، الكويت، ١٩٦٦م.

٢٣. الإسلام والغرب: شقاق أم وفاق، نصر بن محمد الصنقري، الطبعة الأولى، دار الصدى للنشر، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠١٠م.

٢٤. إشكالية الخوف من الإسلام (Islamophobia) بين الرؤية الغربية والواقع الإسلامي، فائز صالح محمود اللهيبي، الطبعة الأولى، دار النهج للدراسات والنشر والتوزيع، حلب، سورية، ٢٠٠٩.

٢٥. إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

٢٦. أعداء الحل الإسلامي، يوسف القرضاوي، الطبعة الأولى، مكتبة وهبة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٢٧. الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، هيئة الأمم المتحدة، الطبعة الأولى، دار قرطاس للنشر، سوريا، ١٩٩٩م.

٢٨. الأعمال الشعرية والنثرية والسياسية الكاملة، نزار قباني، الطبعة الأولى، دار الهدى للنشر والتوزيع، سوريا، ١٤٢٠هـ-٢٠٠١م.

٢٩. الأقليات الإسلامية في أوروبا، سيد عبد المجيد بكر، ص٥٣، الطبعة الأولى، منشورات رابطة العالم الإسلامي، جمهورية مصر العربية، ١٩٩٥م.
٣٠. الأم، الإمام محمد بن ادريس الشافعي، تحقيق: رفعت فوزي عبد المطلب، الطبعة الثانية، دار الوفاء للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٤١٠هـ١٩٩٠م.
٣١. أمريكا طليعة الانحطاط، روجيه غارودي، تحقيق: عمرو زهيري، الطبعة الأولى، دار الشروق للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٦م.
٣٢. انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء، نبيل لوقا بباوى، الطبعة الأولى، باوى للنشر، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٨م.
٣٣. الإنسان ذلك المجهول، ألكسي كارل، ترجمة: عادل شفيق، الطبعة الثالثة، الدار المصرية العامة للكتاب، جمهورية مصر العربية، ١٩٨٠م.
٣٤. انظر: ردع الديمقراطية، نعوم تشومسكس، ترجمة: فاضل خيكر، الطبعة الأولى، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر، ١٩٩٣م.
٣٥. انظر، صدام الحضارات... محاولة للفهم...أبعاد وأسباب ومآلات العدوان الأمريكي على الأمة الإسلامية، عبد الرازق مقري، الطبعة الأولى، دار الكلمة، جمهورية مصر العربية، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
٣٦. أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، يوسف القرضاوي، الطبعة الرابعة عشرة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
٣٧. الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي، الطبعة الثالثة، دار وهبة للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٩٩٩م.
٣٨. البحوث العلمية، هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ.
٣٩. البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: علي شيري، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨م-١٤٠٨هـ.
٤٠. بلاط الشهداء بقيادة عبد الرحمن الغافقي، شوقي خليل، الطبعة الأولى، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.
٤١. البيان الشيوعي، كارل ماركس، فريديريك إنجلز، ترجمة: مجموعة مترجمين، الطبعة الخامسة عشر، دار الطليعة الجديدة، سوريا، ١٩٨٥م.
٤٢. النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، الطبعة الأولى، دار القلم، الكويت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
٤٣. تاريخ الأمم والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ.

٤٤. تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري أبو جعفر، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٨٧م-١٤٠٧هـ.
٤٥. تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، محمد المقداد، الطبعة الأولى، منشورات عالم المعرفة (١٦٧)، الكويت، ١٩٩٢م.
٤٦. تاريخ الرسل والملوك،محمد بن جرير الطبري أبو جعفر، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، دار المعارف للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.
٤٧. تاريخنا المفتى عليه، يوسف القرضاوي، الطبعة الأولى، دار الشروق، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٥م-١٤٢٥هـ.
٤٨. التبشير في منطقة الخليج العربي... دراسة في التاريخ الاجتماعي والسّياسي، عبد المالك خلف التّميمي، الطبعة الأولى، دار الشباب للنشر والترجمة والتوزيع، الكويت، ١٩٨٢م.
٤٩. التتار في التاريخ الإسلمي، محمود شلبي، الطبعة الأولى، دار وهبة للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٩٨٥م.
٥٠. تحديد النسل في ضوء الكتاب والسنة، رسالة دكتوراة مخطوطة، الطالبة: انتصار مطر الواوان، اشراف الدكتور: طارق الطواري، جامعة الكويت، كلية الدراسات العليا، برنامج الحديث الشريف، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
٥١. التطرف العلماني في مواجهة الإسلام... نموذج تركيا وتونس، يوسف القرضاوي، الطبعة الثالثة، دار الشروق، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٨م.
٥٢. التطور والثبات في تاريخ البشرية، محمد قطب، ص٩٥، الطبعة الأولى، دار الاعتصام، الكويت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
٥٣. التغريب أخطر التحديات في وجه الإسلام، الطبعة الثانية، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، جمهورية مصر العربية، ١٩٦٦م.
٥٤. تغطية الإسلام، ادوارد سعيد، ترجمة: محمد عناني، الطبعة الأولى، دار رؤية للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٥م.
٥٥. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، الطبعة الأولى، دار أخبار اليوم، دون تاريخ.
٥٦. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: حامد أحمد الطاهر، دار الفجر للتراث، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٢م-١٤٣٢هـ.
٥٧. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي الشافعي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م.
٥٨. تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، الطبعة الأولى، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، مصر، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٥٩. تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٠م.
٦٠. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، المؤلف: د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، الطبعة الثانية، دار الفكر المعاصر، سوريا، ١٤١٨هـ.
٦١. تقريب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد عوامة، ص١٩٨، الطبعة الأولى، دار الرشيد، سوريا، ١٤٠٥هـ
٦٢. التنصير ، تعريفه أهدافه وسائله حسرات المنصرين، عبد الرحمن بن عبد الله الصالح، الطبعة الأولى، دار الكتاب والسنة، المملكة العربية السعودية،١٤٢٠هـ–١٩٩٩م
٦٣. التنصير ، مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته، علي بن إبراهيم الحمد النملة، الطبعة الثانية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ.
٦٤. التنصير :مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته، علي بن إبراهيم الحمد النملة، الطبعة الثالثة، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٢٤هـ–٢٠٠٣م.
٦٥. التنصير :مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته، علي بن إبراهيم الحمد النملة، الطبعة الثالثة، مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر،١٤٢٤هـ.
٦٦. الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله، تحقيق: هشام سمير البخاري الطبعة الأولى، دار عالم الكتب، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ–٢٠٠٣م.
٦٧. جريدة القبس الكويتية، رئيس مجلس الإدارة: وليد عبد اللطيف النصف، تصدر في الكويت.
٦٨. جريدة روزاليوسف، رئيس مجلس الإدارة:محمد جمال الدين، تصدر في القاهرة.
٦٩. جسدي سلاحا... انتحار أم استشهاد، كريستوفر رويتر، ترجمة: فاطمة نصر، الطبعة الثانية، منشورات جمعية سطور، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٧م.
٧٠. جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، فايد حماد عاشور، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠١هـ–١٩٨١م.
٧١. جيل العمالقة والقمم الشوامخ في ضوء الإسلام، أنور الجندي، الطبعة الثالثة، دار وهبة للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٤١٠هـ–١٩٩٠م.
٧٢. الحرب الكونية الثالثة... عاصفة سبتمبر والسلام العالمي، السيد ياسين، الطبعة الثانية، دار ميريت لمكتبة الأسرة، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٣م.
٧٣. الحروب على الموارد... الجغرافيا الجديدة للنزاعات العالمية، مايكل كلير، ترجمة: عدنان حسن، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، ٢٠٠٢م.

٧٤. حصاد الغرور، محمد الغزالي، الطبعة الأولى، دار الشروق للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٤١١هـ-.١٩٩١م.

٧٥. الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل، علي بن نايف الشحود، الطبعة الأولى، دار الجيل، الرياض، ٢٠٠٠هـ.

٧٦. الحضارة بين الحوار والصراع في عصر العولمة، محمود حسينات، دار الفكر، سوريا، ٢٠٠٨م.

٧٧. حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة: ٢٠٠٠م.

٧٨. حفارو القبور.. الحضارة التي تحفر للإنسانية قبرها، روجيه غارودي، ترجمة عزة صبحي،الطبعة الثالثة، دار الشروق، ٢٠٠٠م.

٧٩. الحق المر، محمد الغزالي، الطبعة الثانية، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٨٠. حقوق الطفل في الإسلام، جودة محمد عودة، الطبعة الأولى، دار الفضيلة، جمهورية مصر العربية، ١٤١٨هـ-١٩٩٩م.

٨١. حقيقة القومية العربية، محمد الغزالي، الطبعة الثانية، دار نهضة مصر للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٩٩٨م.

٨٢. الحل الإسلامي فريضة وضرورة.. سلسلة حتمية الحل الإسلامي، يوسف القرضاوي، الطبعة السادسة، مكتبة وهبة، جمهورية مصر العربية، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٨٣. الحلول المستوردة وكيف جنَت على أمتنا... سلسلة حتمية الحل الإسلامي، يوسف القرضاوي، الطبعة الخامسة، مكتبة وهبة للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٨٤. دراسات عن الاستشراق والمستشرقين، منصور صدقي، دار الرسالة، دمشق، ١٩٨٨م

٨٥. الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا... سلسلة حتمية الحل الإسلامي، يوسف القرضاوي، الطبعة الخامسة، مكتبة وهبة للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٨٦. حوار الثقافات إدارة الأجندة والسيناريوهات المتنازعة، حسن وجيه، الطبعة الأولى، دار الفكر، سوريا، ٢٠٠٨م-١٤٢٩هـ.

٨٧. الخصائص العامة للإسلام، يوسف القرضاوي، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، دمشق-سوريا، ٢٠٠٠م.

٨٨. الخلاصة في خصائص العقيدة الإسلامية، علي بن نايف الشحود، الطبعة الأولى، بدون دار نشر، ماليزيا، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

٨٩. الدولة في الإسلام، خالد محمد خالد، الطبعة الأولى، دار ثابت للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
٩٠. رحلتي من الكنيسة إلى المسجد.. لماذا؟، ماري ويلدز، الطبعة الأولى، دار البشير للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٩٦٥م.
٩١. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود ابن عبدالله الحسيني الألوسي، الطبعة الثانية، دار إحيار التراث العربي، جمهورية مصر العربية، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
٩٢. زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم الجوزية، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، الجمهورية
٩٣. سسن ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة الربعي القزويني، تحقيق: محمد بن ناصر الألباني، الطبعة الأولى، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ١٤١٧هـ.
٩٤. سنن أبي داوود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني، تحقيق: محمد بن ناصر الألباني، الطبعة الأولى، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ١٤١٧هـ.
٩٥. سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق: محمد بن ناصر الألباني، الطبعة الأولى، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ١٤١٧هـ.
٩٦. السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، الطبعة الأولى، مجلس دائرة المعارف النظامية، الهند، ١٣٤٤هـ.
٩٧. سنن النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي، تحقيق: محمد بن ناصر الألباني، الطبعة الأولى، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ١٤١٧هـ.
٩٨. السيرة النبوية من الطبقات الكبرى، ابن سعد، الطبعة الأولى، الزهراء للإعلام العربي، جمهورية مصر العربية، ١٩٨٩م-١٤٠٩هـ.
٩٩. السيرة النبوية، أبو محمد عبد المالك بن هشام المعافري، تحقيق: جمل ثابت ومحمد محمود، الطبعة الثانية، دار الحديث، جمهورية مصر العربية، ١٩٩٨م-١٤١٩هـ.
١٠٠. شبهة انتشار الإسلام بالسيف عرض ونقد، فهد عبد القادر عبد الله الهتار، رسالة دكتوراة مخطوطة، كلية التربية، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، ١٤٣٢هـ.
١٠١. الشخصية الإسلامية، تقي الدين النبهاني، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م.

١٠٢. شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان، يوسف القرضاوي، الطبعة الخامسة، مكتبة وهبة للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
١٠٣. شمول الإسلام.. نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام، يوسف القرضاوي، الطبعة الثالثة، مكتبة وهبة، جمهورية مصر العربية، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.
١٠٤. الشياطين، دويستوفسكي، ترجمة سامي الدروبي الطبعة الأولى، دار ابن رشد، ١٩٨٥.
١٠٥. الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف، يوسف القرضاوي، ص٢٣، الطبعة الأولى، دار الشروق، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.
١٠٦. الصحوة الإسلامية في عيون غربية، محمد عمارة، الطبعة الأولى، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٧م.
١٠٧. الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد، يوسف القرضاوي، الطبعة الأولى، دار الشروق، القاهرة، ١٤٣٢هـ-٢٠٠٢م
١٠٨. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي،تحقيق : شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، لبنان ،الطبعة الثانية ، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.
١٠٩. صحيح البخاري مع كشف المشكل، ابن الجوزي، ، الطبعة الأولى، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٠م.
١١٠. صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزيه البخاري الجعفي، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
١١١. صحيح مسلم بشرح النووي، الإمام النووي، مكتبة العلم، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
١١٢. صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كرشان القشيري النيسابوري، ، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
١١٣. صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي، صامويل هنتجنتون، ترجمة: طلعت الشايب، الطبعة الثانية، شركة سطور للنشر، القاهرة، ١٩٩٩م.
١١٤. الصدمة... الحادي عشر من أيلول، نعوم تشومسك، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، سوريا، ٢٠٠٢م.
١١٥. صيحة تحذير من دعاة التنصير، محمد الغزالي، وما بعدها، الطبعة الأولى، دار نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٢م.
١١٦. ظلام من الغرب، محمد الغزالي، الطبعة الأولى، دار نهضة مصر، جمهورية مصر العربية، ١٩٩٧م.

١١٧. العالم الإسلامي اليوم خارطة القضايا والأوضاع، عبد الملك منصور، الطبعة الأولى، مؤسسة المنصور الثقافية، مصر، ٢٠٠٠م.

١١٨. العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب ، محمد حامد الناصر، الطبعة الثانية، مكتبة الكوثر، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٦م.

١١٩. عقيدة المسلم، محمد الغزالي، الطبعة الأولى، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٣م.

١٢٠. عقيدة المؤمن، أبو بكر الجزائري، الطبعة الأولى، مكتبة الصفا، جمهورية مصر العربية، ١٤٣٢هـ-٢٠٠٢م.

١٢١. العلاقة بين نصارى العرب وحركة الفتح الإسلامي في الجزيرة العربية والشام والعراق، منصور عبد الله، الطبعة الأولى، دار الكتاب، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٦هـ-١٩٨٧م.

١٢٢. العلاقات الدولية في الإسلام، محمد أبو زهرة،الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، جمهورية مصر العربية، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

١٢٣. علل وأدوية، محمد الغزالي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، جمهورية مصر العربية، ١٤٢٨هـ-١٩٩٨م.

١٢٤. العلمانية .. نشأتها وتطورها و آثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، سفر بن عبد الرحمن الحوالي، الطبعة الثانية، دار الجيل، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٠هـ٢٠٠٠م.

١٢٥. العلمانية النشأة والتاريخ والفكرة، عوض القرني، بحث مخطوط، موقع صيد الفوائد، ٢٠٠٠م.

١٢٦. العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، سفر بن عبد الرحمن الحوالي، الطبعة الأولى، دار الهجرة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ١٤١٠هـ١٩٩٠م.

١٢٧. الغارة على العالم الإسلامي... افتراءات المبشرين، شاتليه، ترجمة: محب الدين الخطيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٠هـ١٩٨٠م.

١٢٨. غياث الأمم عند التياث الظلم الغياثي، أبو المعالي الجويني، تحقيق: مصطفى حلمي وفؤاد عبد المنعم أحمد، الطبعة الثالثة، دار نهضة مصر، جمهورية مصر العربية، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

١٢٩. غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، يوسف القرضاوي، الطبعة الأولى، مكتبة الشروق للنشر والتوزيع، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

١٣٠. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاي، مكتبة الصفا، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.

١٣١. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الطبعة الأولى، مكتبة الصفا، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٣م-١٤٢٤هـ.

١٣٢. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الإمام الشوكاني، تحقيق عبد الرحمن أبو عميرة، الطبعة الأولى، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، مصر، ١٩٩٤م.

١٣٣. فرق تدعي للإسلام وموقف الإسلام منها، غالب بن علي العواجي، الطبعة الرابعة، المكتبة العصرية الذهبية، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

١٣٤. الفروق الأساسية بين النظام الاقتصادي الإسلامي والنظم الاقتصادية الوضعية، حسين شحاتة، الطبعة الأولى، دار نهضة مصر، جمهورية مصر العربية، ١٩٩٠م.

١٣٥. فقه الجهاد دراسة مقارنة لأحكامه وفلسفته في ضوء القرآن والسنة، يوسف القرضاوي ، الطبعة الأولى، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠٠٩م-١٤٣٠هـ.

١٣٦. فقه الجهاد، دراسة مقارنة لأحكامه وفلسفته في ضوء القرآن والسنة، يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠٠٩م.

١٣٧. فقه السيرة، الشيخ محمد الغزالي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ٢٠٠٢م-١٤٢٣هـ.

١٣٨. الفكر الإسلامي في مواجهة الفكر الغربي للراوي، ص٣١٠، و الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية ، سعيد عبد الفتاح عاشور، الطبعة الثالثة، منشورات مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطا، ١٩٩٥م.

١٣٩. الفكر الإسلامي في مواجهة الفكر الغربي، فؤاد محسن الراوي، الطبعة الأولى، دار المأمون، المملكة الأردنية الهاشمية، ٢٠٠٨م.

١٤٠. الفكر العربي الإسلامي، جهاد تقي صادق، الطبعة الأولى، دار الرشيد، العراق، ١٩٩٧م.

١٤١. في النظام السياسي الإسلامي... ثلاثية فقه الأحكام السلطانية رؤية نقدية للتأصيل والتطوير، عبد الكريم محمد مطيع الحمداوي، الطبعة الثالثة، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

١٤٢. قادة الغرب يقولون : دمروا الإسلام أبيدوا أهله، جلال العالم، الطبعة الثانية، دار الفكر للنشر والتوزيع، سوريا، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .

١٤٣. قاعدة مختصرة في قتال الكفار ومهادنتهم وتحريم قتلهم لمجرد كفرهم، ابن تيمية، تحقيق: عبد العزيز آل أحمد الطبعة الأولى، دار نهضة مصر، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٤م.

١٤٤. القاموس المحيط، مجد الدين الفيروز أبادي، الطبعة الثانية، دار المعرفة، لبنان، ٢٠٠٧م، ومختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، ص ٣٣٦، الطبعة الأولى، دار المعرفة، لبنان، ٢٠٠٥م.

١٤٥. قذائف الحق، محمد الغزالي، الطبعة الثانية، دار الشروق للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

١٤٦. قصة الحضارة، نشأة حضارة الشرق الأدنى، ول ديورانت، ترجمة زكي نجيب محمود، دار الجيل، ١٩٨٨.

١٤٧. قصص عن لينين، اسكندر كونونوف، ترجمة: برهان الخطيب، الطبعة الأولى، دار رادوغا، الاتحاد السوفيتي، ١٩٨٤م.

١٤٨. قوانين حظر النقاب... قراءة في الخلفيات الفكرية والسياسية، خباب مروان الحمد، الطبعة الأولى، دار الرشيد للنشر والتوزيع، بغداد، ٢٠٠٨م.

١٤٩. القومية، سفر بن عبد الرحمن الحوالي، الطبعة الأولى، دار الجيل للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

١٥٠. قيمنا المهددة أزمة أمريكا الأخلاقية، جيمي كارتر، ترجمة: حسام الدين خضور، الطبعة الأولى، دار أس بي آر، بدون تاريخ.

١٥١. قيمنا المهددة، أزمة أمريكا الأخلاقية، جيمي كارتر، ترجمة حسام الدين خضور، سبر إيجنسي للنشر، ٢٠٠٥م.

١٥٢. الكافي فقه الإمام أحمد بن حنبل، ابن قدامة المقدسي، تحقيق: محمد حسن محمد حسن اسماعيل الشافعي وأحمد محروس جعفر، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، لبنان، ٢٠٠١م-١٤٢١هـ.

١٥٣. الكافي في فقه الإمام أحمد بن حنبل، ابن قدامة المقدسي، تحقيق محمد حسن الشافعي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، لبنان، ٢٠٠١م.

١٥٤. كتابات أعداء الإسلام ومناقشتها، عماد السيد محمد إسماعيل الشربينى، الطبعة الأولى، دار الكتب المصرية، ١٤٢٢القاهرة، هـ-٢٠٠٢م.

١٥٥. الكراهية والعنصرية ضد الإسلام في الغرب، برنامج: شاهد على العصر، تاريخ الحلقة:١٨/٠٨/٢٠١٠م.-http://www.aljazeera.net/NR/exeres/8FE17222-D5F3-4ECC-A4F4-F38D70

١٥٦. http://www.ikhwanonline.com/new/Article.aspx?ArtID=6438&SecID=2 موقع أخوان أن لاين

١٥٧. لسان العرب، ابن منظور، الطبعة الأولى، دار الحديث، جمهورية مصر العربية، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

١٥٨. لماذا أسلمت...، نصف قرن من البحث عن الحقيقة، روجيه غارودي، ترجمة: محمد عثمان الخشت، الطبعة الأولى، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، ١٩٦٢م.

١٥٩. لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم، شكيب أرسلان، الطبعة الأولى، دار مكتبة الحياة، القاهرة، ١٩٤٠م.

١٦٠. الليبرالية نشأتها ومجالاتها، عبد الرحمن بن صايل السلمي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

١٦١. ماذا خسر العالم من انحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، الطبعة السابعة، مكتبة الإيمان، المنصورة، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

١٦٢. المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، محمد البهي، الطبعة الأولى، مطبعة الأزهر للنشر، جمهورية مصر العربية، ١٩٧٨م.

١٦٣. مجموعة الرسائل، حسن البنا، الطبعة العاشرة، دار الدعوة، جمهورية مصر العربية، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

١٦٤. مجموعة الفتاوى، تقي الدين أحمد بن تيمية، تخريج عامر الجزار وأنور الباز، الطبعة الأولى، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، مصر، ١٩٩٧م.

١٦٥. مجموعة فتاوى شيخ الإسلام، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: أنور الباز وعامر الجزار، الطبعة الثانية، دار الوفاء للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

١٦٦. مجموعة فتاوى ومقالات وفتاوى لابن باز، ابن باز، الطبعة الثانية، دار المكتب الإسلامي، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

١٦٧. محاضرات في الاستعمار، مصطفى الشهابي، الطبعة الثانية، معهد الدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٥م.

١٦٨. مدخل إلى القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، الطبعة الأولى، دار القلم، الكويت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

١٦٩. مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب، الطبعة الثانية، دار الشروق للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

١٧٠. المرأة والدين والأخلاق، نوال السعداوي وهبة رؤوف عزت، الطبعة الأولى، دار الفكر المعاصر، بيروت،١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

١٧١. المرأة والغربة، نوال سعداوي، الطبعة الأولى، دار المعارف للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٩٩٨م.

١٧٢. مستقبل الإسلام خارج أرضه، محمد الغزالي، الطبعة الأولى، دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

١٧٣. مشكاة المصابيح، محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى، دار المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

١٧٤. المشكلة الأخلاقية والفلاسفة، أندريه كريسون، ترجمة: عبد الحليم محمود وأبو بكر ذكرى، الطبعة الأولى، مطبعة دار الشعب، مصر، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

١٧٥. مشكلة السكان... التاريخ والآثار والنتائج، سمير قسيما، ص١٣، الطبعة الأولى، دار زكريا للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٩٥م.

١٧٦. المصوّر في التاريخ، شفيق جحا، منير البعلبكي، بهيج عثمان، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة التاسعة، ١٩٩٩م.

١٧٧. معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر عثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، الطبعة الرابعة، دار طيبة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٧م-١٤١٧هـ.

١٧٨. معالم في الطريق، سيد قطب، الطبعة الأولى، دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٠م.

١٧٩. معجم أعلام المورد (موسوعة تراجم لأشهر أعلام العرب والأجانب القدامى والمحدثين مستقاة من موسوعة المورد)، منير البعلبكي، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، لبنان، ١٩٨٢م.

١٨٠. معجم المصطلحات والشواهد والفلسفية، جلال الدين سعيد، الطبعة الأولى، دار الجنوب للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٦٠م.

١٨١. معركة الإسلام والرأسمالية، سيد قطب، الطبعة الأولى، دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٩م.

١٨٢. معركة الثوابت بين الإسلام والليبرالية، عبد العزيز مصطفى كامل، الطبعة الخامسة، منشورات مجلة البيان، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

١٨٣. المغني، موفق الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي وعبد الفتاح الحلو، الطبعة الثانية، دار عالم الكتب، المملكة العربية السعودية، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

١٨٤. المفصل في أحكام الهجرة، علي بن نايف الشحود، الطبعة الأولى، الدار مجهولة.

١٨٥. من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا، يوسف القرضاوي، الطبعة الأولى، دار الشروق للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

١٨٦. مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية. مجموعة من العلماء، الطبعة الأولى، مكتبة التربية العربية، الرياض، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

١٨٧. مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، كتاب صادر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الطبعة الأولى، تونس، ١٩٨٥م.

١٨٨. منظمات المجتمع المدني النشأة الآليات وأدوات العمل وتحقيق الأهداف، محمد الفاتح عبد الوهاب العتيبي، الطبعة الأولى، منشورات ملتقى المرأة للتدريب والبحوث، اليمن، ١٩٩٩م.

١٨٩. منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، عثمان بن علي حسن، الطبعة الثانية، مكتبة الرشيد، الرياض، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

١٩٠. مواطنون لا ذميون، فهمي هويدي، الطبعة الرابعة، دار الشروق، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٥م-١٤٢٦هـ.

١٩١. موت الغرب، أثر الشيخوخة والسكان وموتهم وغزوات المهاجرين على الغرب، باتريك جيه. بوكانن، ترجمة:محمد محمود التوبة، الطبعة الأولى، مكتبة العبيكان، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م.

١٩٢. نحن والإرهاب، محمود عبد الله، الطبعة الأولى، دار نهضة مصر للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٨م.

١٩٣. نحن والغرب، يوسف القرضاوي، الطبعة الأولى، دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤١٨هـ١٩٩٨م.

١٩٤. النزعة الاستعلائية في الفكر الغربي، محمد عواض هزايمة، الطبعة الأولى، دار الرسالة للنشر والتوزيع، سوريا، ٢٠١٠م.

١٩٥. نظام الإسلام الحكم والدولة، محمد المبارك، الطبعة الرابعة، دار الفكر، سوريا، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

١٩٦. نظام الإسلام، وهبة الزحيلي، الطبعة الثانية، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

١٩٧. نظام الحكم في الإسلام، تقي الدين النبهاني وعبد القديم زلوم، الطبعة السادسة، منشورات حزب التحرير، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

١٩٨. نقد القومية العربية في ضوء الإسلام والواقع، ابن باز، الطبعة الثالثة عشر، دار وهبة للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

١٩٩. النهاية في غريب الحديث والآثار، عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٢٠٠. نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: عصام الدين الصبابطي، الطبعة الأولى، دار الحديث، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٠م-١٤٢١هـ.

٢٠١. هل نحن مسلمون، محمد قطب، الطبعة الثالثة، دار الشروق للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

٢٠٢. هموم داعية، محمد الغزالي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٩٥م.

٢٠٣. واقعنا المعاصر والغزو الفكري، صالح الرقب، الطبعة الجديدة، الدار العالمية للتجليد، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

٢٠٤. وأوضاع غير المسلمين في الدولة الإسلامية مقاربة تأصيلية، أبو الحسن السماني، الطبعة الأولى، المركز العالمي للدراسات والبحوث، الخرطوم، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٢٠٥. الوسطية في ضوء القرآن، ناصر سليمان العمر، الطبعة الأولى، دار الوفاء، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٧م.

خامسًا: فهرس الموضوعات

ملخص البحث:

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا بحثٌ درسنا خلاله موضوعاً من أكثر المواضيع المعاصرة أهميةً، وهو خوف الغرب من الإسلام: أسبابه ونتائجه وآثاره.

وهو يبدأ بدراسة نشأة الخوف الغربي من الإسلام، وأهم المصطلحات المعبرة عنه، ومن ثم يظهر طبيعة العلاقة بين الإسلام والغرب وفق التصور القرآني، ووفق العلاقة التاريخية، ومن ثم وفق العلاقة المعاصرة.

ثم يبين أهم الأسباب التي تجعل الغرب يخشى من الإسلام، الأسباب القديمة والحديثة منها، ومن ثم دور الإعلام في تشويه صورة الإسلام.

ثم يبين طبيعة المخاوف الغربية، فمن هذه المخاوف ما ينبع من طبيعة الإسلام وخصائصه الذاتية، مثل الإقناع العقلي والفكري للإسلام، والجانب الروحي الذي يعاني منه المواطن الغربي أيما معاناة.

ويناقش البحث جملة من الشبه التي يحاول الغرب ترويجها لتشويه صورة الإسلام، مثل قضية المرأة والأقليات الدينية، وكون الإسلام دين إرهابي دموي.

ويبين البحث تهافت هذه الاتهامات، ويبين أن الإسلام بريء منها، وأن هذه الاتهامات هي ما يحاول الغرب تشويه صورة الإسلام من خلاله.

ويبين البحث آثار الخوف الغربي من الإسلام، ومن ثم يقارب طبيعة العلاقة المستقبلية بين الغرب والإسلام، ودور الحكام والعلماء في مواجهة المخططات الغربية.

Abastract

In the name of Allah, we glorify him; we ask Him for His assistance and beseech His forgiveness. We believe in Him, and in Him we place our confidence. We believe that Allah is One and he has no partner and Mohamad his Prophet and slaveThis study approaches one of the most important subjects at the current time. It is the reasons of the west afear from Islam.

It starts with studying the relationships between the Islam and the west along the old history until these days.

Then it study the Islam nature which the western afearance reasons.

After that it clarify the role of the western meadia in drawing the wrong picture for islam.

Finally the study research of scientists and rulers role.